

عدس وكافيار

سِيَر نساء يعشن في لبنان: بناء الذات ومدى فعاليتها وفرادتها

نجلاء حمادة

عدس وكافيار

سِيَر نساء يعشن في لبنان:
بناء الذات ومدى فعاليتها وفرادتها

نجلاء حمادة



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الطبعة الأولى

1436 هـ - 2015 م

ردمك 978-614-01-1565-1



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)

ص. ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان

فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http: //www.asp.com.lb

تصميم الغلاف: **ميدا فريجي مقدسي**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

الشكر لماري روز زلزل وهدى زريق وثريا التركي

على ملاحظاتهن واقتراحاتهن

ولسهير نصولي

على تشجيعها وطول انتظارها

المحتويات

مقدّمة

كانت بداية هذا العمل اتفاقية عقدت سنة 1998 بـــيني وبـــين "نور – جمعية المرأة العربية في بيروت" و"نور– دار المرأة العربيـــة في القاهرة" كي أكتب دراسة تنبثق عمّا تظهره ســـير شـــفويّة لنســـاء عربيات من لبنان وسوريا من خصائص وأساليب تميّزهنّ. طلبت مني الدراسة في نطاق سلسلة العلوم الاجتماعية التي كانت "نور" تعدّها. ولأسباب أدارية، لم يرى المشروع النور حينئذ. وبعد حوالى خمـــس عشرة سنة، عدت إلى التفكير في جدوى ذلك العمل وصمّمت على إنجازه. وممّا قادني إلى هذا القرار سياقان من التفكير هما:

1. ما لاحظته تكرارًا من تفاوت باهر بين تناول النظريات للنساء وتصوير الأدب لهنّ. فالنظريات غالبًا ما تكون شـــديدة الإجحـــاف بحقهن، فترسمهنّ متجانسات سطحيات وضعيفات. والأدب يحتفـــل هن، مظهرًا فراداهن مثمّنًا حضورهن وإحساسهن وقـــدراهن علـــى التحمّل وعلى اجتراح الحلول. فمثلاً، شتان ما بين اعتبار أرســـطو أن الأمهات لا يضفين على أولادهن سوى المادة وأن نمـــاذج الكينونـــة الجسدية والفكرية تنبثق بكاملها من الآباء وأن أرواح النســـاء غـــير خالدة، كأرواح الحيوانات وغير مفعّلي العقل مـــن الرجـــال، وبـــين تصوير سوفوكليس لأنتيغون بعمق إنسانيتها، فكرًا وعاطفة وشـــجاعة والتزامًا. وكم البون بعيد بين فكر روسو الذي طالب بإبقاء النساء في

البيوت وتعليمهن إطاعة الأب والزوج كما الكنيسة وبين أدب عصره الذي خلّد إيفيلينا وتعليقاتها الذكية على إسراف مجتمع لندن وسطحية بورجوازييه، والذي تعاطف مع الشخصيات النسائية في "العلاقات الخطرة" ومع مولي فلاندر وغيرهن من بطلات الروايات المتحررات المضفيات على مجتمعاتهن ألوانًا ونكهاتًا من إبداعهنّ.

وفي الحضارة الأسلامية، رسم الغزالي حدودًا لفضائل المرأة، معتبرًا أنها "واحدة بينما للرجل تسعمئة وتسعة وتسعين". وحدّد المطلوب منها في البقاء في البيت وبألاّ يسمع رجل غريب صوتها أو خطوتها، مقصرًا همّها ودورها على إرضاء زوجها وإطاعته (أنظر: الغزالي، "المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة"). وفي نفس الزمن العباسي جمعت النصوص الأولى من "الف ليلة وليلة" التي تظهر النساء ذكيات فاعلات ومتفاوتات في فضائلهن كما في رذائلهن. وفي الزمن المعاصر يعتبر مرتضى مطهري الزواج والطلاق "طبيعيين" عندما يباشر بهما الرجل وغير طبيعيين عندما يتبعان إرادة المرأة (مطهري، 1991، 273) وكأن النساء مخلوقات لا إرادة لهن، فإن أردن يكنّ خارجات عن الفطرة السويّة. أما في الأدب المعاصر، فحتى عندما يصوّر الأديب المجتمعات التقليدية والرجال المتسلطين، كما في ثلاثية "بين القصرين" لنجيب محفوظ، نرى أمينة، الشخصية شبه الأسطورية في مظلوميتها وطاعتها لزوجها، تخرج عن طاعته مرّة وتتعاطى مع باقي أفراد الأسرة بحكمة وذوق خاصين بها. أما معظم نساء محفوظ الأخريات، كما بطلات روايات أدباء وأديبات آخرين، فيظهرن أحرارًا في اختيار الوقوع في الخطأ، كبطلة "بداية ونهاية"، لنجيب محفوظ وبطلة "حكاية زهرة" لحنان الشيخ، أو في سلوك طريق العلم والمعرفة كبطلة "عزازيل" ليوسف

زيدان أو في التخطيط لإملاء إراداتهن، كبطلات "إسطاسية" لخيري شلبي و"شجرة الحب غابة الأحزان" لأسيمة درويش وغيرهن كثر.

هذا التناقض بين التنظير والأدب في موضوع النساء ينبع من التباين في تعاطي الفريقين مع خصوصية النساء. فيبدو أن واضعي النظريات من الرجال يستخدمون سلطتهم في رسم صورة المجتمع بشكل يرضي نرجسيتهم الذكورية ويخدم تطلعاتهم الأنانية، عن طريق التقليل من شأن النصف الآخر من المجتمع والتعتيم على أنسانيته. وبالمقابل، يستخدم الأدباء والأديبات هذه الخصوصية كمادة خصبة لإضافة أبعاد إنسانيّة وأخلاقيّة على أعمالهم وإغنائها باللون والحيويّة المتنوّعين. فكأن إجحاف النظريات في حق النساء يدعو الأدباء إلى إنصافهن، وكأن التعتيم عليهن يحفّز المبدعين من الكتّاب على اكتشاف مكنوناتهن التي يضفي عليها التكتّم والإقصاء جاذبية وسحرًا.

وهذا البون الشاسع بين نظرتي الفلاسفة والفقهاء إلى النساء، من جهة، ونظرة الأدباء (والفنانين) إليهن، من جهة ثانية، يدعو إلى التساؤل عن واقع أحوالهنّ، وعن كنه ذاتياتهن وعن حقيقة أساليب عيشهن. فهل نظرة المنظرين أم نظرة الأدباء هي الأقرب إلى واقعهن المعيش؟ هل حيوات النساء ذابلة رتيبة لا يعطيها دفأ ولونًا وهدفًا إلا وجود الرجل فيها؟ وهل هن مغلوبات على أمرهن ضعيفات أخلاقيًا كما ادّعى فرويد (أنظر فرويد 1925/1961، 257-258) وقاصرات عقلاً وبالتالي خلقًا كما رأى كانط(*)، أم أنهن مختلفات عن بعضهن كما الرجال، يتفاوتن في الذكاء والفضيلة والمقدرة ويشبه بعضهن من

(*) يعتبر إيمانويل كانط أن الأخلاق هي من فعل العقل وحده وأن النساء أقل عقلانية من الرجال. بل يرى أن العقلانية لا تليق بالأنوثة.

صورهنّ جوركي وفلوبير ومحفوظ وتولستوي وجبران وأراغون وسحر الموجي وغيرهم؟ وهل بين هؤلاء النساء ما يجمع بينهنّ ويميّزهنّ، بشكل عام، عن الرجال؟

ولو بحثنا عن صورة النساء عند المنظرات لوجدنا كارول كيليكان (1985، 188)، تظهرهن أعمق إنسانية من الرجال في حسّهنّ الأخلاقي، ولوجدنا فاطمة المرنيسي تفصل بين نظريات الغرب ونظريات المجتمعات المسلمة عن النساء، قائلة أن الأخيرة تعترف لهنّ بالذكاء فتقول أهنّ يمتلكن فتنة(*) ذهنيّة من ذكاء ومكر ليس للرجل مثلهما، ولفتنة جمالية تلهي الرجال عن العبادة (مرنيسي، 2000، 263-264). بينما طالما اعتبر الغربيون النساء أقلّ من الرجال ذكاء وأضعف منهم إرادة. فهل تحدو كيليكان نرجسية إزاء تقييم جنسها؟ وهل تنبع نظرة المرنيسي من تحيّز لحضارها؟ بل، هل تلعب النرجسية دورًا في تكوين معظم النظريات، سواء أكان المنظّر رجلاً أم امرأة؟

من هنا، قد يشكّل التاريخ الشفوي والأدبيات المنبثقة عن الدراسات الحقلية حكمًا أصلح للكشف عن حقيقة أحوال النساء في مجتمع بعينه، بعيدًا عن النظريات المتحيّزة ضدّهن أو معهن وبمعزل عن خيال الأدباء الذي قد ينحو بهم نحو المبالغة لإضفاء جمالية وتشويق على أعمالهم. فمن روايات النساء لسير حيواهن وما يرافقها من تعبير عمّا يعتمل في أنفسهنّ من سخط أو رضى أو تمنّ يمكن استخلاص

(*) في ما وراء الحجاب، تقول فاطمة المرنيسي أن نظرة الحضارة الإسلامية إلى النساء ترى فيهن هذين النوعين من "الفتنة". وفي "شهرزاد تذهب إلى الغرب" تستخدم المرنيسي شهرزاد مثالاً لإظهار اعتبار الشرقيين النساء شديدات الذكاء وقادرات على ابتداع الحلول وتغيير مجريات الأحداث.

الكثير عن أنماط بناء الذات عندهن وعن أساليبهن في التعايش مع تقاليد ونسق قيمية لاحظ الفيلسوف نيتشه، بحق، أنها لا تراعي إنسانيتهن، وفي مجتمعات أثّرت فيها نظريات فلاسفة وفقهاء لتحملها على تثبيط عزائم النساء والحدّ من ثقتهن بقدراتهنّ.

2. ومع هذا، وجدت أن الأعمال المعاصرة التي تتناول توصيف واقع العائلة العربية والنساء العربيات، منطلقة من نظرتها إلى هذا الواقع أو من استقصاء حقلي قوامه المراقبة والاستماع إلى ما يرويه الناس عن أحوالهم وعمّا مرّوا به، تنزلق أحيانًا في مزالق قد تشوّه الواقع أو تسيء فهمه. من هذه المزالق، النظر إلى المعلومات وتحليلها بنظرة وذهنية غربيين، فمثلاً تلاحظ سعاد جوزف أن سلفادور مينوشين يعتبر علائقية الذات بآخرين حالة مرضية نفسانياً لأنه يستخدم قياساً غربياً يثمن الفردية واستقلال الذات عن الآخرين (سعاد جوزف، 1991، 122). ومنها الانزلاق نحو المكابرة وتجميل الصورة والتباهي غير المبرّر على المجتمعات الأخرى، كقول مطهّري أن الرجل المسلم، بشكل خاص، يبذل المال والعناء كي يحوز رضى زوجته ويؤمن راحتها (مرتضى مطهّري، 1991، 182-184)، وقول بن مراد أن الطلاق المستشري في الغرب يقابله ندرة الطلاق في المجتمعات المسلمة، وأن ما عندهم هو أسوأ من وضع الطلاق حصرياً بيد الرجل حتى لو طلقها "ألف طلاق في اليوم" (محمد الصالح بن مراد، 1931، 186-187). ومنها ما ينحى نحو التظلّم والشكوى والمبالغة في تصوير الإجحاف في حق النساء وفي رصد التعنّت في ما تتّبعه العائلات والمجتمعات من أساليب وما تتبناه من تقاليد ونسق قيميّة تسهم في قهرهن، حيث تسقط بعض الحالات على الواقع العام برمّته. وهذه المناحي الثلاث التي وجدتها في تصوير بعض

الكتّاب والباحثين للنساء والعائلات العربية حفّزتني على محاولة وضع عمل يتجنب هذه المزالق في سعيه لنقل صور حيوات نساء وعائلات عربية، في مقاربة ترتكز على سير نساء، لبنانيات أو يقمن في لبنان، قبلن أن يروينها لي. وقد أملت أن دراستي للجدليات الفلسفية وكوني كاتبة عربية ذات جذور في البداوة كما في الحياة المدينية والريفية يسعفني في تجنّب ما آليت على نفسي أن أتجنّبه.

كذلك، شجعني على القيام بهذا العمل المنحى المعاصر نحو العناية بالتاريخ الاجتماعي بعد أن كان التاريخ في السابق يقتصر على الأحداث السياسية والحربية، التي لا مكان فيها للسواد الأعظم من النساء. وفي هذا الصدد، يقول ثيودور زيلدن بأن "دخول النساء إلى الحيّز العام سند التحدي للتقليد المعتبر الغلبة أو الانتصار هما هدف الحياة الأسمى" (ثيودور زلدن، 1994، 15). ويرى زيلدن أن "سير النساء، بصيغها المختلفة، هي الأكثر تجديدًا وابتكارًا بين كل ما يكتب في الأدب الحديث" (المصدر نفسه، 19). وزاد من اندفاعي لإنجاز هذا العمل كون لبنان "يعاني نقصًا معرفيًا وضعفًا مؤسسيًا" في مجال التاريخ الشفوي (وجيه كوثراني، 2015، 23).

فمع أن تصوير التاريخ الشفوي للواقع لا يخلو من ثغرات يسببها الخلط بين ما يتذكره الراوي وما يتخيّله، ومع ما يخالط التذكّر من انتقائية وتحريف (صالح علواني، 2015، 369-375)، إلا أن كونه تاريخًا طريًا لم يمرّ عليه الزمن وكونه أداة تمكن الرواة من فضح تضليل المعرفة المتداولة وافتراءاتها يجعله مصدرًا معرفيًا غنيًا قادرًا على ملء ثغرات المصادر التقليدية وتصحيحها (إبراهيم بوتشيش 2015، 163-165). وقد يستخدم التاريخ الشفوي لإجراء المصالحات بين معتدين ومعتدى

عليهم، كما حصل في أفريقيا الجنوبية وفي المغرب. كذلك قد ترمّم الشخصيات والأدوار عن طريق إعادة رواية قصص الأفراد والجماعات الواقعين تحت تأثير رواية سائدة تسيء إلى مهنهم وتحط من قدرهم (أنظر هيلد نيلسون 2001، 1-11). وهذا الدور الأخير لرواية السيرة يحفّز النساء وغيرهن من المهمشين على الرغبة في ترميم صورهم عن طريقة رواية حياتهم من وجهة نظرهم.

ولأن حيوات النساء غالبًا ما تكون غارقة في العائلة، حبًا وخدمة ورعاية، كما أنها الأكثر عرضة لعصف التقاليد العائلية أو لتنظيمها حيوات الناس، فهي الأصدق تعبيرًا عن اوضاع العائلة وقيمها وتطلعاتها وما يحكمها من تراث ومقاييس. ووقوع النساء أكثر من سواهن في قبضة ما تفرضه العادات المتوارثة، كما لما يطال هذه العادات من تطوير، يجعل من حيواتهن كاميرات صالحة لتصوير الراسخ في المجتمع كما حركيته ووجهة التغيير فيه. كذلك، فإن صحّ ما يقوله محمد السعدي من أن الرجال يتحدثون عن أنفسهم بينما تتحدث النساء عن معاناة أسرهن (محمد السّعدي، 2015، 113-148) تكون روايات النساء مدخلاً كاشفًا لأحوال عائلاتهن كما لأحوالهن.

منطلقات وضعتها لهذا العمل

تعمّدت في هذا العمل إغفال الرائدات من النساء. فلكي تكون الصورة التي يعكسها الكتاب ممثلة لأكبر عدد من نساء المجتمع، اخترت الكتابة عن نساء عاديّات، من موزاييك من الثقافة والطبقات الاجتماعية ومن بيئات تتراوح بين الأرستقراطي والبرجوازي والفقير

(أي بين الكافيار إلى العدس)، وبين المديني والقروي والبدوي، من مناطق متعددة من لبنان وجواره. فالرائدات والمرموقات كتب ويكتب عنهن الكثير، وهن نماذج قلّما تتكرّر. أما من كتبت عن حيواتهن فيمثلن نماذج لمعظم فئات المجتمع. فقد اخترت إقحام حيوات النساء ولغتهن، كما هما، على الحيّز العام بدلاً من إقتطاع موقع لبعضهن في الحيّز الذكوري العام وفي اللغة الذكورية الأكثر تداولاً. فالخيار الأخير يبقي السواد الأعظم من النساء خارج المعرفة ويبقي لغتهن على هامش ما يعتبر جديرًا بالتداول.

كذلك، فضّلت أن أكتب عن بعض من عرفت من النساء، عندما لا يتنافى هذا مع المعايير الأخرى التي وضعتها للكتاب. وفي هذه الحالات كنت أحيانًا راوية كما كاتبة لبعض التفاصيل التي سبق أن شهدتها أو سبق أن أخبرتني بها صاحبات السير. وقد اخترت أن أفعل هذا لاعتباري المعرفة الممتدّة في الزمن أدعى لاستحضار الصور والطرف التي تغني السيرة وتبثّ الحيوية الدّالة فيها، ولاعتقادي أن محبّة من نكتب عنهم أو التعاطف معهم قد يعمّق فهمنا لشخصياتهم. وقد حاولت ملء التفاوت بين سير من تجمعني بهن معرفة شخصية وسير من تعرفت اليهن من أجل هذا العمل، عن طريق تكرار الزيارات للفئة الثانية ومحاولة التعاطف، قدر الإمكان، معهن.

وقد سمحت لنفسي أن أجمع بين الفئتين لأن هذا العمل يقع في حقل معرفي يتناول من يملكون من الحرية والفرادة ما يستحيل معه توخي المعاييرالعلمية الصارمة. وقد سبق لكل من أرسطو وكارل بوبر ملاحظة أن هذا النوع من المعرفة ليس مجالاً للمعايير ولا للاستنتاج الحازمين. ومن هنا استنتج أرسطو أن أصلح تعاط مع هذه

الموضوعات يكون عن طريق الفطرة السليمة والتسليم باختلاف كل حالة عن سواها.

فهل يعني هذا أن السير الشفويّة لا تسعف في تكوين فكرة عن واقع عام ولا تساعد على استصدار أحكام وتوصيات، ولو فضفاضة، من أجل تحقيق مقدار أكبر من العدالة والفعالية لفئات ومجتمعات بعينها، بل من أجل معرفة أشمل للمجتمعات الإنسانية ولمساعدة الأفراد على اختيار أساليب أكثر نجاعة في التعاطي مع مجتمعاهم؟ والجواب على هذه الأسئلة هو نفيًا. فمن الوجهة المعرفية، التاريخ الشفوي هو مجال لتعبير المهمشين عن وأنفسهم مما يمهد للعمل على تحقيق درجة أعلى من العدالة والإنسانية في مجتمعاهم (أنظر ليندا شوبس 2015، 28) كما إنه المجال الذي تصحح الروايات فيه بعضها بعضًا بعفوية أكثر مما نجده في التاريخ الرسمي الموجّه في كثير من الأحيان لغايات الكتّاب ومقاصدهم (أنظر أحمد بيضون، 1989)(*).

وعندما لا يكون التاريخ الشفوي موجهًا لغايات مسبقة، يمكنه الجمع بين مجالات تضيف إلى الخلفية التاريخية (الرسمية) أبعادًا عن تفاصيل الحياة اليوميّة وعن المعتقدات، حتى الخرافي منها، وعن المشاعر والتجارب الذاتية التي يمرّ الأفراد بها. وهذا يضيف إلى التاريخ معرفيًا ويقرّبه من تجارب القارىء المعيشة وممّا يألفه أو يتوق لمعرفته بحشرية لعلها إنسانية قبل أن تكون أكاديمية. والنماذج التي يوفّرها

(*) وجد أحمد بيضون في إطروحته للدكتوراه وعنوانها "الصراع على تاريخ لبنان أو الهوية والزمن في أعمال مؤرخينا المعاصرين" أن المؤرخين المنتمين إلى طوائف بعيدة عن السلطة كانوا أكثر موضوعية من المؤرخين من الطوائف القريبة من السلطة أو من التنافسين على السلطة.

هذا النوع من التأريخ قد توفّر للقارىء العادي ما يسعفه في اجتراح أساليب سلوكية سبق أن نجحت في تحقيق غايات بعينها.

وفي مقابلاتي لصاحبات هذه السير جمعت بين الاستبيان الشفوي الذي كنت بموجبه أطلب من الراوية أن تخبرني عن ثقافة والديها وكيف تزوجا وعمّا حصّلته من تعليم وعن زواجها وأولادها وعملها وبين المحادثة التي كانت تسمح للراوية بأن تخبرني بما تريد من تفاصيل تطالها وتطال عائلتها. فما قرأته من توصيات حول الأساليب المرغوبة من أجل الموضوعية العلمية وجدت فيه من التضارب بين الأساليب الذكورية والجندرية (أنظر ليلى أبولغد، 1995/1988، 216) والماركسية والنفسية ما جعلني أقرّر أن أسلوب التقارب مع صاحبات السير والبعد عن العلاقة المتمايزة سلطويًا (سلطة المعرفة) عنهن أفضل معرفيًا وخلقيًا من العلاقة المرسومة تقليديًا في أساليب الاستقصاء الحقلي (في هذا اتّفق مع ثريا التركي، 1995/1988 وسعاد جوزف، 1995/1988) التي تتطلّب أن يكون الباحث مستمعًا غير متفاعل بالحديث مع من يأخذ منهم المعلومات.

وفي الغالب، وجدت تجاوبًا كبيرًا من النساء اللواتي طلبت اليهن أن يروين لي سير حيواتهن ليقرأها آخرون. وهذا أظهر لي أن وضع النساء في موقع الخاص، الحميم، والمسكوت عنه هي رغبة ذكورية لا علاقة لها بما يرغبنه لأنفسهنّ. فظهر لي أن كثيرات يحببن البوح بحقائقهن وحتى بأسرارهن (التي لم أفشها). وفي كتابة السيرة فضّلت الابتعاد عن كل ما قد يشكّل إحراجًا للمرأة أو لعائلتها دون أن يفيد الغاية من العمل.

أما قلة ذكر هذه السير، نسبيًا، للأعمال المهنية للنساء فيعود لسببين: أولهما الفئة العمرية المستهدفة التي لم يكن عمل النساء

المأجور، خارج المنزل والأرض والعائلة، قد شاع عندها بعد. والسبب الثاني اختياري للعاديات من النساء. فامتهان عمل أو مهنة كان قد شاع أكثر، بطبيعة الحال، عند الرائدات اللواتي سبقن زمنهن. ومع ذلك، فسير الكتاب تروي عن عدد من سيدات الأعمال والمعلّمات والموظفات ومسؤولات الجمعيات الخيرية والتراثية، كما تروي عن معدّة أفلام وثائقية ومؤسسة محمية لحماية السلاحف من الانقراض من حوض البحر الأبيض المتوسّط.

وبالنسبة للفئة العمريّة للراويات، فجميعهن، ما عدا الشقيقات آمال ومنى ومي (صاحبات "كوخ الصبايا")، تجاوزن الستين سنة من أعمارهن. وجميع السير ترتكز على مقابلات مع صاحبات السير، ما عدا سير رندة ونبيلة وليلى. فالأولى أجريت "مقابلاتي" معها على الهاتف، لوجودها في ألمانيا أثناء إعداد هذا العمل. والثانية، المتوفاة، ردفت مقابلاتي القديمة لها بما روته لي ابنتها سعاد. والثالثة، استعنت بعد اختفائها بشقيقتها، لإملاء فراغات في ما كانت روته لي، كصديقة، في آخر عهدي بها في سبعينات القرن الماضي. وقد استأذنت الراويات أو أقربائهن (لنبيلة المتوفاة وليلى التي لا يعرف مصيرها) في إضافة معلومات جمعتها من معرفتي السابقة بهن.

كذلك سمحت لنفسي أن أكتب عن سيدة أميركية الجنسية، رغم أنني كنت قد قررت أن أقصر الكتابة على نساء عربيات مقيمات في لبنان. إذ اعتبرت إليانور لبنانية وفق معايير بدت لي أصدق وأحق مما تقوله السجلات المبنيّة على قوانين فيها الكثير من الإجحاف. فلو ولدت إليانور في بلد أكثر تطوّرًا، أو لو أقامت فيه وخدمته وأحبته كما فعلت للبنان، لتوافر لها أكثر من شرط للحصول على جنسيته. وفي إضافتي

لقصتها اعتضت عن القانون القائم للجنسيّة في لبنان بما يجب أن يكـــون عليه هذا القانون، لو توخّى العدالة والإنصاف.

ولعل قيامي بهذه التجاوزات يدعم استنتاج بياجيـــه عـــن أن الذكور (من الأطفال) أكثر تقيّدًا بقواعد "اللعب" (أنظـــر: جـــان بياجيه، 1932/1965، 93، 83، 52) من الإناث. وقد يعتبر برهانًـــا إضافيًا على مقولة كارول كيليكان من أن النســـاء أكثـــر اهتمامًـــا بالعلاقات وبمن هم في رعايتهن وباشخاص بعينهم ممّا هنّ مهتمّـــات بالقواعد والمبادىء المجرّدة (كارول كيليكان، 1988، 9-10)، فأنـــا فضلت أن أكتب عمّن اعتبرتهن يمثّلن أنماطًا دالة ومشوّقة ومتكـــرّرة من المجتمع أكثر من التمسّك بقواعد ثابتة.

تسمية صاحبات السير

بعض من كتبت عنهن فضّلن تغيير أسمائهن، فكتبت "اسم ممـــوه" إلى جانب الأسماء المذكورة في عناوين سيرهن. لكن معظم من قابلت، لم يكن لديهن مانع من ذكر أسمائهن الحقيقية بما فيها اسماء العائلات الـــتي ينتمين إليها. ومع هذا ارتأيت أن تقتصر التسمية على الأسماء المعطاة لهن، دون ذكر اسم العائلة، إذ أردت، من جهة، تفادي أي إحراج أو اعتراض من العائلات، ومن جهة أخرى، حاولت تجاوز إشـــكالية الالتبـــاس في تكنية النساء بين عائلات آبائهن وعائلات أزواجهن. وأحببت أحيانًا أن أسمي النساء وفق تقليد في مجتمعاتنا يسميهن بأسماء أكبر أبنائهن أو باسم ابنة وحيدة، كأم سعيد وأم صلاح وأم حسين وأم رامز وأم سعاد. ولعل هذه التسمية هي أقرب للمساواة من تكنية الواحدة باسم عائلة زوجها، لأن أم فلان أو أم فلانة يقابلها أبو فلان أو أبو فلانة.

مهاجرات

عرفت ظاهرة الهجرة في منطقتنا الساحلية منذ زمن ليس بالقريب. ومن المشجّع عليها تاريخيًا طغيان التبادل التجاري فيها على الإنتاج الزراعي الذي من شأنه أن يكفي الأهالي ويقوّي ارتباطهم بأرضهم. ومن الأمور التي كثيرًا ما حدت بأهل بلادنا للهجرة، الخيال الطموح الذي عرفوا به، مما ما فتئ يحملهم على خوض المخاطر للوصول إلى حيث يعتبرون المجال أوسع لمزيد من التحدي ولمستوى أبعد من النجاح العلمي أو التجاري أو العملي.

أما النزوح بسبب الاحتلال والنزاعات والحروب فهو هجرة قصريّة تزيد من تعلّق المهاجر بوطنه، مؤثّرة في نظرته إلى العدالة والحق، ومحفّزة إياه، في كثير من الأحيان، على أن يحيا هاجس العودة وإعادة الحق إلى أصحابه، أو على أن يناضل من أجل تحقيق مجتمع أكثر عدالة وأنسانية.

والنساء بصورة خاصة، قد يغيّرن أماكن سكنهنّ بسبب زواجهن من أجانب. وفي هذه الحال يكنّ أقرب إلى المهاجرات عندما يحببن هذا التحدي، وأقرب إلى النازحات إن غلبهن الحنين إلى جذورهن.

زهرة (إسم مموّه)

زهرة هي ابنة أحد أوائل اللبنانيين الذين اغتربوا إلى أفريقيا. وقد عاد والدها إلى الوطن سنة 1930 ليستقر في مسقط رأسه، مدينة صور. تزوج من ثلاث نساء أنجب منهن أربعة عشر ولدًا: خمسة صبيان وتسع بنات. الزوجة الأولى ماتت باكرًا. والدة زهرة هي الزوجة الثالثة التي لم تنجب سوى البنات. وزهرة هي الثانية عشرة بين أولاد العائلة. تقول إن والدها كان عادلاً بين نسائه وإن بيتهم كان من ثلاث طبقات: طبقة لكل من الزوجتين اللتين بقيتا على قيد الحياة وطبقة للوالد. وكانوا جميعًا يصطافون كل سنة في جبل لبنان (حمانا أو فالوغا).

ألحقت زهرة بمدرسة للراهبات في مدينة صور حتى نالت الشهادة الابتدائية (سرتفيكا). وتزوجت في سن الثالثة عشرة قريبًا لها له ضعف ما لها من العمر، لم تكن تعرفه من قبل، وكان مغتربًا في أفريقيا. سافر العروسان فور عقد قرانهما إلى كوناكري عاصمة غينيا، حيث كانت حياتهما شاقة، خالية من أسباب الرفاهية التي كانت زهرة معتادة عليها. فكان عليها أن تتأقلم مع حياتها الجديدة في ظروف صعبة. وبقيا هناك خمس سنوات، أنجبت خلالها ثلاثة أولاد. وفي سنة 1958، عندما نالت غينيا استقلالها، عادت العائلة إلى لبنان. وبعد ثلاث سنوات في الوطن، عادت العائلة مجددًا إلى أفريقيا. وكان اغترابهم الثاني هذا في أبيدجان.

في أبيدجان، سكنت العائلة أول الأمر خارج المدينة، في برّ حرجي يعيش فيه الأفارقة في أكشاك من القش. و لم يكن عدد العائلات اللبنانية في تلك المنطقة يزيد على العشرة، كانت كل عائلة منها تسكن في بيت بسيط مبني من الإسمنت. هناك، عملت زهرة وزوجها في تجارة الكاكاو والبن، كسائر اللبنانيين من جيرانهم. فكان الزوجان يحمّلان ما يجمعه الأفارقة من البن والكاكاو في شاحنات ويرسلانه إلى مدينة أبيدجان. وكانت زهرة تشرف على وزن المحصول وتحميله وبيعه. ولمثابرتها وسهرها على مصلحة العائلة كان اللبنانيون هناك يصفونها بال"قوية" و"القديرة".

بعد خمس سنوات من العيش في منطقة الأحراج، انتقلت العائلة إلى مدينة أبيدجان. وهناك أسس الزوج معمل ألبان عاونته زهرة على إدارته. وبعد سنتين على إنشاء المعمل الذي لم يكن العمل فيه مربحًا، أسست زهرة شركة تأمين، فنجحت الشركة وكبرت، وهي لا تزال قائمة ومزدهرة إلى الآن. ويديرها اليوم اثنان من الأبناء، بعدما عاد الوالدان للتقاعد في لبنان.

وأثناء زيارتي لها، كانت زهرة تردّد القول: "تعبت. استويت". قالت عن نفسها أنها كالفيلة، لا تموت في الطريق بل تقصد مغارة تموت فيها، وأن مغارتها هي وطنها الذي عادت لتموت فيه. ومع أن زهرة لا تزال في أوائل سبعيناتها، فهي تبدو وكأنها تحاول أن تقصّر زمن مكثها في "المغارة"، فهي تدخّن بشكل متواصل. أما الطاولة التي تتوسّط غرفة الجلوس التي قابلتها فيها فكانت تنوء بأنواع الحلو العربي والإفرنجي، رغم أنها مصابة بأمراض السمنة والضغط والسكري.

أنجبت زهرة وزوجها أربعة صبيان وخمس بنات. وعندما كانوا في بر أبيدجان أرسل الوالدان البنات إلى مدرسة داخلية لراهبات اليسوعية في بيروت، وأرسلا كبير الصبيان للإقامة عند عمه في مدينة أبيدجان كي يلتحق بالمدرسة هناك. وكانت زهرة تأتي كل صيف إلى لبنان، حيث تصطاف مع جميع أولادها في أحد مصايف الجبل. لتعود إلى زوجها وعملها في أفريقيا، بعد تأمين حاجات البنات ومتطلبات مدارسهن. وعندما اشتعلت الحرب الأهلية اللبنانية سنة 1975، استقدم الوالدان بناهما إلى أبيدجان خوفًا عليهن من العنف المستعرّ في بلدهن، وألحقاهن بمدرسة الليسيه هناك. وكان الوالدان يستعينان بأستاذ لغة عربية لتعليم جميع أولادهم حتى لا يفقد الأولاد صلتهم بلغتهم الأم أو ينسوا ما يعرفونه منها. وعندما أنهى أكبر الصبيان المرحلة الثانوية، أرسلاه للدراسة الجامعية في فرنسا، حيث تخصص في الطب. وهو يزاول مهنته هناك، بعد أن تزوج من فتاة لبنانية. أما ولداهما اللذان يعملان في شركة التأمين في أبيدجان، فقد تخرجا من قسم التجارة وإدارة الأعمال في جامعة القديس يوسف في بيروت.

ولزهرة نظرية في تعليم البنات وتمكينهن ماديًا. فهي تقول إن "الدنيا خربت" عندما أصبحت النساء يتعلمن ويتوظفن فلم يعدن يطعن أزواجهن وغدون يتخلين عنهم بسبب نزوة عابرة أوعند أقل هفوة. وتضيف زهرة إلى أسباب "خراب الدنيا" تخصيص الآباء أرصدة بنكية أو مبلغًا دوريًا من المال لبناهم، فهذا أيضًا يشعرهن بالاستقلال عن أزواجهن ويسمح لهن بتقويض دعائم العائلة لأسباب واهية كان من شأنهن التغاضي عنها لو كن ماديًا تحت رحمة الزوج.

وانسجامًا مع نظريتها هذه، زوّجت زهرة أربعًا من بناهّا في سن السابعة عشرة، بعد حصول كل منهن على الشهادة المتوسطة (البريفيه). واحدة منهن فقط تزوجت في لبنان وثلاثة في أبيدجان. والابنة الخامسة، الوحيدة التي حصلت على شهادة جامعية، من قسم التجارة وإدارة الأعمال في جامعة القديس يوسف كما فعل شقيقيها، تزوجت أيضًا في أبيدجان.

حضرت ثلاث من شقيقات زهرة القسم الأول من مقابلتي معها، وعبّرن جميعًا عن رأيهن المماثل لرأي شقيقتهن في استقلالية النساء. فجميعهن لا يتقبّلن النقاش في اعتبار تمكين المرأة ماديًا مفسدًا لها ومقوّضًا لاستمرارية الأسرة. ولم تغيّر زهرة من موقفها أو تخفف من حدّته عندما ذكّرها أنها أخبرتني أنها خسرت كثيرًا مما أنتجته لأنها لم تكن مستقلة ماديًا عن زوجها، وأنها عاشت كل حياتها كامرأة عاملة كادحة ناجحة، حققت الكثير في عملها وبنى أولادها على ما أسسته. وبدا أنها تعتبر خسارتها المادية أقل ضررًا من الاستقلالية، أو تعتبر نفسها شواذًا عن القاعدة لكونها لم تسلك سلوك الأخريات المستقلات ماديًا في هدمهن لدعائم الأسرة. وبدا تقديرها لإنتاجيتها ملتبسًا: فهي تنظر إلى نفسها على أنها منهكة تعبة أكثر مما تعتبر أنها قديرة وناجحة ومحققة لذاتها في الحياة العملية.

أما ما تفتخر به زهرة من دون أي التباس فهما أمران: نجاحها في تربية أولادها تربية صالحة وأنجازاتها في حقل العمل الخيري. فهي أسست جمعية الزهراء، بناء على نصيحة شيخ جاء من داكار إلى أبيدجان سنة 1980 واستمرت الجمعية حتى 2002. وكان أعضاؤها أربع عشرة سيدة، حصّلن اكتتابات من الموسرين اللبنانيين وأقمن

الاحتفالات ذات الريع الخيري من أجل مساعدة أيتام ومرضى ومحتاجين في لبنان ومحتاجين لبنانيين في أبيدجان. وانطلقت من بيت زهرة جمعية خيرية أخرى، جميع أعضاؤها ما عداها من الرجال.

أما أولادها، فتقول زهرة عنهم إنهم مؤمنون طيبون ومهذبون. فهي علّمتهم الصلاة والصوم، وواحدة من بناتها محجبة، وصغير أبنائها الذكور حج بيت اللّه ثلاث مرات، وهو يخمّس (أي يعطي خمسًا للمحتاجين) كل ما يكسبه. تقول إن ابنها هذا يطلب منها ألاّ تردّ أي محتاج خائبًا. وهو يهاتفها يوميًا. وعندما يستشف من صوتها أنها منزعجة من أمر ما، يستقل أول طائرة إلى لبنان ولا يرجع إلى عمله قبل الاطمئنان عليها.

تعيش زهرة حاليًا في مدينة صور. وبعد عملها في أفريقيا لأكثر من أربعين سنة، من الثامنة صباحًا حتى السابعة مساء من كل يوم، لا تزال تذهب إلى هناك شهرين من كل سنة لتزور أولادها وتتأكد من حسن سير العمل في الشركة التي أسستها. وفي صور، قلما تتواصل مع غير من عرفتهم في أبيدجان. تقول إنها قرأت كتبًا كثيرة، أدبية ودينية. وعندما سألتها عن رأيها في ولاية الفقيه، أجابتني أنها، في أمور الدين، ترجّح ما يمليه عليها عقلها على ما يقوله المشايخ.

بدت زهرة في تقييمها لمسار حياتها فخورة أكثر منها سعيدة. وبدا أن الفخر لا ينسيها ما فاتها من السعادة. فالسعادة في نظرها مرادفة للراحة والرفاهية اللذين لم يتسنّيا لها في حياتها. ولا يبدو أنها تعتبر امتلاك حريّة الخيار في إدارة دفة مجريات أمورها ضروريًا من أجل السعادة. فهي لم تعط الحرية لبناتها بل حاولت تزويجهن باكرًا من قادرين على توفير الرفاهية لهن. وتقول إنها تجد بعض التعويض

عمّا فاتها في تديّنها وتطلّعها إلى مجيء القائم (المهدي- الإمام الثاني عشر من نسل النبي - صاحب العصر والزمان، الذي يؤمن المسلمون الشيعة بأنه عائد إلى الأرض ليصلح أحوالها) وإلى نعيم خالد يوعد به المؤمنون الصالحون. وقد حدثتني زهرة كثيرًا عمّا كتب عن مجيء المهدي وعن علامات قرب مجيئه التي شرعت بالظهور، لكنها طلبت إليّ ألاّ أكتب عن هذه الأمور.

جوهانا

لو أردت أن أضع عنوانًا لما روته لي جوهانا عن مسار تجربتها في هذه الحياة لاخترت "ثورة بلا غضب". فهي خالفت الكثير من النظم والتقاليد دون أن تعادي من اختلفت معهم في وجهات النظر. وحرمت من كثير مما يتّيسر لمعظم البنات والنساء ومما استحقته بل مما جنته يداها، دون أن تغضب ودون أن يترك القهر رواسب من المرارة في نفسها، بل كانت دائمًا تستفيد من التجربة للارتقاء النفسي والروحي، فلا تلوم ظالميها ولا تندب سوء طالعها. فكأني بها تعتنق الحكمة القائلة "إن الشيء الوحيد الذي لا يقدر أحد أن يأخذه منك هو ذاتك وما تملكه أو تكتسبه هذه الذات من تطوير وترشيد وتنقية لصفاتها وقدراتها". ولعلّها استنارت بمقولة القديس فرنسيس الأسيزي: "عندما تترك هذا العالم، لن تأخذ معك شيئًا مما حصّلته. تأخذ معك فقط ما أعطيته: قلبًا غنيًا بالخدمة والتضحية والبذل والشجاعة".

وجه جوهانا هادىء عطوف يعكس قناعتها بما أوصلتها التجربة اليه من صبر وحكمة كما من طاقة على التصدي للظلم ومجابهة الظالمين. وحاليًا هي تعيش مجنّدة لإحقاق الحق ولمساعدة أناس يطلبون مساعدتها ك"مدرّبة على الحياة". وبواسطة عملها هذا يستفيد الآخرون من خبرتها فيتفادوا مطبات وقعت فيها قبلهم لأنها

لم تكن تعرف حقوقها ولأنها وضعت ثقتها بمن لم يكونوا أهلاً للثقة. ورغم أنها مؤمنة وكاثوليكية التربية والانتماء، فجوهانا تنتقد بعض ممارسات الكنيسة وتعبّر عن عدم اقتناعها ببعض تقاليدها وتعاليمها. وهي تدأب على محاولة إنصاف النساء لاقتناعها التام بأن كافة المؤسسات الدينية تجحف بحقهن، ولو بدرجات متفاوتة. كذلك تطالب جوهانا بإنصاف المثليين، إيمانًا منها بحق كل إنسان في اتّخاذ خياراته والتعبير عن ذاته.

ولدت جوهانا في غانا من أبوين لبنانيين، مولودان في منطقة المتن. وقد تعرفا على بعضهما في أفريقيا. وهي الإبنة الثالثة وصغرى العائلة التي لم يولد لها أولاد ذكور. لم يكن والداها قد حصّلا قدرًا كبيرًا من التعليم. وفي أفريقيا، كان الوالد الريفي المنشأ يعمل في التجارة، بينما كانت الوالدة، المترعرعة في بيئة ثقافية وشبه أرستقراطية، تخيط الثياب للبنانيين وأوروبيين من المقيمين في القارة السوداء. وتعتبر جوهانا أن التفاوت في بيئة المنشأ بين والديها واضطرارها للتأقلم مع كلا العائلتين الممتدتين، وفيهما من يشغف بالقراءة والموسيقى، من ناحية، ومن تخبز على الصاج ومن يزرع الأرض، من ناحية ثانية، منحها قدرة على التكيّف في بيئات مختلفة وعلى تفهّم أنماط عديدة من الناس.

عندما كانت جوهانا في الخامسة من عمرها، أرسل والداها بناتهما الثلاث إلى بيروت لإلحاقهن بمدرسة داخلية للراهبات. سجّل قلب الصغيرة وذاكرتها ترك الوالدة لها في عهدة غرباء، دون ان تلتفت إلى الوراء أو تلين لبكاء صغيرتها، كتخلّ ممن كانت تعتبرها مصدر أمنها والملاذ الموثوق لحمايتها. لكن الجرح العميق لمشاعر

جوهانا لم يولّد عندها حقدًا أو لومًا. فأخبرتني أنها استطاعت، رغم صغر سنها، أن تحوّل هذه التجربة إلى درس في ترسيخ الاعتماد على الذات، دون سواها. كذلك لم تؤثر هذه التجربة في اقتناعها الراسخ بحب والديها لها. ومن تأثير مدرسة الراهبات على جوهانا تعميق إيمانها وإعدادها لمسار روحي استغرق جانبًا مهمًا من وقتها واهتمامها وأغنى تجربتها في الحياة. وقد لبّى الإيمان حاجة الطفلة إلى راع محب تعتمد عليه وتستجير به في أوقات الشدة.

ولما قامت ثورة 1958 في لبنان، استقدم الوالدان بناتهما إلى منزل العائلة الأفريقي. ثم أرسلا الابنة الكبرى إلى انكلترا واستبقوا الصغيرتين معهما في غانا. وحتى لا تنقطع الفتاتان عن الدراسة كليًا، انتدب الوالدان خوري الرعية لإعطائهما دروسًا في اللغة العربية. وكانت هذه الدروس سببًا في عزوف جوهانا عن اللغة العربية وانصرافها لدراسة اللغة الإنكليزية بمفردها. ومنذ ذلك الحين، وبسبب وفرة الوقت المتاح لصغيرة غير ملتحقة بمدرسة، شغفت جوهانا بقراءة الكتب باللغتين الفرنسية، التي كانت تعلمتها في مدرسة الراهبات، والإنكليزية، التي درستها على نفسها في أفريقيا. وقد ساهم بقاؤها لسنين مع والدتها في اكتساب جوهانا أساليب السلوك الراقي والكثير مما تعتبره "فن الحياة". كذلك اغنى نشأتها وجود الاستعمار البريطاني في غانا، وما أضفاه ذاك الوجود من أجواء ثقافية ناشطة. والحفلات الموسيقية التي كانت العائلة تواظب على حضورها أدّت بجوهانا إلى اكتشاف شغفها بالموسيقى وأثّرت في تكوين ذوقها الموسيقي.

وفي سن السادسة عشرة أحبت جوهانا شابًا لبنانيًا مقيمًا في غانا، في الخامسة والعشرين من عمره. تزوج الحبيبان (خطيفة) دون

رضى والديها، اللذين كانا يرفضا تزويج صغرى بناتهما قبل شقيقتيها. وتقول جوهانا إنها أحبت في ذلك الشاب وفرة حيويته وشغفه مثلها بالموسيقى وعطفه الدافق عليها، كما رغبت في الإسراع بالزواج منه كي تتحرّر من سطوة الأهل ومن تحكّمهم بمصيرها. قاطعها أهلها ثلاث سنين بسبب زواجها هذا، فلم تكن تلتقي في ذلك الوقت إلا الشقيقة التي تكبرها التي بقيت تتحيّن الفرص للاتّصال بها من دون علم الأهل. وعندما حملت جوهانا، عاد أهلها للتواصل معها. وهي تذكر أنها أثناء ولادتها الأولى، وأثناء معاناتها من آلام المخاض المبرحة، سمعت أفرادًا من عائلة زوجها يطردون والدتها التي أتت تزورها في المستشفى.

أنجبت جوهانا طفلين، ذكرًا وأنثى. وكانت سعيدة جدًا في ذلك الزواج الذي لم يدم أكثر من سبع سنوات، قضى زوجها الشاب الستة أشهر الأخيرة منها يصارع المرض العضال، وقضتها هي تخدمه وترفّه عنه وتحاول المستحيل لرفع معنوياته. فكانت تصطحبه إلى حفلات الزجل الذي يحب وتحاول مساعدته بعلاج الإبر الصيني وبالمساج وبكل وسيلة تخطر لها على بال. ولم تكن تألو جهدًا في السهر على راحته.

بعد وفاة زوجها، تركت جوهانا طفليها لأسبوعين عند والدتها وعزلت نفسها في دير، محاولة تجميع أفكارها وترويض حزن طاغ قررت أن تتعاطى معه على طريقتها. ومن القرارات التي اتّخذتها في تلك العزلة أنها قررت رفض ارتداء السواد الذي تفرضه التقاليد على الأرامل.

أرادت عائلة الزوج المتوفى أن تأخذ طفلي جوهانا منها. وبقيت الدعاوى قائمة بين الفريقين لخمس سنوات، حسمت في نهايتها المحكمة الروحية الدعوى لمصلحة الأم. أما الدعوى التي لم تسفر عن

إعطاء جوهانا وعائلتها المكلومة حقها، فكانت تلك التي أقامتها على شقيق زوجها. فقد أعطت بعد وفاة زوجها وكالة لـذلك الشـقيق على أملاكها، فخان الأمانة وباع الأملاك لمصلحته. وعندما أقامت جوهانا دعوى لتحصيل حقها وحق أولادها عـزف أهلـها عـن مساعدتها خوفًا من غريمها ذو اليـد الطـولى والشخصـية القويـة والمعارف الكثر. لكن جوهانا ثابرت على المطالبة بـالحق، فربحـت الدعوى بعد مدّة طويلة. لكن قيمة ما استحق لجوهانا وأولادها كان أقل بكثير من القيمة الأصلية، بسبب الانحدار الكبير الـذي اصـاب العملة اللبنانية في تلك الفترة.

وفي خضم الدعاوى بين جوهانا وعائلة زوجهـا، تقـدّم أحـد أصدقاء الزوج المتوفى لطلب يدها، فوافقت علّها تجد فيه عونًا وتعويضًا لولديها عما فقداه من سند. لكنها وجدت بعد الزواج أن زوجهـا لم يكن لديه من الشجاعة والعطف عليها ما يؤهله للوقوف معها في وجـه شقيق زوجها. ورغم أنها لم تكن مرتاحة في هذا الزواج، بقيت فيه ستًا وثلاثين سنة، أنجبت ابنتين في بداياتها. تقول جوهانا أن ما أبقاهـا مـع هذا الزوج كل هذه السنين كان عطفه على أولادها من الـزواج الأول وكونه أبًا حنونًا لجميع أولادها، دون تفرقة. أمـا في علاقتـها معـه كزوجة، فعانت كثيرًا من كذبه ومعاشرته نساء أخريات ومن تبديـده لمقومات عيشهم التي كانت تبذل الوقت والعناء في سـبيل تحصـيلها. فكان يقوّض في أيام ما تكون قد قضت سنين في إرساء دعائمه.

وتفصيل هذا أن الزوجان عملا في التجميل ومواده، وأسسا في هذا السبيل مراكز في لبنان وكندا. وعندما عادت جوهانا من إحدى سفراتها إلى كندا للاهتمام بمركز عملهما هناك، وهي سفرة طالـت

حوالى الثلاثة أشهر لوجود إحدى بناها هناك، وجدت ما كانت أسسته في بيروت متخبطًا في الفوضى، وعلى وشك الانهيار. فسوء تصرّف زوجها وخشونة تعاطيه مع الموظفين جعلا معظمهم يتركون العمل في غيابها. ورغم هذا، بقيت جوهانا تزكي زوجها أمام الناس وتزيّن صورته في نظرهم، فتصوّره على إنه رجل ناجح وزوج صالح. بل إنها قبلت بأن تكون أملاك العائلة ومقدّراتها كلها باسمه، رغم أنها كانت فعليًا عماد عمل العائلة وأساس نجاحها العملي ونظرة المجتمع الإيجابية لها.

عندما شعر أصدقاء العائلة المقربون بتردي العلاقة بين جوهانا وزوجها، اتّهمها بعضهم أنها سببت لزوجها عقدة نقص لأنها نمت سريعًا في الحياة العملية وأتخذت الكثير من المبادرات، مما أشعره بقلة اقتداره قياسًا بها. فهي وسّعت مركز التجميل ليشتمل على صفوف للرقص وللإيروبيك ولغرف للتدليك، وشاركت في حلقات حوارية تلفزيونية (توك شو) ونظمت مؤتمرًا عن مرض نقص المناعة (1984) وأنشأت جمعية لتعريف الشباب اللبناني في كندا ببلده، وغير ذلك من النشاطات العملية والاجتماعية. وتجاوبًا مع وجهة نظر اللائمين، أوقفت جوهانا جميع أنشطتها كي تريح زوجها. لكن الأمور لم تستتب بينهما لأنه كان يحكّم سكرتيرته، التي تزوجها لاحقًا، بأمور عائلتهما، وكان يطلب من زوجته أن تجلس في المقعد الخلفي للسيارة، بينما تجلس "سكرتيرته" إلى جانبه في المقعد الأمامي.

وبعد أن كبر الأولاد واستقل كل منهم في عمله وحياته العائلية، أقامت جوهانا دعوى طلاق على زوجها. صعق الزوج، خاصة لأنه لم يرد أن تهتز الصورة التي كانت زوجته قد رسمتها عنه

في أذهان الناس. عينت محاميًا للاهتمام بالدعوى، لكنه لم يقم بواجبه نحوها، إذ وافق على تسوية لا تعطي جوهانا نفقة أو شيئًا مما يستحق لها من الحقوق. فكان ردّ فعل جوهانا أنها رفضت طلاقًا يشتمل على تسوية مجحفة بحقها، فبقيت متزوجة كنسيًا، رغم أنها منفصلة عن زوجها منذ سنة 2001. وقد تزوج زوجها سكرتيرته زواجًا مدنيًا في قبرص، فغدا بذلك زوجًا لواحدة بحسب الكنيسة ولأخرى وفق قانون قبرص المدني. وهو لم يخبر أولاده بزواجه الثاني، فعلموا به من كلام الناس، مما أفسد علاقته بهم.

تركت جوهانا بيت الزوجية وذهبت إلى ابنها المقيم في غانا. ثم رافقت زوجة ابنها إلى كندا، حيث وضعت الأخيرة مولودها كي تحق له الجنسية الكندية. بقيت جوهانا ستة أشهر مع عائلة ابنها، اعتبرتها فترة هناء عائلي ونقاهة من فشل زواجها. كانت كنتها تتعاطى معها وكأنها تعتبرها في مكان والدتها المتوفاة. أما الطفلة الجميلة فكانت مصدر فرح لهم جميعًا. بعد ذلك زارت جوهانا ابنتها المقيمة في لبنان ثم عادت إلى كندا حيث تقيم ابنتها الأخرى. وبما أنه سبق لجوهانا وعائلتها أن حصلوا على الجنسية الكندية، فقد اشترت شقة واستقرت هناك، حيث تعيش على ما تقدّمه الدولة لها من معاش تقاعدي وعلى مساعدة أولادها لها عندما تدعو الحاجة. فعلاقتها بأولادها الأربعة وعائلاتهم جيدة، وهي تزورهم دوريًا وتنعم بالتواصل مع أحفادها الثمانية. ولا تأسف جوهانا على كل ما جنته ماديًا وضاع منها، بل إنها وزّعت مصاغها بين بناتها وكنتها، وأقنعت ابنها بأن يخصص معاشًا لزوجته، لاقتناعها بوجوب التقييم المالي للعمل المنزلي ولخدمة العائلة ورعاية صغارها.

أما بالنسبة إلى حياتها الخاصة، فهي تقضي معظم وقتها في الخدمة الاجتماعية وفي "التدريب على الحياة" الذي تساعد به الآخرين دون مقابل. ولم تعد جوهانا منسجمة مع أي مؤسسة دينية، لكنها تقول إنها تشعر بأن الله، بما هو محبة، يملأ قلبها. ومن نعمه عليها أنها توصلت إلى أن تكتب رسالة إلى زوجها تخبره فيها بأنها سامحته على كل إساءاته.

علاقتها بشقيقتيها حميمة. وقد كانتا في السابق تصفانها بالأنانية، لأنها لم تكرّس كل طاقتها ووقتها من أجل العائلة، كما فعلتا. لكن وجهة نظرهما هذه تغيّرت. وحاليًا، يبدي أولاد شقيقتيها إعجابهم بما حققته خالتهم من خلال اهتماماتها المتنوعة، وبالنمو والعمق اللذين جنتهما بفضل توزيع نشاطها بين العائلة والمجتمع والعمل المنتج. وأحدهم عبّر عن هذا الإعجاب بقوله لوالدته: "يا ليتك مثل خالتي جوهانا".

وإزاء التغيير الذي يجسّده التفاوت بين نظرة شقيقتيها الأولى إلى عملها خارج البيت ونظرة أولادهما له، تبدو جوهانا ثابتة القناعة منذ البدء بحق المرأة بالعمل وبالتعويض المالي عن عملها في المنزل. وهي في هذا سبّاقة إلى بعض ما لحقها الزمن اليه، كما سبقته في أمور أخرى كرفض ارتداء ملابس الحداد السوداء وفي التعلّم من الصعوبات بدل الحقد على مسببيها. وفي المستقبل، قد يلحق التطور بجوهانا في هذه الأمور وسواها، مع أنها لا تطرح نفسها أبدًا كرائدة أو مبدعة، بل تنصرف بهدوء وثقة وثبات إلى عيش قناعاتها.

تيريز

في الجبل المتني سوبر ماركت تملكه عائلة وتديره تيريز، الزوجة والوالدة. لفتني في تيريز رقيًا ولطفًا في التعاطي مع الزبائن كما لفتني أتقانها لعملها. ومع هذا، فهي تعمل وكأن فكرها في مكان آخــر. وفي تعابير وجهها نظرة تقول إنها تحمل سرًا تنوء به. لا تهتمّ لشكلها وكأنها لا تزال تعوّل على ما كان لها من جمال طبيعي وهي تلميــذة صغيرة، فهي ترتدي ما يشبه الأزياء المدرسية، وتربط شعرها علــى طريقة ذيل الحصان، ولا تستخدم محسّنات الشكل من عمل الألــوان أو المزين. إنها تبدو وكأنها منذ زمن لم تعد تنظر في المرآة. وأحيانًا بدا لي أنها تريد أن يرى الناظر اليها مدى عذابها أكثــر ممــا يهمّهــا أن يسترعي جمالها انتباهه. على صدرها صليب لم أرهــا مــن غــيره، ورجوعها إلى ذكر اللّه بين الفينة والأخرى ينمّ عن عمق إيمانها. ومع ذلك، فهي تعبّر أيضًا، من وقت لآخر، عن خوفها ممّا قد تخبئه لهــا الأقدار في المستقبل.

بالإضافة إلى هذه الانطباعات، ذكّرتني تيريز بنســاء أخريــات عرفتهنّ، ممن كنّ ذات ذكاء مميّز في المدرسة وبقين جديّات ومعتدّات بمنطق الحق والواجب والأسلوب المباشر. فهؤلاء عــادة لا يكــوّنن الكثير من الصداقات في مجتمع يغلب فيه الإيمــان بالشــطارة علــى التمسّك بالحق. وأمثالهن يتعلّقن بالأصول والعناوين الصريحة، فــلا

ينسجمن كثيرًا مع النساء، خاصة في المجتمعات التي لا يحصل النساء فيها على ما يردن إلا بطرق ملتوية بسبب الإجحاف بحقّوقهنّ المتغلغل في بنيان تقاليد المجتمع وقناعاته. ولعلّ إصرار تيريز على الأسلوب المباشر الصريح من التعبير يرجع إلى تديّنها وليس فقط إلى ثقتها بقدراتها الفطرية التي تعتقد أنها لا تحتاج إلى إضافات من لون وتخطيط. وقد تكون بقيت على أسلوبها الطفولي المباشر لأنها وجدت أنه لم يعق تجاوزها للصعاب الكثيرة التي واجهتها أثناء هجرتها إلى أفريقيا.

ولدت تيريز في أفريقيا من أبوين لبنانيين كانا قد هاجرا بحثًا عن الثروة أو مجرّد الرزق، وعادا إلى لبنان بعد سنة من ولادتها. الحقها والداها بمدرسة للراهبات في عينطورة المتن، مسقط رأس العائلة. وبعيد نيلها الشهادة الابتدائية، سمعت ردّ والدها الجازم على طلب والدتها بأن يسمح لتيريز بأن تكمل تعليمها، قائلاً: "هذا القدر من الدراسة يكفي لفتاة". اندفعت الصغيرة إلى غرفة والديها وركعت أمام والدها مستصرخة عاطفته قائلة: "أنا لا أريد منك أي شيء سوى السماح لي بأن أكمل تعليمي". ويبدو أن الوالد تأثر باندفاع ابنته في طلب العلم، فاستجاب لرجائها، خاصة بعد أن رأى في وجهها تصميمًا يشوبه الهلع من إثباط عزيمتها. وقد ساهمت نتائجها المدرسية الممتازة في إقناعه بحقها في الخروج على المألوف في ضيعتهم. فكانت النتيجة أن والد تيريز قبل إلحاقها بمدرسة داخلية للراهبات في أنطلياس، وصار يتباهى أمام أهل الضيعة بابنته المتميّزة بذكائها وطموحها.

لكن طموح تيريز الدراسي لم يحملها بعيدًا. ففي السنة التي نالت فيها شهادة البكالوريا، وكانت عندها في السابعة عشرة من

عمرها، تعرّفت إلى ابن عمّتها القادم من أفريقيا بحثًا عن عروس، فتحابا وتزوجا رغم معارضة الأهل ودموع الوالدة. ولأن الكنيسة لا تحبذ زواج من كانوا على هذه الدرجة من القربى، اضطرا للاستحصال على إذن خاص من المطران كي يسمح لهما بالزواج.

سافر العروسان إلى ليبيريا في أفريقيا حيث كان الزوج يعمل مع إخوته في الاستيراد والتصدير. وهناك ولد ابنهما البكر ثم شقيقته. وقد وجدت تيريز الحياة هناك صعبة. فزوجها كان يقضي سحابة أيامه في عمله، وهي تقيم مع شقيقيه وعائلتيهما. كان متنفسها الوحيد شقيقيها اللذين يعملان ويقيمان في البلد الإفريقي ذاته. وكان سندها الأساسي شقيقها الأكبر الذي كان يزورها دائمًا. وفي أحد الأيام هجم بعض الأفارقة على منزل أخوي تيريز فحرقوا ممتلكاتهما وقتلوهما. ولم تعش أم تيريز طويلاً بعد ابنيها، فماتت حسرة في السنة اللاحقة لمقتلهما.

كان وقع هذه المصائب على تيريز كبيرًا جدًا، فهي مرهفة الإحساس وكثيرة التعلّق بأهلها. وقد زادت الغربة، التي أبعدتها عن والدها ومن بقي من إخوتها في محنتهم، وصعوبة حياتها الجديدة، من حنينها اليهم وإلى وطنها. وقبل أن تستجمع بعض قوة لمواصلة حياتها ومسؤولياتها حيال البيت والزوج والأولاد كانت الأقدار قد أعدت لها مصيبة من نوع آخر.

فقد شكى أحد العمال زميلاً له لزوج تيريز، فاستدعى الزوج العاملين ليتحقق من الموضوع. ولما تحقق من أن الأمر لا يستحق أي عناء ولا أي إجراء بحق العامل، وبينما هو يخبرهما بما توصّل اليه، خرّ العامل المشكو منه، الذي كان مصابًا بداء الصرع، ميتًا فجأة. اتُّهم

زوج تيريز بقتل العامل وزُجّ به في السجن. وتعزو تيريز تلفيق تهمة القتل لزوجها إلى كون شقيقة العامل المتوفى كانت صديقة لوزير الداخلية ممّا أكسبها سلطة وقدرة على إملاء إرادتها حتى في التجني على آخرين.

بقي زوج تيريز في السجن عامين ونصف. وكانت تيريز تزوره يوميًا، وتناضل للقيام بمهامها الأخرى، بما فيها وأهمها العمل على تخليص زوجها من محنته. كانت تتعرّض للتفتيش والمهانة كلما زارته في السجن. وكان عليها التعاطي مع القضاة والمحامين وملاحقة الدعوى الخطيرة المقامة عليه.

وفي هذه الفترة الحرجة والحزينة من حياتها، كانت تيريز تجد عزاءها بالصلاة، فتكثر من الذهاب إلى الكنيسة. كانت تذهب حافية القدمين مبالغة في التعبّد. وقد ساعدها في زمن محنتها هذه خوري الرعية الإنكليزي الأصل، فكان يزورها ويقنعها بأن تسلّم قلبها إلى اللّه. وفي ليلة من ليالي تلك الفترة، كانت تيريز تصلّي أمام تمثال للعذراء وضعته في غرفة نومها مع أولادها، فغلبها التعب ونامت. كانت قد أضاءت شمعة أمام التمثال. وأثناء نومها، سقطت الشمعة من إنائها وأحدثت حريقًا في الغرفة التي كانوا جميعًا نيامًا فيها. لم تنج تيريز وأولادها من الحريق إلا بأعجوبة. فهي تقول إنها سمعت من يوقظها قائلاً لها "قومي"، فقامت وحملت أولادها الثلاثة إلى الخارج، وبذلك نجت العائلة المعذّبة من ميتة شنيعة ومؤلمة.

ولم تبرّأ ساحة زوج تيريز إلا بعدما تغيرت الوزارة في ليبيريا وخسر وزير الداخلية سطوته. ولدى خروج الرجل من السجن طلبت اليه تيريز العودة إلى لبنان، لكن أشقاءه أقنعوه بالبقاء في

أفريقيا. وحتى لا يضطرون إلى العيش تحت وطأة الاتّهـام بالقتـل ووصمة السجن، غيّرت العائلة مكان سـكنها ونقلـت الأولاد إلى مدارس جديدة.

وفي سنة 1985 وقع انقلاب في ليبيريا أودى بسلطة رئيسـها. واتّهم المنقلبون قاضي القضاة السابق بأنه أخذ رشوة من زوج تيريز كي يبرّئه من تهمة القتل العمد. عندئذ لم تجد العائلة مندوحـة مـن العودة إلى بلدها لتنجو بنفسها، تاركة التجارة التي صـرف الـزوج سنين في تأسيسها.

تقول تيريز إن رجوعهم إلى الوطن كان زمن الحرب الأهلية التي بقيت مستعرة في لبنان حتى 1990. إلا أنها فضّلت العيش المتواضع في بلدها على كل العزّ والرفاه اللذين عاشتهما في أفريقيـا، في زمـن ازدهار عمل زوجها. وهي تعترف بفضل أفريقيا عليهم في ما جنـوا من مال اشتروا به بناية وأراضي زراعية في ضيعتهم، إلا أن الغالـب عن أفريقيا، في ذاكرتها، هو العذاب الذي تكبّدته فيها، بسبب مقتل شقيقيها وسجن زوجها، خاصة أن كل ما حصل لهم مـن معانـاة وقهر كان ظلمًا، ولا مبرر له أو معنى.

وحاليًا، يزرع زوج تيريز أرضه خضارًا وفاكهة عضوية تبيعها تيريز وابنهما البكر، الذي لم يصل إلى ما وصل اليـه إخوتـه مـن مستوى تعليمي. في دكانهما دفء محبب، قد يكون مبعثه رضى تيريز عن رجوعها إلى حضن الأهل والوطن. أما الحزن الذي طبعه علـى وجهها ما قاسته في الغربة، فيضفي عليها جاذبية بطلات القصـص المأساوية. ويكثر المترددون على سوبرماركت تيريز وابنها، من أهـل المنطقة والمصطافين. فالمنتوج صحي لذيذ الطعم والبائعة لطيفة قديرة

مكافحة بالإضافة إلى دأبها على العمـــل وإلى الأمانـــة والـــذوق في تعاطيها مع زبائن المحل مما يشعرهم بالثقة أنها حريصة على الالتـــزام بإعطاء كل واحد أكثر بقليل مما يحق له. فالطريق الذي دأبت تيريـــز دائمًا على سلوكه كان الاستقامة واعتبار رضى اللّه قمّة ما تبتغيه في هذه الحياة.

رندة

حصلت رندة في حياتها على ثلاث جنسيات، من بينها واحدة فقط كانت نتيجة خيار اتّخذته. فهي ولدت فلسطينية. وحازت على الجنسية اللبنانية بعد سنوات من نزوح عائلتها من فلسطين إلى لبنان، بسبب الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين. أما جنسيتها الألمانية فحصلت عليها لأنها اختارت الزواج من رجل أحبته، صدف أنه كان ألمانيًا.

ولدت رندة في حيفا التي كانت عائلة والدها قد انتقلت اليهـا من يافا بسبب تعيين جدها لأبيها قائممقامًا في حيفا. جدتها لوالدها لبنانية. وفي حيفا درس والد رندة في مدرسة ليسيه (علمانية فرنسية) أتقن فيها اللغة اللاتينية، مما أتاح له فيما بعد الحصول علـى منحـة للدراسات العليا في تورينو في إيطاليا. أما والدة رندة فمـن مدينـة الناصرة، وقد درست في مدرسة الفرنـدز (الكـوايكر) التبشـيرية البروتستانتية الأميركية في رام الله. وحتى بعد الاحتلال الإسـرائيلي، لا يزال الكثير من عائلة والدة رندة يقيمون في الجليل. وقد رحلـت أسرتها إلى لبنان، مع أسر فلسطينية كثيرة أخرى سنة 1948. وكانت رندة حينها في الثالثة من عمرها. أما شقيقها فكان يكبرهـا ببضـع سنين.

أقامت عائلة رندة في مدينة طرابلس حيث عمـل والـدها في الشركة العراقية للبترول (آي بـي سي). وفي أوائل الخمسينات من

القرن الماضي، حصل جميع أفراد العائلة على الجنسية اللبنانية، أسوة بكثير من الفلسطينيين المسيحيين من أبناء الطبقات البورجوازية أو أصحاب المهن الحرّة.

التحقت رندة وشقيقها بمدرستي الأميركان التبشيريتين، للبنات وللصبيان، في مدينة طرابلس. وبعد بضع سنوات، توقف العمل في الآي بي سي، فانتقلت العائلة إلى بيروت، حيث التحقت رندة بالمدرسة الأميركية للبنات فيها. وفي تلك المدرسة التقيت بها، حيث كنت وإياها من الدفعة نفسها وفي الفصل ذاته.

كانت مدرستنا تابعة لبعثة إنجيلية تبشيرية، وهي مدرسة عريقة من أوائل مدارس البنات في المنطقة، تفتخر بأن فان دايك وضع الترجمة الإنكليزية الحديثة للإنجيل في غرفة من غرفها. وقد التحقت رندة بهذه المدرسة في الصف الثاني تكميلي. ولم تمض أشهر على وجود الفتاة ذات الشعر الأسود الناعم والغمازتين والقامة الفارهة في المدرسة حتى تبيّن لنا أنها أبرعنا في معظم المواد الدراسية وأنها المميزة بيننا في أناقة أدائها وانسياب حركتها في الرقص والألعاب الرياضية. ولعلّ أغرب ما حصل بحلول رندة بيننا أنها أوجدت في وقت قصير تغيّرًا في "حضارة" المدرسة، فصارت بعض العبارات "غير المهذّبة" متداولة ومعجبًا بها وبجرأتها بعد أن كانت الفتيات ينفرن من عبارات أقلّ منها بعدًا عن "التهذيب". فطريقة رندة في لفظ تلك العبارات كانت تضفي عليها طرافة تغطي على معانيها. ومن العبارات المهذّبة التي ردّدتها الصبايا كثيرًا على طريقة رندة: "يقبرررررني عبد الناصر".

عند التقائي برندة، كان والداها يوليانها الكثير من الاهتمام. فشقيقها الأكبر سبق أن سافر للدراسة في الخارج، وبقيت وحدها

معهما. كان والدها يصرّ على أن تتمرّن يوميًا على رقص الباليه الذي كانت تتلقى الدروس فيه منذ طفولتها. وكانت عائلتها تنقل سكنها كلما لاحظت اهتمامًا بريئًا من رندة بأحد أبناء الجيران، كأن تكلمه من على شرفة المنزل. أما هي، فكانت تضحك من ابن الجيران كما من الجديّة التي كان والديها يأخذان بها حديثها معه.

ومن أجمل ذكريات السنة الأولى لالتحاق رندة بمدرستنا أن بنات من صفنا (الثاني تكميلي) التحقن بفرقة وديعة جرّار للرقص الشعبي. ففرقتها أدت الدبكات المتقنة، المطعّمة ببعض الرقص الشعبي الروسي، في مهرجانات بعلبك في صيف تلك السنة (1957). وكانت الفنانة الكبيرة فيروز نجمة البرنامج الذي رقصت فيه زميلاتنا في المهرجان. وقد اختارت وديعة جرّار رندة من بين فريق الدبكة لتؤدي رقصة منفردة بالجرّة لا يزال الكثيرون من أبناء ذلك الجيل يذكرون روعتها. فرندة التي كانت في مشيتها لا تكاد تلامس الأرض من خفة وطئها، بدا انسياب حركتها في تلك الرقصة أشبه بطيران فراشة لا تحمل ثقلاً ولا تخشى تعثّرًا.

عدت فالتقيت برندة في الجامعة الأميركية في بيروت، بعيدًا عن قمع معلمات المدرسة التبشيرية اللواتي كن يفرقننا في شعب مختلفة تخفيفًا من "الشيطنة" التي كنا نتسبب بها مجتمعتين. وفي الجامعة كنت أنتقي المواد التي كان لي فيها خيار من بين مواد الأدب الإنكليزي الذي تتخصص رندة فيه، ليس فقط حبًا بدراسة المادة، بل تعويضًا عما فاتنا في المدرسة من تقارب على مقاعد الدراسة. وكانت أخبار رندة الطريفة وسرعة خاطرها تجعلاننا ننتظرها في غرفة الطالبات أو في تجمعات بعد الظهر في بيت إحدانا، حتى يصبح للجلسة رونق

وحيوية نفتقدهما في غيابها. وكنا في تلك الأيام نضحك كثيرًا عندما تخبرنا رندة أنها تطلق الآذان وهي تغسل الصحون عندما تسمع أمها ترتّل التراتيل الكنسية. ذلك أن والدي رندة لاقيا منها الأمرّين لأنه صدف أن كل من أعجبها ورافقته من الشبان كان من المسلمين.

بعد التخرج، أحبت رندة أن تدرس السكريتاريا، ثم عملت لأربع سنوات في شركة كونتيننتال للزيوت، ثم في شركة لبنانية، انتقلت منها إلى العمل في شركة تلفزيون ألمانية. وفي الشركة الأخيرة، التقت والتر، الشاب الألماني العاشق للشرق الأوسط، فتحابا وتزوجا.

كان والتر قد اختار دراسة اللغة العربية كمادة إضافية أثناء دراسته الجامعية في بلده. وكان، ككثير من أبناء الستينات، معاديًا للفاشية ولمختلف أشكال الشوفينية العنصرية، فتلاقت قناعات رندة السياسية والتزامها بالعروبة وبالقضية الفلسطينية مع مزاجه واندفاعه السياسيين، وهو المنتمي إلى الحزب الاشتراكي الديمقراطي في بلده. ولم تأل رندة جهدًا في تغيير نظرة والتر إلى مجتمعات العالم العربي وقضاياه، بعد أن كانت نظرته اليها، بطبيعة الحال، متأثرة إلى حدّ ما بالنظرة الغربية. فكان من تأثيرها عليه أن غاص في قراءة كثيفة معمّقة عن خصائص المنطقة وتاريخها. وإلى جانب ما بيّنته له قراءاته، وجد حجج زوجته المدمغة بمعاناتها ومعاناة عائلتها، مفحمة، فاقتنع بحماس بأحقية قضيتها. وكان والتر من سريعي البديهة المندفعين في التعبير عن قناعاتهم بجرأة وعزم وقوّة حجة.

كانت النتيجة أن ذلك الألماني الموظف في قسم الأخبار في تلفزيون بلاده، وصاحب الميول الإنسانية والجرأة في التعبير والموهبة

الفذة، أعدّ، بمؤازرة دؤوب من زوجته رنـــدة، عشـــرات الأفـــلام التوثيقية عن الموسيقى والرقص والأدب في أجزاء مختلفة من العـــالم العربـــي، وعن الطوائف الدرزية والسريانية والأرمنية وعن عائلات من الخليج ومن رأس بيروت. كذلك أعد والتر فيلمًا وثائقيًـــا عـــن الجامعة الأميركية وآخر عن إدوار سعيد. وقد شكلت أفلام والتـــر هلفر التي كانت تبث مع الأخبار الألمانية وجهة نظر إيجابية متعاطفة مع قضية الشعب الفلسطيني ومؤدّية إلى تثمين مـــا تمتلكـــه المنطقـــة العربية من تنوّع وغنى حضاريّين ومن تعايش وتسامح. وقد استفزت أفلامه جماعات من المساندين للصهيونية وعبّأتهم ضده. لكن والتـــر ورندة صمدا في قناعاتهما واستمرا في العمل في خدمة قضايا آمنا بها وأرادا كشف البروباغندا المغرضة ضدّها.

وكانت رندة تتجنّب التقيّد بوظيفة، لتتمكن من مرافقة زوجها في مهماته التي تنقلا بسببها بين الأهوار في العراق ولبنان ومصر وبين مقرّ وظيفته في ستوتغارت. كانت ترافقه في مقابلاته مع أكـــاديميين مثل كمال الصليبـــي وزعماء سياسيين أمثال حسن نصـــر اللّـــه. فكانت تساعد في الترجمة وفي إيصال المعاني وحواشيها بين الطرفين. وكانت بعد إعداد الأفلام الوثائقية، تقضـــي أيامًـــا في مراجعتـــها وتشذيبها ثم في ترجمة نصوصها الألمانية واضعة ترجمتها إلى الإنكليزية في أسفل الصور.

وقد اقتصرعمل رندة الوظيفي، بعد زواجها، على ســـنتين في أوائل التسعينات استلمت فيهما إدارة مكتب التلفزيون الألماني، بما في ذلك الحسابات، التي لم تكن تحب التعاطي بها ولا كانت معدّة أصلاً لهذا التعاطي. لكن عنايتها في القيام بأي مســـؤولية توكـــل اليهـــا

ومقدرتها الذهنية المتشعّبة الأبعاد والمواهب مكناها أن تتقن العمل وتحوز رضى القيّمين عليه. وإلى جانب مساندتها لزوجها في عمله، قامت رندة لوحدها بإعداد أفلام وثائقية إخبارية للتلفزيون الاسكوتلندي. ومن أجل إعداد هذه الأفلام، كانت تقوم بأبحاث وتجري مقابلات وتراجع معلومات كثيرة ومتنوعة وتغربلها، بعد أن تقابل ما بينها استشفافاً للحقائق الثابتة.

ورغم الحب الكبير والانسجام السياسي والعملي بين رندة ووالتر، عانت رندة من ميل والتر للتمادي في شرب الكحول. وهي تعتبر إدمانه هذا كما إدمانه التدخين من تأثير الميول الأناركية (الفوضوية) التي جذبت الكثير من أبناء جيله. وقد بقي والتر في صراع مع الإدمان حتى وفاته بسرطان القولون سنة 2008.

كذلك عانت رندة في زواجها بسبب رفض والتر الإنجاب، لكون "العالم مليئاً بالأطفال المحتاجين للرعاية والعطف، فلا حاجة إلى إنجاب المزيد منهم"، وكان يقول لها: "يمكننا تبني أطفال فقراء من سري لانكا".

لم يتبنّ والتر ورنده أطفالاً، لكنهما لعبا بجدية والتزام دوريهما كعرّابي شقيقين ألمانيين من أبناء أصدقائهما. فكان والتر يظهر للولدين من الاهتمام ما يفوق اهتمام والدهما البيولوجي بهما، بدليل أنه كان يقطع المسافات الطويلة، عدة مرات في الأسبوع، كي يساعد أحدهما في دراسته اللغة اللاتينية. ولا تزال رندة، بعد وفاة والتر، معنية بتنشئة الفتيين وبمساعدة ذويهما في الإعداد لمستقبلهما. وهي الآن منهمكة في إقناع أكبرهما للتقدّم لشهادة البكالوريا الدولية المعتمدة في ألمانيا، بعد أن صرّح بعدم رغبته بالتقدّم لها.

كانت وفاة والتر صعبة جدًا على رندة. وبعد مماته بقيت حياتها متصلة به وبإنجازاته، متمحورة حول ما خلّفه من أفلام وكتابات. فانشغلت في أرشفة أعماله والأضاءة عليها، محاولة إعطاءها ما تستحقه من نشر وبث وتقدير. وانشغالها هذا كان من الأسباب التي أبقتها في هامبورغ بعدما فقدت من كان صلتها بالمجتمع الألماني. وكأني بها أشفقت من التخلي عن تجربة عاشتها مع أوروبي تبنى مقولة السهروردي عن "نور الشرق وظلام الغرب"، تلك المقولة التي تأثر بها مفكرون ألمان آمنوا أن الشرق الأسطوري هو البيئة الأصلية للإنسانية وهدف مسارها الروحي. ولا شك في أن أمورًا مادية وحياتية، كالبيت والتأمين الصحي اللذين تملكهما في ألمانيا ولا يتوافرا لها في بلادها، والعناية الطبية الممتازة التي توفرت لوالدتها هناك، ساهمت في بقائها في بلد زوجها بعد وفاته، مكتفية بزيارات قليلة إلى لبنان حينما يتسنى لها ذلك، حيث بقي لها بعض الأقرباء وصديقات الصبا.

ولم يمض كثير من الوقت على وفاة والتر حتى وجدت رندة نفسها ملزمة بالعناية الدؤوب المستمرّة بوالدتها. فشيخوخة والدتها ووحدتها (بعد وفاة زوجها وهجرة ابنها إلى أميركا) وما رافقهما من ضياع ذاكرتها وذهاب قدرتها على العناية بنفسها، جعلت رندة تتصدّى لهذه المهمة الجديدة، بكفاءتها وتنظيمها وفعاليتها المعهودتين. مضت سنين ورندة تلازم والدتها وتعنى بها في الليل والنهار ولا تفارقها أبدًا، إلى أن توفيت الأم في أواخر سنة 2013.

وفي الفرص القليلة التي تسنّى لي الالتقاء بصديقة الأيام الجميلة، أثناء حياتها مع زوجها ثم في فترة انهماكها بالعناية بوالدتها، تولّد

عندي إعجاب بما صارت عليه رندة من جديّة مسؤولة في سني نضجها. لكن صورتها الراسخة في ذاكرتي من أيام الدراسة بقيت تطلّ برأسها من وقت لآخر، فتجعلني أغالب بصعوبة التوق لسؤالها عمّا جرى لمواهبها المميزة، في الرقص وكتابة الشعر باللغة الإنكليزية وفي اقتطاف ثمر الفرح المتنوّع من على شجر الأيام المتعاقبة. وجدتني أحار حيالها بين الإعجاب بصورتين مشعّتين مختلفتين لشخص واحد: واحدة تجذبني إلى الأيام الحلوة المتخففة من المسؤولية إلا عن تنمية الذات والتفريج عنها، وثانية تحوز إعجابي لما فيها من إنجاز في مساندة شعبها وقضيتها، دون أن يضيرها أن معظم عملها ممهور باسم غير اسمها. والأخيرة هي شخصية تنطوي على كثير من نكران الذات ومن التضحية في سبيل زوجها ووالدتها، من أحبتهما بتفان وأغدقت عليهما عناية أتقنتها كما طالما أتقنت كل ما كانت تقوم به.

هالة

طالما كانت هالة شغوفة بالكتابة وبالنضال السياسي في سبيل بلدها السليب، لكن ظروفها حملتها للتنقل بين وظائف في التجارة والإعلام والعمل المصرفي، كما حملتها من فلسطين إلى لبنان لتستقر بها في أميركا. وإلى جانب ما فرض عليها كانت هالة تجد بعض الوقت لتنصرف إلى ما ترغب القيام به.

ولدت هالة سنة 1943 في القسم الغربي من مدينة القدس الذي احتله الإسرائيليون سنة 1948. كان والدها من القدس ووالدتها من حيفا. تذكر بيتهم في القدس، خاصة السلالم التي وقعت من عليها في طفولتها وهي نازلة من الدور الذي كانوا يسكنونه إلى الدور الذي كان جدها وجدتها يقيمان فيه. وقد تمكنت هالة من زيارة بيت العائلة في القدس سنة 1996، بعد أن أصبحت مواطنة أميركية، فوجدته غدا مقر المستشارية البريطانية. وجدت أيضًا أن الإسرائيليين بنوا متحفًا للشهداء (ياد فاشيم) على الأرض التي يملكها والدها على تخوم القدس. وهي لا تزال محتفظة بأوراق تثبت ملكية عائلتها للبيت كما للأرض.

كان والدها وعمها ناشطين في مقاومة الاحتلال الإسرائيلي. وبعد حادثة وقعت سنة 1948 لم تخبرها العائلة تفاصيلها، أصبح والدها مطلوبًا من السلطات، حيًا أو ميتًا. وفي صباح تلا ليلة لم

يناموا فيها لأن الرصاص بقي يلعلع فوق رؤوسهم، سافروا إلى القاهرة تاركين في فلسطين جدهما التي رفضت أن تغادر البيت المقدسي. تذكر هالة من تلك الليلة أن والدها أمرها بالاختباء وأنها لم تكن خائفة. وقد بقيت جدة هالة في منزل العائلة حتى سنة 1955 حين تركته بعد أن أتعبتها ملاحقة سلطات الاحتلال لها ومساءلتهم إياها عن ابنيها وعن سلاح وكتب وأوراق لم تكن تعلم عنها شيئًا.

اختارت العائلة القاهرة وجهة لها لأنه كان لجد هالة المتوفى أموال جناها من عمله كوكيل لشركة جنرال موتورز (سيارات البويك والبونتياك) تركها في مصارف مصرية. وفي القاهرة التحقت هالة وشقيقها بمدرسة مانور هاوس التي لا تزال قائمة حتى الآن في مبناها القديم في حي الزمالك، بعد أن تغيّر اسمها في زمن عبد الناصر ل"مدرسة بور سعيد". ومن ذكرياتها عن تلك المدرسة أن المعلمة سألت تلامذة صفها عن دينهم كي يتم فصلهم في حصة الدين إلى مسيحيين ومسلمين. لم تكن هالة تعرف إلى أي دين تنتمي، فرفعت يدها عندما رفعت صديقاتها أيديهن، وكن مسلمات. وفي صف الدين تعلّموا صورة الفاتحة. وعندما امتحنتهم المعلمة، في الأسبوع اللاحق، في ما حفظوه من أول حصّة، أنّبت التلامذة قائلة: "ألا تخجلون من أن تكون الوحيدة التي حفظت صورة الفاتحة هي هذه القبطية؟" عندها علمت هالة أنها مسيحية وصارت تذهب في حصّة الدين إلى الصف الآخر. وبعد مدة عرفت أن عائلتها بروتستانتية وليست قبطية.

كان والد هالة مجازا في الزراعة من جامعة آياوا الحكومية في الولايات المتحدة، لكنه انحاز في حياته العملية إلى إدارة الأعمال. وفي

القاهرة، استطاعت العائلة أن تحافظ على مستوى مرتفع من المعيشة بفضل ما تركه الجد من مال، رغم أن والد هالة لم يوفّق في أعماله في مصر عندما جاءها مهاجرًا عقب الاحتلال. وبعد ثورة 1952 التي لم تكن في صالح رجال الأعمال، انتقلت العائلة إلى عمّان، ثم إلى بيروت سنة 1956.

في عمّان، تابعت هالة دراستها في مدرسة الإرسالية المسيحية حيث التقت بعض من لا زالت تحتفظ بصداقتهم حتى الآن. وفي بيروت التحقت بكلية البنات الأهلية التي كانت تديرها الرائدة التربوية وداد المقدسي قرطاس، التي عملت في بث العزّة القومية والثقة بالنفس في تلميذاتها. وكانت هالة نموذجًا متقدمًا من بنات هذه المدرسة. فهي دخلت في الحركة الكشفية وتوصّلت إلى أن تكون قائدة فيها وغدت مندوبة منتخبة عن صفها في مجلس الطالبات ومسؤولة، مع اثنتين من المعلمات، عن إعداد وتحرير الكتاب السنوي للمدرسة. كذلك كانت هالة ملتزمة ناشطة في قضية بلدها المستلب، التي كانت قضية مركزية من القضايا التي عنيت مدرستها بها. وكانت إدارة المدرسة في ذلك الوقت تخصّص غداء (مجدّرة) خيري أسبوعيًا، كل يوم أربعاء، يذهب ريعه إلى "جمعية أصدقاء القدس".

وقبل التخرّج من كليّة البنات الأهلية ببضعة شهور أخبر هالة والدها إن وضعهم المادي لن يسمح لها بمتابعة دراستها الجامعية. حزّ هذا كثيرًا في نفسها، خاصة لأنها كانت تلميذة واعدة تطمح إلى القيام بإنجازات متميّزة في الكتابة باللغة الإنكليزية. وقد نما طموحها هذا لأن معلّمة اللغة الإنكليزية كانت تقرأ أحيانًا ما تكتبه هالة كنموذج يحتذى لصفوف أعلى من صفها. أصاب هالة اليأس

والإحباط فعبّرت عنهما بإهمال واجباتها المدرسية مما أدّى إلى تقهقر نتائجها لدرجة أن ما حصّلته في نهاية السنة الدراسية كان بالكاد يخوّلها لأن تتخرّج.

وبعد أن رأت هالة زميلاتها يذهبن إلى الجامعات من دونها، أرادت أن تشق لنفسها طريقًا يحقق لها استقلالية ما، فقررت أن تتوظف. تنقّلت بين مكتب للاستيراد والتصدير وآخر للعقارات، لتستقرّ كمسؤولة عن الأرشيف في مجلة نسائية اسمها "الحسناء". وكانت إلى جانب عملها هذا تعدّ للقسم الإنكليزي من الإذاعة اللبنانية برنامجًا موسيقيًّا ناجحًا اسمه "سييستا" (النوم بعد الظهر). وفي" الحسناء" شجعتها الإعلامية المعروفة سونيا بيروتي على الترجمة والكتابة. وهناك تعرّفت إلى الشاب اللبناني الذي أصبح زوجها، فيما بعد.

وبتزكية من بيروتي، طلبت اليها محطة تلفزيون القناة السابعة أن تجري مقابلة مع الممثلة جون كراوفورد والممثل يول أوبراين اللذين صدف مرورهما بلبنان. ولأن المقابلة كانت ناجحة جدًا وتنبيء عن مقدرة لافتة في إدارة الحوار، عرضت القناة التلفزيونية على هالة وظيفة ثابتة. لكن أهلها وخطيبها اعترضوا، لاعتبارهم العمل في التلفزيون يعرّض الفتاة لأمور غير لائقة ببنات العائلات.

رضخت هالة لرأي العائلة، وبقيت حيث هي في "الحسناء" و"سييستا" حتى بعدما تزوجت وإنجبت طفلتها الأولى. وعندما كانت حاملاً بطفلتها الثانية، طلب منها زوجها أن تتفرّغ لإدارة شركة التنظيفات التي كان قد أسسها، معللاً طلبه بأن الشركة تعطي مردودًا ماليًا يفوق ما تدرّه الصحافة والبرامج الموسيقية. لبّت هالة

طلب زوجها مع أن هذا النوع من الوظائف الإدارية كان أبعد ما يكون عن مزاجها واهتمامها. وهي تذكر أن أفضل الأيام في العمل الجديد عندها كان يوم مجيء العاملات لتسلّم أجورهن الشهرية، فهو اليوم الوحيد الذي كانت تتواصل فيه معهن وتستمع إلى أخبارهن وقصصهن. وتذكر أيضًا أنها رفضت أن يكون للشركة سجلان مختلفان للحسابات، جريًا على عادة معظم الشركات، بحيث يكون لها سجلّ تظهر فيه الأرقام الحقيقية لمصاريفها وأرباحها وآخر يخفّف من الأرقام الأخيرة يقدّم لمصلحة الضرائب. فقد أصرّت هالة على أن يكون للشركة سجل واحد، مما كلّف الشركة ضرائب مرتفعة. ولعلّها في هذا سلكت بوحي من التربية الوطنية التي تلقّتها في المدرسة الأهليّة. ولأنها كانت قليلة الخبرة وبعيدة عن الشك في نيات الآخرين، خسرت الشركة مبلغًا محترمًا من المال لصالح امرأة ورجل ادّعيا انهما يمثلان مصلحة الضرائب وانطلت خدعتهما على هالة.

في سنة 1975 سافرت هالة مع زوجها وأولادهما الثلاثة في زيارة إلى لندن. وفي غيابهم استعرّت الحرب الأهلية في لبنان وساءت الأحوال كثيرًا، فأراد زوجها ان تتقدم العائلة بطلب هجرة إلى أميركا. رفضت هالة بادىء الأمر فكرة نزوح ولجوء جديدين، ولم توافق على التقدّم بطلب هجرة إلى أميركا إلاّ بعد بضع سنوات من ترحّل العائلة بين لندن والولايات المتحدة وبعد أن ولد لها طفل رابع. وقد شجع هالة وزوجها على تقديم هذا الطلب أن المسيحيين اللبنانيين كانوا يحظون حينئذ بتسهيلات للهجرة إلى أميركا. وفي مكتب الهجرة، أصرّت الموظفة الأميركية على أن تغيّر هالة مكان ولادها في الطلب من "القدس، فلسطين" إلى "القدس، إسرائيل"،

لكن هالة أصرّت على موقفها مما اضطر الموظفة إلى الرضوخ لوجهة نظرها بعد بعد أن ذكّرتها هالة بأن القدس في 1943 كانت لا تزال فلسطينية.

لم تستقر العائلة في أميركا حتى سنة 1981، ولا يزال معظمها مقيم في ولاية فرجينيا، ما عدا الابنة الكبرى التي عادت في التسعينات إلى لبنان حيث أسست ناديًا رياضيًا وتزوجت. وفي أميركا أرادت هالة أن تجد لها وظيفة تساعد في تحمّل أعباء الأسرة الكبيرة المشتملة على ابنتان وصبيّان، فعملت في مطعم وفي عيادة طبيب ثم استقرّ لها الحال أمينة صندوق في أحد البنوك. وفي هذا الصدد تقول هالة: "كنت أرغب في بعض الاستقلال المادي لكنني لم أكن من طالبي الثراء ولا من اللاهثين في أثر الحلم الأميركي".

وإثر وقوع مجزرة مخيمي صبرا وشاتيلا في بيروت سنة 1982، تحركت موهبة هالة الكتابية التي بقيت كامنة زمنًا طويلاً، فكتبت مقالة طويلة تناولت فيها هذه الواقعة المروعة. وعندما قرأت المقالة صديقتها أستاذة اللغة الإنكليزية في جامعة في كندا وقالت لها إن هذه المقالة تصلح لأن تتحول إلى كتاب، تشجعت هالة على المضي في التعبير عن موهبتها وشغفها الأساسيين، فكتبت باللغة الإنكليزية رواية عنوانها "امرأة من الناصرة". ولم تجد هالة من ينشر روايتها لأن الناشرين في أميركا ما كانوا حينئذ يرغبون في التعاطي مع موضوع استلاب فلسطين، فقررت أن تنشر الكتاب على نفقتها. وبعد مدة نشرت الرواية دار نيويوركية هي ميديا لنك، في نطاق مطبوعات "اوليف برانش" (غصن الزيتون). وعندما عادت حقوق النشر إلى هالة سنة 1997 نشرت روايتها دار أيبونيفورس على الانترنت.

وعودة هالة إلى شغفها شجعتها على الانتساب لمشروع الديالوغ (الحوار) بين نساء أميركيات يهوديات وفلسطينيات. وفي هذا النطاق القت محاضرات في كنائس وجوامع وجامعات ومدارس. وكان لمحاضراتها من أجل السلام تأثير وصدى. لكن مشروع الحوار هذا توقف إثر وفاة اسحق رابين سنة 1995، التي تعتبرها هالة النهاية الفعلية للمحاولات الجديّة لإحلال السلام بين الفلسطينيين والإسرائيليين.

وبعد مدة قصيرة من استقرار العائلة في أميركا، تدهورت العلاقة بين الزوجين. فزوج هالة لم يعجبه "أسلوب العيش الأميركي"، فأصابه الاكتئاب، فضلاً عن مرض السكري الذي كان يعانيه منذ كان شابًا في الثلاثين من عمره، فيؤثّر في صحته ومزاجه. أرادت هالة أن تطلب الطلاق فوجدت معارضة لرغبتها من العائلة والأصدقاء. وأتى الحل الوسطي من أصدقاء الزوجين الذين وجدوا للزوج عملاً يتطلب التنقل بين لبنان وولايتين أميركيتين، بعيدًا عن مكان إقامة العائلة.

وقد صدف أن معظم الأصدقاء الحميمين للزوجين كانوا من الموسرين أو الأثرياء. وهذا ساق هالة وزوجها، أحيانًا، إلى اتّباع أسلوب حياة يماشي من هم أقدر منهما ماديًا. لكن هذا لم يزعج هالة لأنها لم تكن تقيم للمال كثيرًا من الأهمية. فكانت تلبي مع زوجها دعوات أصدقائهما إلى مطاعم فخمة، ليعودا ويدعوهم إلى عشاء بيتي، من وقت إلى آخر. وأصدقاؤهما كانوا خير عون لهما في إبقاء العائلة موحدة، عندما أوكلوا إلى الزوج وظيفة تبعده عن البيت في وقت كانت دعائم علاقات الزوجين متصدّعة وزواجهما آيل إلى الانهيار.

وعندما ترك زوجها منزل العائلة واعتقدت أنه لن يرجع الى الإقامة معهم، باعت هالة البيت ذا الحديقة والطوابق الثلاثة واشترت ببعض ثمنه شقة في عمارة. لكن زوجها عاد اليهم سنة 2002 وعاد الوئام بينهما، فعاشت العائلة ثلاث سنوات من الاستقرار المريح عاطفيًا وماديًا. غير أن هذه الحال لم تدم طويلاً. ففي عام 2005 توقفت كليتا الزوج عن القيام بوظيفتهما وغدا بحاجة للانتقال المتكرر إلى المستشفي لإجراء غسيل دم (ديلزة). كذلك أصبح تنقله من مكان إلى لآخر صعبًا لإصابته بترقق العظام الذي أدى إلى إصابته بكسور. وهكذا غدا رجل البيت بحاجة إلى رعاية دائمة وإلى من ينقله إلى المستشفى ثلاثة أيام في الأسبوع. فانتقل الزوجان للسكن قرب صغرى بنتيهما كي تساعد والدهما في الاعتناء بوالدها. لكن القسط الأوفر، بما لا يقاس، من العناية به بقي من نصيب هالة التي كرّست معظم وقتها له حتى وفاته في صيف سنة 2013.

تعيش هالة الآن في أميركا حيث يسكن ثلاثة من أبنائها مع عائلاتهم كما تقيم عائلة شقيقها الوحيد المتوفى. وهي تعجب من أن ابنيها لا يشعران بانتمائهما الفلسطيني أو العربي وأن أحدهما تطوّع في الجيش الأميركي وكان في عداد من أرسلوا لاحتلال العراق. وهي تأتي من وقت لآخر في زيارات إلى بيروت، فتسرّ بالتواصل مع صديقات الصبا، وتعود حاملة همًا سياسيًا عربيًا جديدًا. تقول إنها تحب أميركا لكنها تكره سياستها. وهي تعبّر عن رأيها هذا في السر والعلن، فتواظب على كتابة "بلوغ" على الانترنت، يقرؤه ويعلّق عليه كثير من الناس، ممن تعرفهم وممن لا تعرفهم.

فتاة

لم أسألها لماذا أطلق عليها والداها إسم "فتاة". لعلهما كانا يريدان بكرهما ذكرًا ولمّا ولدت لهما أنثى أطلقا عليها إسمًا يؤكد لهما ما حصل، كي يتصالحا مع خيبة أملهما. أو لعل من اختار اسمها كان شبيهًا في تفكيره بالشاعر الذي قال: "وكأننا والماء من حولنا / قوم جلوس حولهم ماء"، أو لعله سبب آخر علمه عند صاحبه.

والداها من طائفة الروم الأورثوذكس من وادي النصارى في سوريا. لم يتعديا المرحلة الابتدائية من الدراسة، وعندما تزوجا كان كل منهما في الثامنة عشرة من العمر. وبعدما أنهى والدها خدمته الإجبارية في الجيش، انتقل مع زوجته إلى دمشق، حيث أنجبا ثلاثة أولاد، ثم إلى بيروت التي عمل الوالد فيها في قطاع البناء، وأنجبا خمسة أولاد، فاكتملت عائلتهما بثلاث بنات وخمسة صبيان. وعندما اشتعلت الحرب الأهلية في لبنان عادت العائلة إلى سوريا، متنقلة بين وادي النصارى ومدينة حمص، حيث التحقت فتاة بمدرسة رسمية حتى الصف التاسع، أي صف الشهادة المتوسطة (البريفيه).

ويبدو أن فتاة عملت المستحيل لتستبدل الخيبة التي شعر بها والداها عند مولدها برضاهما وبإقناعهما بأنّ ولادتها كانت خيرًا وبركة عليهما ومصدر راحة و/أو فخر لهما. ولعلّها في هذا سلكت مسلك كثيرات ممّن بذلن كل الجهد طوال حياتهن لتغيير نظرة

والديهن لمولدهن، آملات أن يعيدا النظر بخيبة شعرا بها عندئذ، معوّلات على المنطق الواقعي لإثبات أن مقدمهن كان مصدر ما يلحق بالوالدين في كبرهن من رعاية وتعزيز، متغافلات عن كون العواطف لا منطق لها. ومن رواية فتاة ظهر أن والديها أكبرا تفانيها في سبيل العائلة، ولكن المصدر الأكبر لعطفهما كان شعورهما بالذنب لأنهما لم يتيحا لها الفرصة في النضج والاختيار، فزوجاها وفق ما يرتأيان. وهناك نساء، معظمهن كن بكر والديهن، قضين العمر عازبات يعملن في وظيفة لإعالة أهاليهن، ويسرعن من العمل إلى المنزل لخدمتهم، فلا يغير كل هذا من حسرة الأهل على أن الواحدة منهن لم تولد صبيًا يحمل اسم العائلة.

ولا أدري إن كان هذا النوع من التحدي لعب دورًا في إغداق فتاة العاطفة المتفانية على أسرتها. وهي التي في لقائي بها طفأت تردّد القول إنها تعتبر العائلة أهم شيء في الحياة، مبدية فخرًا واعتزازًا بالترابط والتضامن بين أفراد عائلتها، في الحزن والفرح. ومع أنها تزوجت صغيرة، لأنها من فرط طاعتها لوالدها فضلت أي تضحية على أن "تكسر كلمته"، فإنها خدمت إخوتها السبعة قبل زواجها وبقيت بعد زواجها ركيزة مهمة لأهلها، من الناحيتين العاطفية والعملية.

إحدى جدات فتاة لأمها روسية الأصل. والإرث من هذه الصلة يبدو واضحًا في جمال فتاة ذي النكهة الأوروبية. غير أن "الأوروبي" في شكل فتاة هو غير ما نراه في الجمال الأوروبي المعاصر، إذ إنها أشبه بالجميلات الممتلئات الجسم ممشوقات النحر اللواتي نراهن في لوحات بوتيشللي. ولأن فتاة كانت جميلة وطويلة

ومكتملة الأنوثة أكثر من المألوف في من هن في سنها، فقد تقدم عرسان كثر لطلب يدها قبل اجتيازها مرحلة الطفولة. وقد جاءها "النصيب" قبل أن تتقدم للامتحانات الرسمية للشهادة المتوسطة بأيام قليلة، عندما تقدم لها شاب ماروني يعمل في الكويت ومعروف ومزكّى من جيران تحترم عائلتها رأيهم. كانت حينها في الخامسة عشرة والعريس في الثانية والثلاثين، وكان جواب والدها أول الأمر أنه من غير المعقول أن يزوجها وهي في هذه السن. كذلك عارض أخوالها تزويجها، لدرجة أن خالها الأكبر الذي أحبها كثيرًا، لم يحضر عرسها. فقد كان خالها هذا يزمع على اصطحابها إلى دمشق لتتقدم للامتحانات الرسمية، لكنها لم تذهب ولم تنل الشهادة مستعيضة عنها بالزواج المبكر. وتفصيل ذلك أن أباها عاد عن رأيه الأوّل بعد أن علم بأحوال العريس المادية المرتاحة، فقبل تزويج ابنته القاصر آملاً أن يهيئ لها زوجها مستوى من المعيشة أفضل مما يمكن أن يتوافر لها لو تزوجت أحد المقيمين في القرية. بكت كثيرًا، وطالبت بإطالة فترة الخطوبة، لكن جارتهم صديقة العريس خوّفته من أن فتاة "ستفلت من يده" لو أطال الخطبة، فتم زواجهما في خلال شهر واحد من تعارفهما!

بقي العروسان بضعة أسابيع عند أهل العريس في ضيعة مشتل حلو. ثم ذهب الزوج إلى الكويت ليستحصل على إقامة لعروسه، ولحقت فتاة به بعد ذلك. كانت حاملاً عندما ذهبت إلى الكويت. وهناك كان عليها القيام بجميع أعمال المنزل الذي تقيم فيه مع زوجها وشقيقيه. وقد بقي الشقيقان معهما وبقيت تخدمهما مدة السنوات العشر التي قضتها في الكويت. وخلال هذه الفترة تزوج

الشقيقان وأبقيا زوجتيهما في ضيعتهما، فكانا يزوران عائلتيهما من وقت لآخر، لكنهما يعملان في الكويت، ويقيمان في منزل شقيقهما وزوجته.

ورغم تأكيد فتاة أن زوجها كان يعاملها معاملة حسنة وأنه كان كريمًا معها ومتفهمًا لصغر سنها، إلا أنها أخبرتني أنها تعذبت كثيرًا في الكويت، وأدخلت المستشفى ثلاث مرات. وقد اعتبرت جمالها الملفت أحد أسباب شقائها، إذ بسببه أقلعت عن قيادة السيارة وعن الكثير مما يتطلّب خروجها من المنزل. أما عذابها الأكبر فكان في شوقها المستعر إلى أهلها. فكانت تقف في الشرفة، وكلما شاهدت أولادًا يلعبون في الخارج تبكي من شوقها لإخوتها. ولم يخب عصف الحنين بقلبها إلا بعد ولادة ابنها وانصرافها إلى العناية به. وهي تذكر أن أحدًا من أهلها لم يزرها عندما وضعت المولود، وأنه كان عليها مزاولة كل الأعمال المنزلية من رابع يوم بعد الولادة.

عمل زوج فتاة في الميناء ثم في النقليات. وبعد حوالى عشر سنوات من الإقامة في الكويت، قرر هو وزوجته أن انتقالها مع أولادهما الثلاثة إلى سوريا هو أجدى للعائلة، توفيرًا للمال ومن أجل مدرسة الأولاد. فكلفة الحياة في الكويت تفوق أضعاف ما هي عليه في سوريا، خاصة أن الدراسة والطبابة في سوريا مجانيّان. بعد انتقال فتاة وأولادها إلى سوريا بقيت تزور زوجها في الكويت من وقت لآخر حتى لا تخسر حقها في الإقامة هناك. وكان هو يتردد على سوريا لزيارة عائلته. وبذلك تمكنت العائلة من توفير مال مكنها من بناء بيت وشراء أراض زراعية في ضيعة الزوج، وشراء شقة وتأسيس محل ميني ماركت في مدينة حمص. أما البيت الجميل في الكويت

فخسرته العائلة من جراء الاجتياح العراقي للكويت سنة 1990.

وفي إحدى الزيارات إلى سوريا بمناسبة عيد الفصح، أخذ الزوج ابنه الأصغر معه إلى ضيعتهم، وبقيت فتاة في حمص مع الصبي الأكبر والابنة اللذين كانا في التاسعة عشرة والسابعة عشرة من عمرهما. وأثناء وجوده في الضيعة، تعرّض الوالد لنوبة قلبية. وافته زوجته إلى حيث كان في مستشفى القرية. ولأنها لم تثق بمستوى العناية الطبية هناك، نقلته إلى طرطوس ومنها إلى دمشق. ولكن قبل أن يصل إلى غرفة الأشعة في المستشفى الدمشقي، استوى جالسًا فجأة، ونظر إلى زوجته وقال لها "سامحيني"، ثم أسلم الروح.

عادت فتاة بجثمان زوجها إلى ضيعته، وكان يحز كثيرًا في نفسها أنه مات دون أن يرى اثنين من أولاده الذين جاء من الكويت لقضاء العيد معهم، خاصة ابنته التي كان متعلقًا كثيرًا بها. وكانت فتاة قد أرسلت ابنها الأصغر إلى أخويه، أثناء تنقلها مع زوجها من مستشفى إلى آخر، فقلقت كثيرًا على أولادها، خاصة الصغير فيهم، لأنها لم تكن معهم عندما جاءهم خبر وفاة والدهم.

كانت المصيبة كبيرة على العائلة الصغيرة. وبقيت الأم وأولادها لمدة طويلة ينامون في سرير واحد، بعد أن يقرأوا الإنجيل عن روح رب أسرتهم الذي وافته المنية وهو في الثانية والخمسين، بعد عشرين سنة من الحياة الزوجية المستقرة. وإذ تروي فتاة تأثير تلك الصدمة عليها وعلى أولادها، تعجب من القوة التي استجمعها ابنها البكر، طالب البكالوريا الذي صمم على النجاح وحققه لاعتباره أن هذا ما كان والده يريده. وهي تعجب من التغيّر في شخصيتها التي غدت حازمة صارمة بعد أن كانت رقيقة مطيعة. فهي لاحقت لوحدها

معاملات حصر الإرث المعقّدة، وبتصميم قاطع في ألاّ تسهّل الأمور عن طريق دفع الإكراميات (الرشوة). ولم تعد تستشير أحدًا في شؤون عائلتها، وصممت على صرف مبلغ كبير من المال لتعليم ابنها الأكبر الكومبيوتر (ميكروسفت)، رغم اعتراض أعمامه على هذا الإسراف. بل إنها غدت الوحيدة المولجة بإجراء جميع المعاملات المطلوبة من أهلها، وكأنها الأقدر والأكثر خبرة بينهم جميعًا.

وقد ذهب ابن فتاة الأكبر بعد دروسه الخصوصية إلى بيروت وتقدم للامتحان ونجح، مما هيّأه لوظيفة جيدة في الكويت مكّنته من مساعدة أهله ماديًا. وكان زوج فتاة قد ترك لهم ما يعتاشون منه، لكنهم أغلقوا الميني ماركت لأن عاطفتهم لم تطاوعهم على ارتياد المحل في غياب الزوج /الوالد. ولم يكتف الابن الأكبر بوظيفته الأولى، فعاد إلى دراسة هندسة الكومبيوتر. وكانت أمه تسانده في قراراته. وهو الآن يشغل وظيفة معتبرة، وإلى جانب عمله يحضّر لشهادة ماجستير في إدارة الأعمال. أما كريستين،الابنة الوحيدة لفتاة، فتعيش في بيروت وتعمل لدى منظمة الأمم المتحدة في وظيفة تعنى بالنازحين السوريين الذين هربوا إلى لبنان من الحرب المستعرة في بلدهم منذ 2011. وهي مخطوبة لزميل ألماني الأصل، مما قد يسهّل لها ولعائلتها في المستقبل تخطي محنة بلادهم التي لا تظهر بوادر أي حلّ لها. أما الابن الأصغر، الذي تقول فتاة إنها دللته شفقة على كونه ذاق اليتم باكرًا، فلم يكمل تعليمه. وهو يعمل في السعودية حيث يعيش بعض أعمامه. وتقول فتاة إن أعمام أولادها يقدّرونها ويهتمون بأولاد شقيقهم المتوفى. وهي تعتزّ بقول أحدهم لأمه: "فتاة هي أمي. فقد خدمتني أكثر مما فعل أي إنسان آخر".

أما الموضوع الذي تعود اليه فتاة دامعة العين بين آن وآخر فهو مقتل شقيقها في الصيف الماضي (2013). فالشقيق الذي كان الأثير عندها وعند والديه، والأحنّ على جميع أفراد العائلة، ووالد طفلين صغيرين، والذي لم ينه ثلاثينياته من العمر البهي، أرداه مسلحون وهو يمارس مهنته التي يعتاش منها، كشرطي سير. قالت لي إنه لم يحرق قلبها في كل ما عانته في هذه الحياة إلا مقتل شقيقها المظلوم، الذي لم يؤذ أحدًا في حياته، وإن فقدانه جعل الموت أرحم من البقاء، في نظر جميع أفراد عائلتها. فكل منهم مكسور القلب والخاطر لفراق ذلك الابن البار والزوج والوالد والشقيق الأحنّ والأجمل والأقدر على مؤازرة عائلته وأصدقائه.

ومن ضحايا الأحداث في سوريا من عائلة فتاة، ابن خالها الذي اختطفه المسلحون لأنه صاحب محل يبيع المشروبات الروحية، وابن عمها الذي اختفى مع سيارته. وحتى الآن لا يعرف أهل الشابين عنهما شيئًا.

تقيم فتاة مع ابنتها في بيروت، لأن عائلتها تخاف عليها من الذهاب إلى سوريا. وقد نهب بيتهم في حمص ولم يبق لهم في سوريا سوى منزل في الضيعة، وأراض سبق لزوج فتاة أن اشتراها. وفي الضيعه يسمونها "أم ورد" من كثرة حبها لزراعة الورود. وهي تحب الطبيعة وتحب جميع أنواع العمل في الأرض. وقد غدت بعد عودتها من الكويت إلى ضيعة زوجها، وقبل وفاته، تدهش عائلته بمهارتها في قطف الزيتون وحصد المواسم بيدها. وقد آذت ركبتها أثناء عملها في الأرض، ممّا سبّب لها ألمًا وقصورًا في الورك. وقد نصحها الطبيب بالسباحة ومزاولة الرياضات المائية. وهكذا جمعتنا الصدف في بركة للسباحة في ناد رياضي، حيث أخبرتني قصتها.

عاملات في مجالات تعتبر تقليديًا من عمل النساء

عملت النساء منذ القدم في الزراعة وفي الشؤون المنزلية والتربوية والرعائية. ومن نساء هذه السير من اظهرن شغفًا ومقدرة في الزراعة، ومنهن من اتخذن تحضير الأطعمة مهنة مربحة لهن ولعائلاتهن. وعندما تاسست المدارس كان من الطبيعي أن تعمل الكثيرات فيها مدرّسات ومربّيات. أما الجمعيات الخيرية، فيصعب التفكير في إمكانية قيامها من غير نساء ينصرفن إلى رعاية الأيتام أو المرضى أو العجزة، مردفات عمل المجتمع والدولة من أجل أكثر الناس حاجة إلى المساعدة، ومشكّلات النواة والعدد والطاقة للقيام بهذه الأعمال التي من غيرها تكثر المعاناة ويقلّ التكاتف، وهو من أهم أسباب الحياة المجتمعية.

والعمل في الأرض وما يلحق به من إعداد طعام يؤكّدا على تحدّر الأمومة من الأرض إلى النساء. أما كون التعليم والخدمة الاجتماعية من الانهماكات التقليدية لقطاعات كبيرة من النساء فيشير إلى أن سياسة المجتمعات والاهتمام بصلاحها وحاجاتها أعمال قريبة من طبيعة النساء ومن توجهاتهن، ومنسجمة مع قدرتهن على التوفيق عمليًا، وببعد نظر، بين الاحتياجات المختلفة لأعداد كبيرة من الناس.

أم صلاح (وهيبة)

هي وهيبة، بكر والديها اللذين أنجبا أحد عشر ولـــدًا. تـــزوّج والدها في سن مبكرة، لأن عمّاته أردنه أن يعوّض بإكثار نسل العائلة عن كونه ابنًا وحيدًا ويتيم الأب منذ طفولته الباكرة، فولـــدت لـــه وهيبة عندما كان في السادسة عشرة من عمره. ولأن تعاليم الـــدين الدرزي تؤكّد على واجب الأهل في تعليم أولادهم، ذكورًا وإناثًـــا، ألحقت وهيبة بمدرسة بتخناي الرسمية لمدّة خمس أو ست سنوات.

تزوجت وهيبة عندما كانت في الخامسة عشرة مـــن عمرهـــا، وكان عريسها في التاسعة عشرة. وقد زفّت هـــي وشـــقيقتها الـــتي تصغرها في اليوم نفسه إلى شقيقين هما ابنا خالتهما. تذكر وهيبة أنه في عشيّة يوم الزفاف جاءهم رجال عائلـــة الـــزوجين، وتـــردّدت الديباجات المعهودة من الكلام المنمّق بين شيوخ مـــن قبـــل عائلـــة الفتاتين وشيوخ من قبل عائلة العريسين، قبل أن يأخذ الرجال وهيبة وشقيقتها إلى منزل الزوجية. لم يرافق العريسان الوفد مـــن رجـــال عائلتهما إلى منزل العروستين، لأن التقاليد الدرزية تمنـــع المشـــايخ المتدينين من حضور زفاف يرافق العريس أهله فيه إلى منزل العروس. وقالت لي وهيبة إنه وفق العادات المتّبعة في الأعراس عندهم، كـــان الراقصون والدابكون في عرسها من أهل الشابين، أما أهلها فحافظوا على وقارهم كما ينبغي لأهل العروس أن يفعلـــوا. وقـــد ارتـــدت

الشقيقتان في الاحتفالات ثيابًا بيضاء في النهار وزرقاء في الليل، جريًا على التقليد المتّبع. وممّا تذكره من ذلك اليوم، أن عائلة عمّها قاطعت العرس لأنها كانت تريد تزويج الفتاتين لابني عمّهما، لكن والدة الفتاتين فضلّت تزويجهما إلى ابني شقيقتها.

أقامت وهيبة وشقيقتها مع زوجيهما مع أهل زوجيهما لخمس عشرة سنة. بعد ذلك ذهبت شقيقتها وزوجها للإقامة في منزل خاص بهما قريب من منزل العائلة، وبقيت وهيبة في منزل العائلة، حيث لا تزال تقيم حتى اليوم، بعد أن مات والدا زوجها وتعدّت الخامسة والثمانين من عمرها. ومنزلها حجري فسيح مبني ممّا يربو على المئة وثلاثين سنة، على الطراز اللبناني القديم. فله قناطر وشرفة واسعة متّصلة بالحديقة المعطاء التي زرعتها وهيبة وزوجها خلال حياتهما المديدة معًا. فترى الحديقة ملأى بالأشجار المثمرة، تتوسّطها شجرة توت وارفة، لم تبخسها السنون لذة طعم ما تطرحه من ثمر وفير. وفيها أشجار التفاح والدراق والإجاص وقدر وافر من الكرمة والخضار الموسمية. وفي شيخوخة وهيبة وزوجها، غدت الحديقة من مسؤوليات ابنتهما العازبة، انتصار. قالت لي أم صلاح أن شجرة التوت أكبر منها سنًا، وقد زرعها والد زوجها. ولعلها ترجع إلى تقليد من زمن ربّى فيه اللبنانيون دود القز الذي يقتات على ورق شجر التوت حتى يصنع شرانقه التي تتحوّل إلى خيطان من حرير. وفي كل زيارة قمت بها لأم صلاح في موسم التوت كانت تحثني على الأكل من ثمار الشجرة حتى تغدو ثيابي ملطخة بلون ثمرها الذي يشبه لون العافية. فكانت هذه "الوجبات" ذات اللون الجميل تدفئ قلبي في ظل اثنتين من الأمهات المحبّات، أم صلاح وشجرتها التي تشبهها في كرمها وحنوّها.

أنجبت وهيبة أحد عشر ولدًا، مات أول اثنين منـــهم بســـبب تعسّر الولادة من جرّاء التموضع الخاطىء في الرحم لكل من الجنينين. بعدهما أنجبت ثلاثة صبيان وست بنات، وهي تعتزّ بكـــبير أولادهـــا صلاح، الطبيب البيطري، وتسمّيه دائمًا "الحكيم". أما عن زوجهـــا فقالت: "مضى على زواجي من أبـــي صلاح تسع وستون سنة، لم يزعلني فيها بقول أو فعل. كنت "المحاسب" في العائلة فأنا كل عمري شاطرة في الحساب (وعلّقت ابنتها على الموضوع قائلة أن أمها تسبق الآلة الحاسبة في عمليات الجمع والطرح)، فكنـــت أحـــتفظ بـــثمن محصول الحديقة وأعطي الشغيلة أتعابهم كل يوم سبت، عندما نحتاج لمؤازرتهم لنا في مواسم تراكم المهمات الزراعية. وفي معظم الأحيان، كنا أنا وأبو صلاح نقوم بجميع الأعمال المطلوبة وحـــدنا. وكنـــت أذهب إلى بيروت مرتين في الأسبوع لشراء ما يلزم البيت والعائلـــة". أضافت: "زوجي دمث الطبع هادئه، بحيث كانت أمه تمازحه قائلة: "كن رجلاً مستقويًا ولو ليوم واحد في السنة". فلن تجدي في الرجال أهون من طبعه. وهو مرتّب الهندام، يغيّر ثيابه أحيانًا مرتين أو ثلاث مرّات في اليوم، بين مقتضيات العمل في الزراعة وما تحتّمه الواجبات الاجتماعية التي لم يتوان يومًا عن القيام بها".

وأبو صلاح هو اليوم طريح الفراش بعدما أصابه شلل نصـــفي. وفي زياراتي السابقة لأم صلاح، كنت أراه مديـــد القامـــة مفتـــول الشاربين فلسفي الهوى، يحادث زواره عن الشعر والفكر، متنقّلاً من الكلام على مفكرين أجانب إلى التطرّق إلى كتّاب محليين، مع تركيز على الأنساق القيمية عند الفريقان وخاصة عمّا كتباه عن أخلاقيات العمل.

لم يتوظّف أبو صلاح في حياته أبدًا. وكان كل عمله في زراعة الأرض. أما شغفه فبالمطالعة ونظم الشعر. ومعظم أشعاره تدور حول قيمة العمل وامتداح القائمين به. وممّا نظمه في هذا الصدد:

توقّـــف صـــاحب الأقـــوال مهـــلاً

ســـئمنا القـــول نثـــرًا وابتكـــارا

وباشـــر بالفعـــال بكـــل عـــزم

تحـــرّك معـــولاً يجـــني الخضـــارا

وممّا نظمه في امتداح التقدّم العلمي:

حلّقـــت يـــا أنســـان بـــالأجواء

في ســـرعة فاقـــت علـــى الأصـــداء

وكشـــفت أســـرارًا تعـــاظم شـــأنها

بـــالعلم والتنقيـــب والإيحـــاء

يـــأبى طموحـــك أن يحـــطّ رحالـــه

إلاّ علـــى المـــريخ والجـــوزاء

وكان كلما نظم قصيدة يقرأها لأم صلاح قبلما يطلع عليها أي إنسان آخر.

تبدو أم صلاح في سنّها المتقدّم كأمنا الأرض، بوجهها المتغضّن الذي لا يزال يفيض حيويّة وشغفًا، وبنظرتها الـتي تحتضـن النـاس والشجر والزرع باهتمام خاص بكل منها. فثوبها الفضفاض وغطـاء رأسها الأبيض ينبضان بروح زمن متسلسل طويل من رعاية السكينة

والأنس في بيوت عامرة بناسها. وعصاها التي تمسكها بأنوثة متأنّقة تعبّر عن سطوة أمومية يركن اليها الآخرون، فلا تشعر بأنها عصا للاتّكاء عليها بل أداة للتعبير عن تركيز انتباهها على من تحاوره وعن اكتمال حضورها معه. فوجهها من فوق يدها المتّكئة على العصا يحتضنك بنظرة ناشطة ضاحكة، معبّرة عن تحفّزها لما سيكشفه لها اللقاء مع إنسان آخر من أخبار ووجهات نظر جديدة ترحّب أم صلاح بالتعاطي معها، وخاصة بما قد يشتمل عليه اللقاء من طرائف تبعث على ضحك او ابتسام.

لسنين خلت، كنت أقضي فصل الصيف في منزل قرب منزل أم صلاح وحديقتها. وكنت أذهب اليها كل يوم لأشتري ما يحلو لي من خضار وفاكهة طازجة، فأجدها تعمل في الحديقة، مشذّبة أو قاطفة. وأحيانًا كنت أراها تزن المحاصيل لمن يودون شراءها، أو تجلب لهم من البيت ما سبق أن حضّرته من شراب التوت أو ربّ الرمان.

كانت تذكّرني، في تلك الأيام، بشخصية سيدوري في ملحمة جلقامش، صاحبة الحديقة وصانعة النبيذ وحارسة المكان، المرأة/الأم بكل ما في هاتين الكلمتين مجتمعتين من معان. والآن، بعد أن أتعبتها الشيخوخة وأقعدتها عن معظم ما كانت تقوم به، تركت معظم المهام لابنتها، غير متوانية عن توجيهها وعن إيلاء اهتمامها كل صغيرة وكبيرة من أمور عطاءات الأرض كما بكل زائر يقصد بيتهم، سواء من يرغب بشراء بعض منتوجات الحديقة أم من يقصد منزلها لمجرّد التواصل معها أو مع سواها من أفراد العائلة.

أخبرتني أنها كانت في ما مضى تغسل الغسيل بيديها وتعجن العجين وترقّه وتخبزه بنفسها. قالت أنها عندما كانت حاملاً وكانت

شقيقتها قد وضعت للتوّ مولودًا، عجنت عجنة كبيرة لتكفي العائلة الممتدّة لمدّة نقاهتها، فجاءها الطلق بينما كانت تصنع الخبز.

قالت إنها كانت سعيدة جدًا في حياتها: "كنت مبسوطة كثير"، رغم كثرة العمل. وعندما سألتها إن كانت مغرمة بأبي صلاح، قالت: "في تلك الأيام، لم نكن يعرف واحدنا الآخر ولا نعرف شيئًا قبل الزواج، أما بعد الزواج، فهل كنت لأنجب منه أحد عشر ولدًا لو لم أكن مغرمة به؟"

قالت أيضًا أنها كانت تذهب الى المجلس الديني منذ طفولتها. فهي تضع منديلاً على رأسها ومستوفية شروط التديّن الأخرى (مثل الامتناع عن شرب الكحول وعن التدخين ومثل التمتّع بأخلاق وسمعة حسنين). لكنها انسجامًا مع التقاليد الدرزية الباطنية لم تخبرني عمّا تعلّمته في تلك المجالس. وقد أصرّت على أن أفراد عائلتها لا يتعصّبون ضد الأديان والطوائف الأخرى. وبرهانًا على هذا، أخبرتني أن أخاها الذي كان متزوجًا من شقيقة زوجها، طلّق زوجته وتزوّج من امرأة أجنبية وتقبّلتِ العائلة ذلك، وأن حفيدها تزوّج من خارج الملّة الدرزيّة، فباركه جدّه (أبو صلاح) ودعا له بالتوفيق. أما المتزوجون من أبنائها وبناتها فكلّهم اختاروا شركاء حياتهم من داخل الملّة.

ولعلّه تواضع الأنثى وتماهيها مع المجموعة، خاصة الذكور منها، هما ما حديا بأم صلاح، في معرض الحديث عن نفسها وعن حياتها، إلى التعبيرعن اعتزازها بتقوى والد زوجها، مما دعا المشايخ إلى التفكير بأن يصنعوا له مزارًا. وبدت معتزّة به أكثر لأنه رفض الفكرة قائلاً: "لا أريد أن تصنعوا من ذكراي دكانًا"، شارحة لي أن ما

يحصل عادة هو أن قاصدي المزار يقدّمون الصدقات والنذور التي تصبح من نصيب عائلة صاحب المزار.

وحدّثتني بحماس أكبر عن جدّ زوجها، معتدّة بسرعة بديهة الرجل وقوّة شخصيته. قالت إنه كان يعمل ناطورًا وكان اللصوص يخافونه لدرجة أنهم كانوا يمتنعون عن السرقة حتى عندما يكون في بيته بعيدًا عنهم. وأخبرتني أنه قبض مرّة على لص متلبّسًا فأجبره على إعادة المسروق بنفسه إلى صاحبه، وأنّه في مرّة ثانية أجبر اللص على البقاء مكانه، مع المسروق، حتى أتى صاحب المال واسترجع ماله. وكبرهان على قوّة الجد وجرأته روت لي أنه عندما أرادت الدولة العثمانية جرّ مياه عين رمشى، التي تنبع في بلدهم، إلى مدينة عاليه، كان الجد ورفاقه يشالقون العسكر بالحجارة، ليحولوا دون التنفيذ، مما حمل السلطنة العثمانية على العدول عن قرارها. ومن القصص التي روتها أم صلاح عن ذلك الجد، مغتبطة بطرافتها وبكونها معبّرة عن وطنيته وعن عدم رضوخه للحكم العثماني، أنه عندما طلب عروسًا من جبل الدروز في سوريا وطلب أبو العروس منه بارودة "فايد العروس" (مهرًا لها)، صادف مخفرًا كان جنوده العثمانيون نيامًا في الداخل وأسلحتهم في الخارج، فأخذ بارودة وقدّمها مهرًا لعروسه.

ولحكايا أم صلاح هذه دلالة على القيم التي تدين هي ومجتمعها بها. فهي ملتزمة دينيًا لدرجة أنها ترفض أن تنفق على نفسها إلا من جنى يديها في عملها في الأرض، وتتباهى بترفّع والد زوجها عن استغلال الناس لمصلحة عائلته أكثر من تباهيها بكونه تقيًا ورعًا! وهي تفخر بجد كان يحمي الناس من اللصوص لكنها لا تجد حرجًا في كونه سرق بارودة من جنود الاحتلال العثماني. أما استخدام القوة والهيبة

لحماية الأهالي من أذى المحتلينّ واللصوص فبدت من رواياتها وكأنها تشكّل في نظرها قمة الرجولة والظرف والصلاح، في آن معًا.

ولعلّ "نسبية" القيم هذه ومرونتها، ترجع إلى عوامل من طبيعة البلد، لأن بعضها لا نزال نلمسه حتى الآن، بعد استقلال لبنان عن كل الذين احتلوه تباعًا. فالجبل يتميّز بطبيعة جغرافية منيعة ووضعية دينية/طائفية تعدّديّة، مما أعطاه نسبة من الاستقلالية عن السلطة المركزية وقوانينها وأضعف الحس بالانتماء الجماعي الوطني بالقياس إلى التآزر المحلي الأضيق. ولا شك أن للأحداث التاريخية تأثيرها في مزاج الناس، فالمذابح التي جرت بين الطوائف في 1840 و1860 كما احتلال البلاد من العثمانيين ثم الفرنسيين حدت بالناس من جيل أم صلاح إلى نبذ الطائفية لزمن وتوجيه عدائيتهم جماعيًا إلى المحتل. ولم تعد الطائفية إلى الظهور إلا مقنّعة بالصراع الطبقي في الحرب الأهلية (1975-1990) وسافرة مدمّرة في الزمن المتأخر.

أما شخصيّة أم صلاح الجامعة بين الفعالية واستقلالية الإرادة وبين تواضع أنثوي مقرون بإثرة العائلة وترفّع عن التسلّط والأنانية فلعلّها نتيجة ذكاء وحنكة مكّناها من العيش ضمن الأطر الاجتماعية التقليدية وخارجها، في الوقت نفسه، بحيث لا تتمرّد عليها ولا تنصاع لها. ولعلّ تأثرها بالنزعة الفكرية المثالية لابي صلاح وبأسلوبه المنفتح في التعاطي معها أكسباها سعة أفق ومرونة إزاء الأعراف والتقاليد. وقد تكون الاشتراكية التي اعتنقها بتصرّف كثير من دروز لبنان، اقتداء بزعيمهم كمال جنبلاط، ساهمت في إضفاء حب العمل والتعاطف مع الآخرين على شخصيّتي أبي صلاح وأم صلاح. وهذه الصفة اكسبت أم صلاح عمقًا إنسانيًا رغم انعزالها ضمن القرية والعائلة.

أم رامز

فاطمة (أم رامز) من ضيعة يونين في قضاء بعلبك، من الطائفة الإسلامية الشيعية. تعاني من صعوبة في الحركة لثقل جسدها الذي تكاد ركبتيها تعجزان عن حمله. قال لها الطبيب إن عليها أن تستعيض عن ركبتيها بركبتين اصطناعيتين كي تقدر على السير بشكل طبيعي، لكنها خافت لأن نساء من الضيعة أجريت لهن هذه العملية من قبل و لم يعدن قادرات على السير أو الجلوس على الأرض، كعادة أهل منطقتها. قالت فاطمة: "أفضّل السير عرجاء على ما حصل لهنّ".

ذاقت فاطمة أقصى درجات الفقر، و لم تتحسّن أحوالها إلاّ عندما أصبح أولادها قادرين على العمل. كانت والدهما فقيرة لدرجة أنها لم تكن تملك إلا ثوبًا واحدًا، تضطر عندما تغسلة للانتظار حتى ينشف لتعود إلى ارتدائه. أما والدها فكان من عمّال البناء المياومين، من لا يحصّلون غذاء عائلاتهم إلا في الأيام التي يتاح لهم العمل فيها. ومع فقر والدها، تزوج من اثنتين، كانت أمها الأقدم بينهما. أنجبت زوجته الأولى ثلاثة صبيان وثلاثة بنات، أصغرهم فاطمة. أما الزوجة الثانية فتوفيت في صباها، قبل أن تنجب.

لم ترسل العائلة بناتها إلى المدرسة، فبقين أمّيات يحفظن بعض الآيات القرآنية غيبًا ليتلونها في الصلاة. أما الصبيان فتعلموا في

المدرسة الرسمية، ثم اتّخذ كل منهم صنعة: واحد نجار والثاني ميكانيكي يعمل أيضًا في إصلاح قطع السّلاح والثالث اسّس معملاً لصناعة الأحذية.

تعرّفت فاطمة إلى زوجها عندما كانت تقيم في بيت شقيقها الأصغر في ضاحية بيروت الجنوبيّة. كان الرجل جارهم ومن ضيعتهم ويكبر فاطمة بأربع أو خمس سنوات. بعد الزواج، سكنا في جوار بيت شقيقها وأنجبا ثلاثة أولاد، بنتين وصبيًّا. وذات يوم اشتعلت معارك بين عائلتين بعلبكيتين تسكنان في المنطقة. وعندما شاهد أفراد عائلة أم رامز القذائف تتطاير بين بيوت الحي، هربوا إلى بعلبك. عادوا إلى بيتهم بعدما هدأت الحال فوجدوا أن اللصوص لم يتركوا لهم من مقتنياتهم شيئًا. وهذه السرقة جعلتهم يعدلون عن فكرة الإقامة في بيروت، فقفلوا عائدين إلى بعلبك كي يستقروا فيها، وعاد أبو رامز وحده إلى بيروت، ليزاول عمله في جبل الباطون ونقله ضمن ورشات أبنية قيد الإنشاء.

كان بيتهم في بعلبك مكونًا من غرفة واحدة ومطبخ وحمام. وكان أحد أبناء المنطقة يساعدهم بإرسال تموين دوري للعائلة. وعندما وجد ذلك المحسن عملاً وإقامة لعائلة أم رامز في مزرعة قريبة من بعلبك يملكها أحد الأمراء الشهابيين، رجع ابو رامز للإقامة مع عائلته. وما لبث صاحب المزرعة أن اشترى تراكتورًا للفلاحة صار أبو رامز يعمل عليه في المزرعة وخارجها عند من يودونّ استئجار التراكتور مع سائقه. وعندما بيعت المزرعة والتراكتور أبقى المالك الجديد على عائلة أبي رامز واشترى له تراكتورًا جديدًا. لكن حين بيعت المزرعة من جديد، رفض أبو رامز الذهاب مع رب عمله

السابق إلى مزرعة أخرى يملكها، لأنه لم يرد أن يقطع رزق من كانوا يعملون فيها.

وفي تلك الأثناء كانت العائلة تكبر حتى صار لها أربعة صبيان وابنتان، جميعهم يرتادون المدرسة الرسمية المحلية. وعندما ربح رب عائلة المزارعين الذين لم يرد أبو رامز قطع رزقهم ورقة يانصيب وترك عمله، عادت عائلة أبو رامز فقبلت العمل الذي كان لا يزال معروضًا عليها، وانتقل أفرادها للسكن والعمل في تلك المزرعة في قرية قريبة من بعلبك.

في المزرعة الجديدة ولد للعائلة صبيان آخران. وكان ذكور العائلة يساعدون والدهم في أوقات عطلهم في أعماله في الزراعة، واكتسبوا من خبرته وبراعته في الاعتناء بأشجار الخوخ وعرائش الكرمة، ولا زال كبيرهم، رامز، يعمل إلى جانبه. وكانت أم رامز تتردّد على والدة المالك، فكانت الأخيرة التي لفتتها سرعة بديهة المرأة وخفة دمها، تقول لها: "خسارة يا أم رامز أنك لم تتعلمي، فلو سنحت لك الفرصة لكنت حققت نجاحًا مميّزًا في مجال ما".

واقتنت العائلة قطيعًا من الغنم والماعز كانت العناية به مسؤولة من أم رامز، يساعدها راع صغير. فكانت تحلب الحليب وتبيعه وتأخذ منه لعائلتها ولعائلة المالك، خاصة في مناسبة عاشوراء، حين كانوا يصنعون اللبن والحلوى من أجل إطعام المشاركين في إقامة ذكرى الحسين بن علي بن أبي طالب.

توفي صاحب المزرعة وهو لا يزال في أربعينياته، فاستلمها أخوه الذي طلب إلى عائلة أم رامز وأبي رامز البقاء في عملها. وطلب اليهم إضافة زراعة الخضار والفاكهة على أنواعها لتأكل منها عائلته وعائلتهم.

كبر أولاد أم رامز فتخرج أحد ابنائها وإحدى بناتها من الجامعة، بشهادة تمريض. وعمل كل منهما في مستشفى حكومي، الابنة في زحله والابن في بعلبك. والابنة الثانية التي أنهت دراستها المدرسية و لم تلتحق بالجامعة عملت مدبّرة لشؤون منزل صاحب المزرعة. أما أبناء العائلة الذين لم ينهوا دراستهم الابتدائية، فانتسب أحدهم إلى الجيش، وعمل آخر مساعدًا لوالده في الزراعة، وتخصص ثالث كوافير نسائي. والابن الأصغر للعائلة هو بطلها "التراجيدي" الذي يشفق جميع أفرادها عليه. فهو بهي الطلعة طيب القلب وأنبه الأبناء في الدراسة. أنهى شهادته الثانوية وانتسب إلى الجامعة اللبنانية لدراسة إدارة الأعمال. لكنه، قبل التخرج، أحب زميلة مسيحية وتزوجا وتركا الجامعة. أنجبا صبيًا ثم انفصلا، وتركت الأم ابنها في عهدة والده. ولا يزال هذا الابن الأصغر لعائلة أم رامز حائرًا. فتعليمه لا يسمح له بالعمل اليدوي، وعدم تخرّجه لا يؤهله لوظيفة مكتبيّة. إخوته جميعًا متزوجون من نساء اختاروهن وتقبلتهن العائلة، وثلاث منهنّ من أبناء عمومة أزواجهن. أما ابنتا العائلة، فلم يعجبهما أي من العرسان الذين تقدموا لهما، فبقيتا من غير زواج. والتي تدير شؤون بيت صاحب المزرعة تعنى بابن شقيقها الأصغر الذي تركته أمه مع والده، وهو ينادي عمته بـ "ماما".

تعيش العائلة وفروعها في بيت كانوا يضيفون اليه غرفًا كلما ازدادت أعدادهم. ويتعاون الأفراد في مختلف المسؤوليات والأعمال. معظم الأبناء يقتطعون ما يتيسّر من رواتبهم ليعطوه لأم رامز، لتصرف على العائلة. أما أبو رامز فيعطيها كامل مرتّبه، وهي تعود فتعطيه ما يحتاج اليه من مصروف.

لم تعد أم رامز قادرة على رعاية الماشية وحلبها، فاستخدمت العائلة راعيًا شابًا يهتم بهذه الأمور. وصار عمل أم رامز يقتصر على تحضير المونة في مواسمها، من كشك ورب رمان ومكدوس الباذنجان ومختلف أصناف المربيات. وحتى هذه الأعمال تجد فيها أم رامز عناء وصعوبة فتساعدها فيها بناتها وكناتها لأنها بالكاد تقدر على التنقّل من غرفة في البيت إلى أخرى بسبب الألم في ركبتيها. وعندما تسألها عمّا تطلبه من الدنيا تقول إن همها هو أن تستر بيتها ويدوم الوفق بين أفراد عائلتها. وهي تخاف الحروب وتتضرّع إلى اللّه تعالى بعد كل صلاة أن يهدي الناس جميعًا إلى العيش بسلام وأن يبعد الحروب عن لبنان.

أم سعيد

صفاء واكتفاء يغمران وجه هيلانة (أم سعيد). أما كلامها فينمّ عن ثقة بالناس وتفاؤل بالمستقبل وكأن خبرتها في الحياة أكّدت لها أن الأمور تسير دائمًا إلى نهايات سعيدة. وقد تكون توصّلت إلى حالة مريحة من التسليم بما كان وبما سيأتي أو إلى قناعة بأن حب الناس للخير يقلّص التفاوت في الحظوظ بينهم ويفتح الحدود بين الطبقات الاجتماعية. بدت وكأنها تمتلك إيمانًا بالمستقبل والخير والناس يذكّرنا بقول السيد المسيح إن من كان له مقدار حبة خردل من الإيمان بإمكانه تحريك الجبال، فهل حققت ما حققته بفضل هكذا إيمان أو بفعل إرادة صلبة وعمل دؤوب أم بفضل مساعدة الآخرين لعائلتها في كل مرّة واجهتها صعاب فوق طاقتها؟ ولعلّ هذه كلّها تظافرت حتى حققت هيلانه وعائلتها شبه معجزة في توفير أعلى مستويات العلم للأولاد رغم الفقر والأجور القليلة التي تصرف للوالدين لقاء عملهما. فأم سعيد أميّة تعمل طاهية في البيوت وزوجها بواب عمارة له رجل مبتورة وأولادهما تخرجوا من الجامعة الأميركية في بيروت بشهادات طب وهندسة معمارية وهندسة كومبيوتر وماجستير في علم الأحياء.

وقد استرعى انتباهي في حواراتي الطويلة مع هيلانة التي غدت تعرف بـ "أم سعيد" أنها لم تذكر أن أحدًا توانى عن مساندة

عائلتها. فكانت تستفيض في الكلام عن كثيرين وجدت عائلتها فيهم العون ببساطة وتلقائية، كلما كانت الظروف حالكة أو معقّدة، وكأن ذلك كان الخيار الطبيعي والوحيد أمام هؤلاء الأخيار، وكأن الدنيا لا تزال بألف خير. ولو نظرنا إلى قصتها من زاوية معرفة طباع مجتمع ما لوجدناها تخبرنا عن خصال في المجتمع اللبناني أو في مجتمع رأس بيروت تبيّض وجه أهله.

عرّفتني بـ "أم سعيد" زوجة أحد العمداء في الجامعة الأميركية، فالتقيتها وأخبرتني قصّتها: إنها الصغرى بين ستة أولاد. والديها قرويون من ضيعة مشتل حلو السوريّة. كان والدها يملك أرضًا يزرعها بمساعدة باقي أفراد العائلة. ورغم أن أمها كانت متعلّمة علومًا ابتدائية، فقد بقيت هي وشقيقاتها الثلاث أميّات لأن عائلة والدها كانت لا تؤمن بجدوى تعليم البنات، فكان أفرادها يرددون الكليشيه المستعادة "أن الفتيات المتعلمات يكتبن الرسائل الغرامية للشبان"! أما شقيقاها فحصّلا تعليمًا بسيطًا.

التقت هيلانه المنتمية إلى الطائفة العلويّة بمن تزوجته عندما كانت تزور شقيقًا لها مقيمًا في لبنان. أعجب بها الشاب اللبناني المسيحي السرياني الذي كان قد أتمّ مرحلة التعليم الثانوي (بكالوريا) وكان يعمل سائق تراكتور. كانت هيلانه في الخامسة والعشرين من عمرها عندما تزوجا. وابتدأت العائلة حياتها في صوفر، مركز عمل الزوج، حيث ولد لها ابنتان وصبيّان. وأقامت والدة هيلانة مع عائلة ابنتها في تلك البلدة الجميلة المطلة على البحر من مكان مرتفع في جبال لبنان، والتي كانت ردحاً طويلاً من الزمن أهم مركز اصطياف في البلد. كان بيت العائلة فسيحًا ومرتبًا ومفتوحًا على أرض بريّة ومناظر طبيعيّة خلاّبة.

وقد أجبر العائلة على تغيير مكان إقامتها حادث تعرّض له زوج هيلانه. فأثناء قيادة أبو سعيد للجرّافة التي يعمل عليها انقلبت الجرّافة على ساقه ممّا أدّى إلى بترها. ولّما لم يعد الرجل قادرًا على مزاولة عمله كسائق آليات، انتقلت العائلة إلى بيروت بعد أن وجد معيلها وظيفة كناطور لبناية قريبة من الجامعة الأميركية. ورغم تراجع قدرات العائلة المادية من جرّاء الحادث الذي أصاب المسؤول الأساسي عن توفير رزقها، فلا شك في أن الإقامة في بيروت، وبالقرب من جامعتها الأهم، والتواصل مع أصحاب نفوذ في الجامعة، هيّأ للأولاد ظروفًا مناسبة لمتابعة التحصيل العلمي إلى درجاته العليا. أما ما حبتهم الطبيعة به من توقّد ذهن وقدرة على المثابرة فكانا الأرضية الخصبة التي سهّلت لهم الوصول إلى ما طمحوا مع والديهم اليه.

في بيروت، كان منزل عائلة أم سعيد وأبو سعيد المؤلفة من سبعة أشخاص يقتصر على غرفة واحدة مع حمّام ومطبخ صغيرين، في مدخل العمارة. كانت والدة أم سعيد تنام على صوفا في جانب من الغرفة وكان الأولاد الأربعة الصغار ينامون في سرير كبير. أما الزوجان فكانا ينامان على فراش يمدانه كل مساء على أرض الغرفة. ولأن الابن الأصغر كسر رفاص السرير أثناء القفز عليه، استعاضت العائلة عنه بصندوق خشبي وضع الفراش الكبير عليه. ولما كبر الأولاد، توزّعوا المبيت فرادى في أركان الغرفة.

كانت أم سعيد وزوجها مصممّين على تعليم أولادهما. كانت تقول لهم "أنا حزينة لكوني أميّة وأريد منكم أن تدرسوا وتتعلّموا إلى أقصى ما في وسعكم". وكان أبوهم يحثّهم على الاقتداء بأولاد

أصحاب العمارة المتفوقين في دراستهم. وفي مواسم الامتحانات، كانت أم سعيد تسهر مع أولادها لتوفير أفضل الأوضاع التي تساعدهم على التركيز.

الحق الزوجان كبرى بناهما بمدرسة رسمية، ثم أرسلا الابنة الثانية والابن الذي يليها إلى مدرسة خاصة، متوسطة المستوى. أما أصغر أبنائهما، الذي يفصله عن أخته الكبرى أكثر من عشر سنين، فالتحق في المراحل المتقدمة من سنواته المدرسية بالثانوية العامة التابعة للجامعة الأميركية. وقد تمكنت العائلة من سداد الأقساط الباهضة للمدرسة الأخيرة بمساعدة من الابنتين اللتين كانتا آنذاك قد غدتا موظفتين بدوام جزئي.

ولضيق المنزل كان الصبيّان يذهبان للمذاكرة في حرم الجامعة الأميركية القريب من منزلهما. أما الفتاتان فكثيرًا ما ذاكرتا دروسهما وأنجزتا فروضهما في الحمّام. فكانت إحداهما تجلس على طرف البانيو والثانية على كرسي الحمام، بعد أن تغلقا عليهما الباب كي لا تؤثّر الحركة وكثرة الزوار في تركيزهما، خاصة أن سيدات كثيرات كن يترددن إلى بيت أم سعيد للاتفاق معها على مواعيد العمل أو لمجرّد الحديث. كذلك كان أصدقاء الابن الأصغر من الأغنياء يزورون زميلهم في بيته الصغير ويقولون لأم سعيد إنهم "ينبسطون" في بيتها أكثر من بيوقم الواسعة. وكانت عائلة أحد هؤلاء الأصدقاء تدعو عائلة أم سعيد لزيارتها في نبع الصفا لأيام من العطلة الصيفية، حيث كان الابن الأصغر يأخذ معه هديّة من البن الخشن الذي يحبّه جد صديقه. أما والد الصديق فكان ينظر الى أم سعيد بإعزاز ويعبّر لها عن فخره بما حققته هي وزوجها من أجل أولادهما.

تذكر أم سعيد فضل من ساعدوهم، خاصة الأطباء الذين لولاهم لما ولد ابنها الأصغر معافى ولا بقيت هي وزوجها في صحة جيّدة وقدرة على تأدية رسالتهما. فمع تذكرها لما قاسته في حملها الأخير، لأن مشيمة الجنين كانت في غير موضعها الطبيعي، تذكر فضل الطبيبين اللذين اعتنيا بها وبوليدها، من دون مقابل. وقد اضطرت حينها إلى البقاء في الفراش مدة شهرين، مع اتّباع نصيحة الطبيب بأن تقلّ من الأكل قدر الإمكان حتى لا تصعب العملية القيصرية عندما يبلغ الجنين مرحلة تسمح له بأن يرى النور. وقد أسعفها الطبيبان في مستشفى الجامعة الأميركية عندما هبط ضغطها إلى الأربعين أثناء الولادة. وأحدهما استلحق المولود بالتنفس من فيه إلى فمه، عندما رأى أنه ولد مزرقًا، حتى لا يتسبّب التأخر في إسعاف الطفل بضرر له أو إعاقة. وتذكر أم سعيد بامتنان توازيه ثقتها بحب الناس للخير ولمساعدة بعضهم بعضًا، أن وزن الطفل كان نصف كيلوغرام عند الولادة وبقي في عناية الجامعة الأميركية وتحت إشراف أطباء متبرعين حتى أصبح وزنه كيلوغرامين ونصف الكيلوغرام، حين سمح لها أن تصطحبه إلى البيت.

كذلك لا تنسى أم سعيد فضل الطبيب الذي اعتنى بزوجها مدة حتى شفي من ارتجاج بالمخ أصابه إثر حادث سير تعرّض الزوجان له أثناء الحرب الأهلية في لبنان. وقد وقع لهما الحادث أثناء مرورهما قرب نهر بيروت في وقت كانت القذائف تنهمر بغزارة على تل الزعتر، فتكسّرت سيّارتهما بالكامل ونجوا بأعجوبة بعد خروجهما من نافذتها. وتذكر أيضًا ذلك الذي تبرّع بخمسة آلاف دولار لابنها الطبيب عندما جاءه القبول للتخصص الفرعي في أميركا. وفي غمرة

امتنانها لمن ساعدوا عائلتها لا تنسى أم سعيد أبدًا فضل والدها التي لولا سكنها معهم وبقاؤها إلى جانب الأولاد لما تمكنت هي من العمل اليومي خارج المنزل حتى تجمع تكلفة أقساط مدارسهم وجامعاتهم.

وقد كان التحدي الأكبر الذي واجهه الوالدان، بعد تخرج أولادهما من المدارس، هو إلحاقهم في الجامعة الأميركية في بيروت. وقد خفف تفوق الأولاد الأربعة الذي أهّلهم لتلقي المنح الدراسيّة عبء أقساط الجامعة عن كاهل الأهل. لكن ما تبقى من هذه الأقساط كان فوق طاقة العائلة المتواضعة الدخل. ومن أجل سداد المبلغ، كانت هيلانة تطبخ في بيوت كثير من كبار أساتذة الجامعة، فتأخذ على عاتقها إعداد ولائمهم ولا تألو جهدًا لإرضاء أذواقهم، حتى غدت زوجات هؤلاء الأساتذة يثقن بأن ولائمهن لن تكون متقنة تبيّض وجوههن إلا إذا كانت من إعدادها. وعملت أيضًا طبّاخة لمدرسة اللاهوت للشرق الأدنى حيث كانت تطبخ للمؤسسة برمتها. وكان مدخولها من مدرسة اللاهوت ألفًا وخمسمئة دولار أميركي في الشهر، يضاف اليه ما يصلها من إكراميات من المعجبين بما تحضّره من الأطباق المتقنة. فلم تكن هذه الأم العظيمة ترفض أيّ عمل يتسنّى لها القيام به من شأنه أن يسهم في تحقيق حلم العائلة في حصول أولادها على أعلى مستويات التعلّم. وبفضل جهودها الجبّارة وجهود زوجها وحذاقته في اجتراح موارد عديدة، تمكنت كبرى البنات من التخصص في فن العمارة وحصلت أختها على ماجستير في علم الأحياء وتخصص الابن الأكبر طبيبًا وغدا شقيقه مهندس كومبيوتر. ومن أكبر الصعاب التي واجهتها العائلة إيفاء أقساط

دراسة الطب للابن الأكبر مدة سبع سنوات. ولهذه الغاية عملت أم سعيد في تلك الفترة لساعات طويلة من كل يوم.

عندما كبروا، تزوّج جميع أولاد أم سعيد، ولكل منهم أسرة تنمو إلى جانب حياته المهنية المزدهرة. وقد تزوجت كبرى البنات بأردني والثانية من بريطاني يتقن العربية ويقيم معها في دبي. ويبدو أن هيلانة تحب هذا البريطاني وتمتدحه بشكل خاص لأنه يحترم ابنتها ويحترمها هي كثيرًا. أما الشابان فتزوجا فتاتين لبنانيتين. وزوجة الطبيب هي طبيبة أيضًا، وحماتها فخورة بها لأنها تبذل كل الجهد لتعليم أولادها اللغة العربية مع أن العائلة تقيم بشكل دائم في الولايات المتحدة الأميركية. تقول: "إنهم لا يتكلمون في البيت إلا العربية ويجيدون قراءتها وكأنهم تربوا في مدارس عربية". وكل من أبناء هيلانة يملك منزلاً في لبنان. وهي أيضًا تملك شقة في برج حمود. تقول إن أولادها ممتنون لها وكريمون كثيرًا معها، ودائمًا يقولون لها: "لا تحرمي نفسك من أي شيء أو أي رفاهية ولا تحسبي حسابًا للكلفة المادية". وهي لا تخفي اعتزازها بأولادها وارتياحها لما حقّقوه، ليس فقط لأنهم ناجحون في أعمالهم بل خصوصًا لانهم "أهنياء الطبع ولا يدخنون ولا يشربون الكحول".

تزور أم سعيد أولادها وعائلاتهم في الأردن ودبي والولايات المتحدة. وعندما كانت تزور ابنها الطبيب المقيم في أميركا في ممفيس تنسي، أصيبت بنوبة قلبية أجريت لها على أثرها عملية قلب مفتوح. تقول هيلانه أن العملية كلفت ابنها مئة ألف دولار لم يستوف منها من شركة التأمين إلا عشرين ألفًا. وفي سنة 2009 توفي أبو سعيد في مطار دبي عندما كان ذاهبًا مع زوجته لزيارة ابنهما وابنتهما

المقيمين هناك. كان أبو سعيد آنذاك يعاني سرطان القولون، وكانا ذاهبين ليودع الرجل أولاده بعد أن انتشر المرض في أنحاء جسده. وأم سعيد تشكر اللّه على أن زوجها لم يتعذّب كثيرًا أثناء مرضه ولأن العائلة تمكّنت من نقل جثمانه إلى وطنه ودفنه فيه.

تقيم أم سعيد الآن في شقتها في برج حمود مع أحد أبناء شقيقيها الوافدين من سوريا إلى لبنان. وقد أجرت معها محطة تلفزيون محليّة مقابلة تحدثت فيها عمّا يسّر لعائلتها إنجازًا في تعليم الأبناء كثيرًا ما يقصر عنه المتعلمون الموسرون. قالت لي إنها اختصرت الإجابة عن أسئلة المذيعة بقولها "أنا اشتغلت كثيرًا وأولادي كانوا شطّارًا". وفي الأيام العادية، تشعر هيلانة بالرضى لراحتها المكتسبة بعد عناء ولأن بالها مرتاح على أولادها وعائلاتهم المستقرة. وهي لا تزال على صلة بالسيدات اللواتي نشأت بينها وبينهن صداقات عندما كانت تطبخ لولائمهن. تقول "أشتاق لهؤلاء السيدات الطيّبات وأهاتفهن من وقت لآخر كي أطمئن عليهن".

أميّة

كان قد مضى على تقاعد أميّة حوالى العشرين سنة، عندما التقيتها. فهي ابتدأت عملها كمعلّمة في مدرسة رسمية فور تخرّجها من دار المعلمين، وتدرّجت في الوظيفة معلمة ثم ناظرة ثم مديرة للمدرسة طوال أربعًا وأربعين سنة، بما في ذلك أربع سنوات مدّدت لها بعد بلوغها سن التقاعد.

عرّفتني بها ابنتها التي يبدو أنها أقرب أولادها الخمسة اليها، فهي، كما تقول والدتها، أكثرهم حيوية وحبًا لوالدتها. وقد عرفت الابنة في عملها بلطفها وكرم عطائها ونشاطها وعفويتها. وبدت الأم وابنتها وكأنهما تحملان قلبيهما القويين والمليئين بالإيجابية والنخوة إزاء من حولهما وإزاء الحياة "على كفّيهما" أو "على كمّيهما" كما يقول التعبير الإنكليزي.

والأم، أميّة، هي الرقم سبعة بين تسعة أولاد. تابعت الدراسة في المدارس الرسمية (المعارف) حتى الشهادة المتوسّطة (البريفيه)، ثم التحقت بدار المعلمين لسنتين، توظفت وتزوجت حال انتهائهما. ولم يعيقها الزواج والإنجاب يومًا عن متابعة عملها في مدارس الدولة.

كان والدها قد أكثر من تدليلها لفقده ابنين ولدا قبلها، فكان الخوف عليها مدعاة للسماح لها بما لم يسمح به لشقيقاتها. فمثلاً، عندما رفضت أميّة أن ترتدي غطاء للرأس وفق ما كان مألوفًا في

بيئتها المسلمة، مهدّدة بالبقاء في البيت إن أصر والداها على تقيّدها بهذا التقليد، غضّا النظر عن إجبارها على ارتدائه. وبقيت أميّة، حتى بعد زواجها، جريئة في اختيار ما ترتديه. وكان زوجها سموحًا في هذا الموضوع، فلا يلزمها بما لا تريده ولا يقيم كبير وزن للتقيّد بالأعراف. فكانت أميّة ترتدي أحيانًا ثيابًا فيها جرأة وتغريب عن المألوف، حتى في مكان عملها. وأخبرتني أنها حضرت يومًا أمسية لأم كلثوم في بيسين عاليه وهي ترتدي فستانًا صيفيًا مفتوح الصدر والظهر، فأصيبت بالبرد لأن ثيابها لم تكن مناسبة لهبوط الحرارة في ليل الجبل.

تقول أميّة إن تلميذاتها كن يحببنها رغم أن حضورها المرهوب الجانب وصرامتها في تطبيق النظام تسبّبا في تسميتها بـ "أم رعيدة". فكأنها الرعد الذي لا بد أن يتبع البرق. والبرق هو كسر النظام أو أي تجاوز للمطلوب من التلميذات من صرامة الهندام والتقيّد بالزي والسلوك المدرسيّين. كان الزي مكونًا من مريلة سوداء لها ياقة بيضاء وأرزة مطرّزة على الصّدر. وكانت أميّة تجبر كل من تضع ماكياجًا على غسل وجهها، وتقص بنفسها غرّة من تسرّح شعرها متهاونة في تهدّل شعرها على جبينها، غوى وتجمّلاً.

في بداية خمسينات القرن الماضي وبعد الانتداب، علّمت أميّة الرياضيات باللغة الفرنسية. كذلك علّمت تاريخ فرنسا وجغرافيتها. وغدت بعد بضع سنوات ناظرة المدرسة ثم مديرة القسم الابتدائي في المدرسة التي كانت تعلّم فيها. وميّز أسلوب أميّة في الإدارة إصرارها على الانتظام وعلى تطبيق القانون رغم جميع المحسوبيات التي كانت ولا تزال تخرق الإدارات في لبنان، خاصة الرسمي منها. فمثلاً التحقت

بمدرستها معلّمة جميلة مغناج، أتت الى المدرسة بعد تخرّجها من دار المعلمين حاملة تقريرًا طبيًّا يفيد أنها لا تستطيع ممارسة التعليم، آملة أن يصرف لها مرتّب دون أن تلتحق بالعمل. كان تقريرها الطبي مصدّقًا من مدير التربية، فذهبت أميّة اليه وواجهته بالتقرير، معلّقة أنه يجيز لصبية الإعفاء من العمل، بينما تزاول العجائز عملهنّ في التدريس بانتظام. فمزّق المدير التقرير ونفى موافقته عليه. ورغم أن المعلّمة المدلّلة استخدمت بعد ذلك جميع الوسائل، بما فيها الإغماء عندما لا تحصل على ما تريد، لم تتوان أميّة عن تطبيق النظام، مخيّرة أياها بين العمل كسائر المعلمات أو الاستقالة.

ولّما كان النظام يقضي بأن يتابع كل تلميذ حصّة أخلاق في الاسبوع، كانت المحكمة الشرعية قد أرسلت الى مدرسة أميّة معلّمًا للأخلاق. ولما سمعته يقول للتلميذات إنه إذا تعطّلت معهنّ السيارة أو واجهن أي مشكلة، فليس عليهنّ لإصلاح السيارة أو لحلّ المشكلة إلا صلاة ركعتين، أصرّت أميّة على نقل الأستاذ "المؤمن" من المدرسة.

كذلك، في زمن الحرب الأهلية، احتلّ المدرسة أحد قادة التنظيمات المرهوبي الجانب، وكسّر وخرّب محتوياتها. فلم تتوان أميّة عن مواجهته. ثم شكته إلى سليم الحص، الزعيم الذي كان القبضاي يجلّه، فأمره الحص بإخلاء المدرسة وأخذ منه مفاتيحها وأعطاها لأميّة.

ومن الصعوبات التي واجهتها أميّة في عملها كمديرة لمدرسة رسمية، إصرار بعض المعلمات على ألاّ يداومن قبل الساعة العاشرة صباحًا. فهذا كان يسبب لها مشاكل إدارية، خاصة إبان الحرب

الأهلية اللبنانية حين زاد عدد التلميذات فأقامت المدرسة دوامين للدراسة، وغدا من الضروري أن يبتدىء الدوام الأول في ساعة مبكرة أكثر من المعتاد.

ولعلّ أكثر ما ينبيء عن قوّة شكيمة هذه المربية، أنها أصرت أن تكون أيام الإجازة يومي السبت والأحد بسبب حاجة التلامذة الى يومي راحة متتاليين ليتجدّد نشاطهم على أفضل وجه، بدل الجمعة والأحد اللذين كانا يومي الإجازة الأسبوعية في جميع مدارس المناطق الإسلامية. أغضب طلبها هذا أهالي الحي، فشكوها إلى التفتيش التربوي ودعوا المشايخ إلى انتقادها في الجوامع. وفي مواجهة التفتيش وانتقاد رجال الدين، قرأت أميّة على منتقديها الآيتين القرآنيتين الكريمتين اللتين تقولان "يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر اللّه وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض..." مستخدمة الآيتين كحجّة على أنه ليس من الضروري أن يكون يوم الجمعة يوم عطلة، إذ يسمح الكتاب الكريم بمزاولة العمل قبل الصلاة وبعدها. ولّما احتج المسؤولون بأن النظام الداخلي يحتّم عليهم إبقاء العطلة الأسبوعية يومي الجمعة والأحد، جابهتهم بقولها: "إذا كان النظام يحتّم أن تكون الإجازة يومي الجمعة والأحد، فكيف يسمح بأن تكون السبت والأحد في المناطق المسيحية؟" وبعد أن هددت بترك مدرستها والذهاب للعمل في منطقة مسيحية إن أصروا على تنفيذ رغبتهم، سمحوا لها بأن تبقي يومي الإجازة كما ترتأي.

ولما سألت أمية عن توفيقها بين كل هذا الانغماس بالعمل وبين واجباتها كأم وربة منزل، أخبرتني أن شقيقات زوجها كنّ يساعدنها

عند الحاجة، لأن زوجها كان الصبي الوحيد بينهن وكنّ يحببنه كثيرًا. كذلك ساعدتها ابنتها الكبرى في تحمّل مسؤوليات إخوتها. أما العمل المنزلي فكان لديها دائمًا عاملات يقمن به. وإلى ذلك فهي كانت تحرص على القيام بواجباتها كأم في توصيل أولادها إلى المدرسة والعناية بهم، أو تنظيم أمر تلك العناية عن طريق متطوّعات من العائلة.

غادرتها وقد تسرّب إلى نفسي رضى فاح من رضاها عمّا قامت به في حياتها من عمل برهنت فيه عن كفاءتها في أكثر من مجال. أما قدرتها على إملاء إرادتها على معظم من عايشوها، فبدت لي مزيجًا طريفًا من الالتزام بما يحقق التقدّم والإنجاز وبعض الزوربة على طريقة الشطارة اللبنانية. فـ "الزوربة" عندها لم تكن صنوة للكسل أو عدم الاكتراث بل كانت أسلوبًا في اجتراح أقصر الطرق وأنجعها من أجل الفعالية السريعة والتطوير المطلوب.

كذلك، رسّخت معرفتي بأميّة وبابنتها قناعتي بأن التعاطي التقليدي مع المسنين بإبقائهم في كنف العائلة وفي البيوت التي أسسوها أفضل بكثير من الأسلوب المستحدث الذي يعزلهم عن المجتمع في أماكن مخصّصة للمسنين. فأميّة بدت رافلة بالاقتناع بقيمتها وقيمة وجودها في قلب العائلة. وابنتها بدت سعيدة ومرتاحة الضمير لما تغدقه على والدتها من حب وإعزاز. ولم تعبّر أميّة المدللة عمّا يزعجها في زمن قعودها عن العمل إلا في اعتراضها على أن أولادها لم يعودوا يسمحون لها بقيادة السيارة. وبد اعتراضها هذا مشوبًا بالاعتزاز بخوف أولادها على سلامتها الغالية.

توفيقة

التقيتها في عمارة أهلها القديمة في صيدا، حيث ولدت وسكنت طوال حياتها، قبل الزواج وبعده. إنها عمارة من زمن كان مهندسوه يهتمّون بالناس أكثر من اهتمامهم بالمال، فلا يقتصدون في المساحات والتفاصيل الجميلة على حساب راحة ساكني البناء وفرح عيونهم وعيون زوارهم. فسقف بيتها عال وردهاته واسعة وشبابيكه وبلاكينه تجلب الطبيعة وشمسها وهواءها إلى داخل المنزل. فمن الغريب أننا في زمن الديمقراطية والفردية وحقوق الإنسان وزمن الاستقلال الذي أعاد الوطن إلى مواطنيه، غدت بيوتنا علبًا صغيرة تقتصر خدمتها لأصحابها على سترهم عن العيون وحمايتهم من تقلبات الطقس، بينما في زمن السلطنة والانتداب قامت أبنية أكثر عطفًا على للناس واحترامًا لهم، مقيمين ومارين وسائحين. وكأن سلطان المال أكثر قمعًا ومحدودية من سلطات الاحتلال.

قطعت ممشى تحف به ورود وأزهار كاردينيا يعبق بها مدخل البناية الفسيح. وصعدت درجًا عريضًا ذا بلاطات تجمع في زخرفتها بين البني المحمرّ والسكري والأصفر، يحدّه من ناحية واحدة حائط مخـرّم بأناقة وذوق، فراغاته ذات الأشكال الهندسية تجعله أكثر انفتاحًا وترحيبًا مما ألفناه حديثًا، وتمكّن الصاعد أو النازل من أن يرى آخرين على السلالم أو يكلّمهم، دون أن تتسع لسقوط طفل شقي يقوم بتجارب خطرة.

وفي الطابق الثاني من هذا البناء الجميل قابلت توفيقة. وهي سيدة أنيقة في منتصف العقد التاسع من عمرها. أخبرتني أنها تهتم بالريجيم حتى لا يزيد وزنها. كانت في يوم لقائنا ترتدي بلوزة مطرّزة ناصعة البياض وتنورة سوداء تليقان بسنّها. وفي حديثي معها وجدتها وقورة ومتّقدة الذهن ومعتدّة بكونها من عائلة كان أبناؤها وبناتها من أوائل المتعلمين والمعلمين في منطقتها. فوالدتها درست زمن الاحتلال العثماني حتى مستوى البريفيه في مدرسة المقاصد في صيدا، ثم درّست في مدارس الدولة لعقود طويلة. وتوفيقة أيضًا عملت مدرّسة إلى حين بلوغها سن التقاعد.

كان والدا توفيقة من أبناء العمومة. وقد ولدا في آخر عقد من القرن التاسع عشر، وقرر أهاليهما منذ طفولتهما أنهم سيزوجونهما لبعضهما عندما يكبران. والدها كان تاجر حبوب بالجملة، ومن كرم نفسه كان يكفل كل من يطلب منه أن يكون كفيله. وبعض هؤلاء لم يفوا بما عليهم، مما اضطره إلى بيع أراضيه ليسدد ديون من سبق له أن كفلهم. حتى تجارته تأثرت بكرمه، مما أدّى به إلى التوقّف عن العمل، واضطر زوجته التي كانت قد توقفت عن التعليم في فترة الإنجاب والعناية بالصغار إلى العودة إلى التعليم في السلك الرسمي حتى بلوغها سن التقاعد. فكانت بذلك من أوائل السيدات الموظفات المعيلات لأسرهن، خاصة خارج العاصمة وفي بيئة مسلمة شيعية.

وتوفيقة هي ثالث أخوتها الثمانية. مات منهم ثلاثة وبقي صبيان وثلاث بنات. درست في مدرسة الأميركان الإنجيلية في صيدا، فكانت هي وشقيقتاها من بين الأقلية النادرة من التلميذات المسلمات اللبنانيات في المدرسة، إذ كانت معظم التلميذات اللبنانيات من

المسيحيات، أما المسلمات فكنّ من السوريات والفلسطينيات. قالت لي توفيقة إن مدرسة الأميركان في زمنها كانت أفضل من مدارس الراهبات التي لم تكن تعدّ الفتيات لما سيواجهنه في الحياة، ولا تدرّسهن إلا المواد المقرّرة لنيل الشهادات. كذلك، فهي تعتقد أن مدارس الراهبات ميزت بنات الأسر الغنية عن الفقيرات، بينما تعاطت المدرسة الأميركية مع الجميع بالأسلوب نفسه، بل ساعدت بعض الفقيرات وشجعتهن على بناء مستقبلهن. وتذكر أنه عندما طلب إلى مديرة مدرسة الأميركان أن تعلّم المنهج اللبناني، رفضت قائلة: "أفضل تربية الأرانب على تعليم هذا المنهج".

كانت تلميذات المدرسة التي التحقت بها توفيقة وشقيقتاها يجتمعن كل صباح مع المشرفات والمعلمات في قاعة الاجتماع للصلاة. وكانت دراسة التوراة والإنجيل من بين المواد المقررة. أما التركيز فكان على دراسة مادة الاقتصاد المنزلي المشتملة على التدريب على تربية الأطفال وأصول التعاطي مع الزوج والإتيكيت بما فيها آداب المائدة والأنماط المختلفة لتنسيق الموائد ووضع ميزانية البيت والخياطة والطهي والإسعافات الأولية. ومن بين مواد الدراسة الأخرى كانت اللغات من الأولويات. وكانت اللغتان الأساسيتان هما الإنكليزية والعربية، بالإضافة إلى اللغة الفرنسية، لغة الانتداب، التي كانت معلمتها من أصل فرنسي. وقد قللت المدرسة من ساعات تعليم اللغة الفرنسية بعد استقلال لبنان عن الانتداب الفرنسي.

تقول توفيقة إن المدرسة الداخلية في ذلك الزمن كانت مدعاة للتفاخر "برستيج". وبالنسبة لعائلتها، كانت أيضًا خيارًا عمليًا لأن والدة توفيقة كانت تعلّم في بلدة جباع فيصعب عليها التوفيق بين

وظيفتها والعناية بالأولاد متنقّلة بين جباع وصيدا. وهكذا قـــررت الأسرة إلحاق بناهما بالقسم الداخلي من المدرسة الأميركية. وكانـــت التلميذات المسلمات في تلك المدرسة لا يرافقن زميلاتهن إلى الكنيسة يوم الأحد. وكانت عائلة توفيقة تهيّئ لبناهما من يدرّسهن القـــرآن في المنزل. ولما سألتها إن كانت التلميذات المسلمات في المدرسة الداخلية يصمن رمضان، قالت لي: "لا، لم نكن نصوم حتى لا نـــزعج نظـــام المدرسة بأن نفرض عليها أعباءً إضافية".

برعت توفيقة في دراستها، خاصة في مـــواد التـــدبير المنـــزلي والحساب. وكان نظام القسم الداخلي في مدرستها يقسم التلميذات إلى مجموعات تضم كل واحدة منها اثنتي عشرة تلميـــذة، تكـــون إحداهن مسؤولة عن "بيتهن". وقد عيّنتها المدرسة مســـؤولة عـــن "البيت" الذي ضمّها. وكانت المدرسة تعتمد على حسن إدارة توفيقة لدرجة أنه عندما أرادت أسرها أن تنقلها إلى القسم الخـــارجي، في آخر سنتين من دراستها، اعترضت الإدارة بحجة أن المدرسة تحتـــاج اليها.

بعد تخرّجها، سارت توفيقة على خطى والدها في التعلـــيم في القطاع الرسمي. وبعد خمس سنوات، قرأت في الجريدة عـــن إنشـــاء النقطة الرابعة (هي مؤسسة قامت بقرار رئاسي أميركـــي مهمتـــها مساعدة لبنان في أمور بعينها) كلية لتعليم التدبير المنزلي المتقـــدم في قرية فالوغا، فتحمّست للانتساب إليها، معتبرة أنها من أكثر المهيئات لهذا البرنامج والراغبات فيه. وقد قابلت وزير التربية لهـــذه الغايـــة. وعندما تواصلت مع الكلية طلب اليهـــا الانتســـاب إلى الجونيـــور كولدج لسنتين، فأخذت إجازة من وظيفتها في التعليم الرسمي، مـــن

1953–1955 ودرست في الكولدج لغات وعلم نفس الأطفال وصحة عامة (كانت معلمتها جمال كرم حرفوش) بالإضافة إلى التدبير المنزلي.

كانت الخطوة التالية في البرنامج تتطلّب ذهاب توفيقة لسنتين للدراسة في أميركا. لكن الأمر صعب على والدهما. فشقيقتها الكبرى كانت قد تزوجت منذ سنوات، وبذلك غدت توفيقة أكبر بنت في بيت الأسرة والأقرب إلى والدهما. قالت لها والدهما: "أريد أن أموت في حضنك"، فقررت توفيقة البقاء في لبنان والعودة إلى وظيفتها السابقة. وبقيت تعلّم الحساب والتاريخ حتى بلوغها سن التقاعد سنة 1990. وكانت قد انضمت إلى سلك التعليم الرسمي سنة 1948.

في سنة 1957، طلبها للزواج أحد مفتشي وزارة التربية. وقد تعرّف اليها بحكم وظيفته وأيضًا من خلال تزكية شقيقته لها، إذ كانتا زميلتين تعلّمان في نفس المدرسة. أخبر المفتّش مديرة المدرسة برغبته في الزواج من توفيقة، فأثنت المديرة على حسن اختياره، معبّرة له عن اقتناعها أنهما مناسبان تمامًا لبعضهما. قابل المفتّش توفيقة في مكتب المديرة، وبعد أخذ موافقتها طلبها من أهلها فرحبوا به لحسن سيرته وسمعته الطيبة، ولم يبالوا بكونه من غير طائفتهم. وعند زواجهما كانت هي في الثانية والثلاثين من عمرها وزوجها في الخامسة والأربعين. وقد رزقا بصبيين. وكان سبب تأخر عريس توفيقة بالزواج أن والده توفي عندما كان صغيرًا، وكان أكبر إخوته الثمانية، فاضطر لمساعدة والدته في تحمّل الأعباء الماديّة للأسرة. ولم يتزوج إلا بعد أن كبر الأخوة وغدوا قادرين على تأمين معيشتهم بأنفسهم.

رقي زوج توفيقة رئيسًا لمصلحة التربية الوطنية في محافظة لبنان الجنوبي. وبعد مدّة رست وزارة التربية على زعيم سياسي خصم لزعيم آخر من أقرباء توفيقة، فنقل الوزير زوج توفيقة إلى بيروت حتى لا يساند قريب زوجته، فيؤذيه سياسيًا. وبما أن عائلة توفيقة كانت مستقرّة في صيدا، اضطر زوجها إلى الذهاب يوميًا إلى بيروت والعودة للمبيت في صيدا. وقد سبب هذا الوضع صعوبات جمّة للعائلة وأتعب الرجل جسديًا وصحيًا، مما دعاه إلى الاستقالة سنة 1972.

كانت توفيقة في زمن الدراسة ناشطة في جميع النوادي الاجتماعية. وبعد التخرّج غدت أمينة سر جمعيتي "نهضة السيدات" و"خريجات مدرسة الأميركان في صيدا". ولما كانت المتطوعات في جمعية "الصليب الأحمر، فرع صيدا" غير ملمّات مثلها بكتابة التقارير حسب الأصول، وكانت بعضهن متطوعات "وجاهة" لا من أجل العمل، فقد طلب مدير الجمعية، مسيو ليف، من توفيقة التطوّع في الجمعية لتساعد في هذه الأعمال، حتى لو اقتصر ما تتبرّع به من وقت على بضع ساعات في العطل الأسبوعية. تجاوبت توفيقة مع طلب المدير، وغدت أمينة سر الجمعيّة من سنة 1954 حتى سنة 1990. وخلال هذه الفترة كانت توفيقة واحدة ممن ساهموا بالدور الحيوي والإنقاذي الذي لعبه الصليب الأحمر في سني الحرب الأهلية اللبنانية (1975–1990)، وممّن واكبوا الدور الهام الذي لعبه فرع صيدا من الجمعية أثناء احتلال إسرائيل لقسم كبير من جنوب لبنان (1978–2000). فكان متطوعي الصليب الأحمر يساعدون النازحين من القرى الحدودية بأمور حياتية وصحية شتّى. ومما أضاف إلى

صعوبة العمل في تلك المنطقة إغلاق إسرائيل للطريق البحري، ممّا صعّب على المسعفين التنقّل بين المدن والقرى والبلدات الجنوبية. وكانت مديرة المدرسة التي تعلّم توفيقة فيها تسمح لها بالتغيّب كي تنصرف لعملها الإنساني الذي بدا للمديرة أكثر إلحاحًا من التعليم، في تلك الفترة العصيبة.

وفي الفترة التي انضمت توفيقة فيها للصليب الأحمر، فرع صيدا، تحوّل مستوصفه الوحيد إلى ثلاثة وعشرين مستوصفًا، كما أسست الجمعية مدرستا تمريض، واحدة تكميلية وأخرى جامعية، وأنشأت بنكًا للدم.

في سنة 1990 وضع أحد السياسيين المعنيين بالحرب الأهلية يده على جمعية الصليب الأحمر، متحججًا بأنها جمعية تعمل فقط من أجل المسيحيين. فكان الرد على تدخّله استقالة جميع العاملين في الجمعية، مسلمين ومسيحيين. عين السياسي بدلاً من الأعضاء المستقيلين أناسًا غير أكفاء، مما أعاد الجمعية إلى وضعها المتخبط القديم، فأغلقت مدارس التمريض وتم تقسيم عمل الجمعية في الجنوب إلى فروع عدة منفصلة عن بعضها بعضًا. قالت لي توفيقة إن الوضع بقي "مزريًا" حتى سنة 2013 عندما اضطلعت بمسؤولية رئاسة الجمعية سيدة كفوء، "عملت على إعادة بث الحياة في الجمعية وتطويرها، في منطقة هي الأحوج إلى خدماتها".

تزامنت استقالة توفيقة من الصليب الأحمر مع تقاعدها من الوظيفة. وبذلك تفرّغت للعناية بميتم كانت عائلتها، عائلة عسيران، قد أنشأته. اضطلعت بمهمّة أمينة سر الجمعية المشرفة على الميتم، وانتخبت ضمن لجنة تضم عشرة رجال وسيدتين لتطوير مرافق الميتم

وخدماته. وقد رمّمت هذه اللجنة مرافق الميتم وجهّزها مضيفة اليها بناية جديدة. كذلك عملت توفيقة على إضافة معهد لتعليم الخياطة ومعرض لبيع ما تنتجه العاملات في المعهد، وغدت تهتمّ بتحسين نوعية ثياب الأيتام وغذاءهم، فتحرص على شراء ثيابهم بنفسها وتتأكّد من أن الطعام المقدّم للأطفال صحي ويلبي حاجاتهم للنمو. ويتراوح عدد الأيتام في هذا الميتم بين مئة وخمسين ومئة وستين طفلاً. وهو يؤي البنات حتى سن الرابعة عشرة والصبيان حتى سن الثالثة عشرة.

فائزة (اسم مموّه)

في أحد الأيام، دخلت فائزة إلى مكتب رئيسها المباشر في وظيفتها في الجامعة، بقامتها الفارعة وحضورها الطاغي وببعض الاستعلاء الذي يشع من نظرتها، وقالت له بحسم لا لبس فيه: "عندما أدخل إلى مكتبك، عليك أن تنهض واقفًا، وعندما تودّعني، توصلني إلى الباب، وإذا صدف أن تقاطعت طرقنا في حرم الجامعة عليك أن تحييني أو أن تردّ تحيّتي إن سبقتك إلى السلام". دهش الرجل المعروف بأخذ موقعه الوظيفي بجدية وصلافة بحيث يشعر مرؤوسيه دائمًا بهرمية العلاقة بينه وبينهم، حتى أنه يسمح لنفسه ألاّ يرد التحية لمن يبادره بها. لكنه، من ذلك الوقت، تقيّد بمعظم ما أملته عليه فائزة من "تعليمات" أو أوامر، ليعود وغيره من رؤسائها في العمل،ممن يشعرهم وجودها بأن وظائفهم أقلّ أهمية مما يظنون، إلى التضييق عليها في الترقية والمعاش.

ما أعطاها القدرة والمجال على هذا النوع من السلوك هو، بالدرجة الأولى، أولويات لم تحد فائزة يومًا عنها. وفي قمّة هذه الأولويات وضع كرامتها وفرض احترامها في قمة ما تصرّ عليه ولا تتهاون بشأنه. ولعل ما حمل "رئيسها" على الاستجابة لطلباتها هو ما كانت تبذله في عملها من قدرة على الإنجاز ومن استقطاب وجهات كثيرة للمساندة، حتى في التكلفة المادية، بمبادرات تأخذها على

عاتقها دون أن تكلّف المؤسّسة التي تعمل فيها مالاً أو وقتًا للتفكير والتدبير.

ولدت فائزة في أوائل أربعينات القرن الماضي، في إحدى ضواحي بيروت. وهي من عائلة تفرّق ثلاثة أخوة من أجدادها في مناطق مختلفة من لبنان، إثر تعدي أحدهم على الإقطاعي المتنفذ في بلدهم البقاعية. كان ذلك منذ ما لا يربو على خمسة أجيال. وقد تفرّق الإخوة خوفًا ممّا قد يطالهم من ثأر أو اضطهاد من قبل عائلة الإقطاعي، فرست عصا ترحال أحدهم في إقليم الخروب وآخر في كسروان وثالث في ضاحية بيروت الجنوبية. واعتنق كل من الإخوة العقيدة الدينية الطاغية في المنطقة التي حطّ رحاله فيها، فغدا الأول مسلمًا سنيًا والثاني مسيحيًا والثالث مسلمًا شيعيًا، وهو الذي تحدّرت فائزة من ذريته.

أما والد فائزة فكان من أوائل الذين حصّلوا علومًا عالية في زمنه، خاصة في طائفته. وقد حاز شهادة ماجستير في التربية من جامعة في الولايات المتحدة، حيث كان جون ديوي أحد أساتذته. أما والدها فابنة عائلة بسيطة من إحدى مدن الجنوب اللبناني. لكن انتساب عائلة الأم إلى النبي محمد (صلعم) أكسبها حيثية مميزة واحترامًا. وقد كانت العلاقة بين الزوجين لا تخلو من طرافة. فهو مفكّر وكاتب ومنهمك بالشؤون السياسية والقومية للبلد، وهي تصرّ على التصدّي لأي تميّز له عليها بمحاججته وعدم الرضوخ لما يطلبه، وكأنها إن سايرته تكون قد اعترفت بتفوّقه عليها. ومع ذلك فقد كان بينهما مودة خاصة، وكأن الجدل الدائم بينهما نوع من التعبير عن إلفة عميقة أو نوع فريد من "الغزل". ومن تأثير هذا "الغزل"

على فائزة أن كلاً من والديها أطلق عليها اسمًا أصرّ عليه، فصارت تعرف بين الناس باسمين مختلفين! ولعلّ تصميم كل من والديها على عدم الانكسار أمام الآخرين، بما في ذلك شريك الحياة، والتشبث بموقفه وموقعه هو الصفة الأساس التي اشتركا فيها، والتي ورثت فائزة الكثير منها. أما ما اكتسبته من تعاطي والديها معها أو من تأثّرها بهما فقد يختصر بمناصرة الحق وعدم إظهار أي خوف أو تردد، بغض النظر عما تستشعره وعمّا تعلم أنه قد يترتب على سلوكها من أثمان.

ولعل إرسالها إلى مدرسة داخلية وهي طفلة في الرابعة من عمرها، مع أن منزل والديها لم يكن يبعد كثيرًا عن المدرسة، أشعرها بوجوب الاعتماد على نفسها وبأن مظهر القوّة يوفّر عليها الكثير من المعاناة ويوفّر لها موقعًا متميّزًا بين أترابها. وقد جاء والدها في صبيحة يوم عطلة ليأخذها من المدرسة الداخلية إلى المنزل، فوجدها ممنوعة من الخروج قصاصًا لها على قلّة احترامها لإحدى المعلمات. ولما استفهم عن الحادثة، علم أن المعلمة كانت تقول لتلامذتها: "لو كنتم حجارة صماء أو حيوانات لكنتم فهمتم الدرس بعد كل هذا الشرح"، فخرجت فائزة من الصف اعتراضًا على كلام المعلمة المهين للتلميذات. وبعد أن سمع والد فائزة هذه القصة، رفض أن تتقاصص ابنته لأن الحق والأصول كانا في جانبها وأصرّ على أخذها لقضاء العطلة مع أسرتها.

وفي المدرسة الداخلية تعلمت فائزة أن تتغلب على قلقها الدائم على والديها وعلى إظهار أي ضعف. أخبرتني أنه عندما كانت والدتها توصلها إلى المدرسة، كانت تخاف من أن تتعرض لحادث سير في الطريق أثناء عودتها إلى المنزل، وأنه كثيرًا ما رأت في المنام كابوسًا

يموت فيه والدها، فتستيقظ وقد بلّلت دموعها المخدة. أما في النهار فكانت تظهر ثابتة لا يهزّها ريح، وكأن مثلها الأعلى مستورد من أصقاع بريطانيا لا من مشرق دافق العاطفة دافئها.

وفائزة هي أصغر أولاد العائلة وابنتها الوحيدة. ولدت بعد أخويها بما يقرب السنوات العشر. تلقّت دراستها في مدارس معظمها تبشيري، بين صيدا وبيروت. ثم تابعت دراستها الجامعية في كلية بيروت للبنات. تزوجت زواجًا تقليديًا بعد مدة قصيرة من التحاقها بالجامعة الأميركية في بيروت لتحضير ماجستير في علم النفس التربوي. ورجعت إلى الجامعة بعد زواجها لمتابعة التحصيل فنالت شهادة الكفاءة في التربية ثم حازت على الماجستير التي كانت قد ابتدأت بتحضيرها قبل زواجها. وخلال دراستها، عملت في الجامعة وكانت مساعدة أبحاث للأستاذ المشرف على أطروحتها.

أنجبت فائزة وزوجها ثلاثة أولاد ذكور، كرّست لهم معظم وقتها لسنين طويلة. ولم ترجع إلى الدراسة والعمل إلا بعدما غدا أصغرهم في الحادية عشرة من عمره. وفائزة، خلافًا للأمهات اللواتي يحاولن تمديد الدور الوظيفي لأمومتهن عن طريق إعداد أطباق الطعام ورعاية الأحفاد، لعبت دورًا كبيرًا في حياة أولادها العملية وفي دفعهم إلى مجازفات وظيفية وعملية أشبعتها درسًا ورجح في رأيها نجاحها. فكانت فائزة عاملاً أساسيًا في إحراز أبنائها ثروات معتبرة، إذ أن شجاعتها ونشاطها وحسن تدبيرها كما حصافة رأيها واكبت كلاً منهم. فهي حثّت أحد أبنائها على القيام بمشروع بناء شقق سكنية بدل شراء شقة ممن يكونون ثروات عن طريق بناء الشقق وبيعها، ونصحت آخر بتأسيس معهد يعلّم فرعًا أساسيًا ومطلوبًا من

فروع إدارة الأعمال، وحمّست الثالث على السفر للعمل في الخارج، عندما رأت أن فرص العمل لمن يحملون مؤهله العلمي هي أفضل هناك مما هي في بلده.

وفي الفترة التي تربو على العشرين سنة من توليها مسؤولية مرفق هام من مرافق الجامعة، استخدمت فائزة مواهبها في تفعيل طاقات الشباب، فساعدت من لهم مشاكل أكاديمية من الطلاب على تحسين أدائهم عن طريق دروس هيأتها لهم أو عن طريق إيجاد الاختصاصات المناسبة لقدراتهم. ووفّرت المنح أو الأقساط لمن هم بحاجة اليها. بل إنها أخذت المبادرة في تأسيس فرع رديف للجامعة خارج العاصمة، جمعت المال اللازم له من أهل المنطقة المستفيدة منه.

ومن يعرف فائزة ومواهبها الإدارية ودرايتها بتسيير الأمور وابتداع الحلول للمشاكل وقدرتها على فرض حضورها وإسماع صوتها، يأسف لبقاء النساء في بلدنا بعيدات عن مواقع القرار السياسي. فمن تملك صفات فائزة وقدراتها من شأنها أن تحدث أثرًا إيجابيًا محسوسًا في الإنجاز الحكومي، بالإضافة إلى توفير نموذج من قدرة الفرد ذي الإرادة على الإنتاج واتّخاذ القرارات وتغيير الاتّجاهات الانهزامية، فهي نموذج يغيّر الصورة السائدة عن المسؤول الكسول والمنهمك في أمور لا تجدي أحدًا سواه.

لكن، بما أن فائزة لم تفز بموقع سياسي لا يصل أصحابه أبدًا إلى سن التقاعد، مهما تقدّم بهم العمر، فهي الآن متقاعدة. لكن طاقتها لم تخب ونشاطها لم يهدأ. فهي من الصباح الباكر تواكب مصالح الأسرة في الدوائر الحكومية وتبيع وتشتري الأراضي وتترأس الجمعيات ذات الأهداف الثقافية أو الاجتماعية. ولها الكثير من

الأصدقاء والمعارف، فترافق زوجها إلى اجتماعاتهم وحفلاتهم ومآدبهم. وعندما يتعب زوجها من مجاراتها في كل هذا النشاط الاجتماعي، تتابع وحدها ما تريده منه. وفائزة تحب كثيرًا إقامة الولائم للأصدقاء، فتتفنن في تحضير الأطباق الشهية وفي تزيين المائدة وإعدادها بذوق راق خاص بها.

اليانور

جلست معها في شرفة بيتها الصيفي في ضهور الشوير، طالبة اليها أن تروي لي سيرتها. كانت الشرفة تطلّ على جبل صنّين وتنتصب أمامها صنوبرة معمّرة ذات جذع يتفرّع إلى شجرتين وارفتين. سرحت عيناها الزرقاوان نحو الجبل وملأت رئتيها بما يتيسّر من النسيمات العذبة ثم تنهّدت قائلة: "سأفتقد كل هذا، وسأفتقدكم جميعًا. لكنني سأفتقد شملان، مرتع طفولتي أكثر من افتقادي لضهور الشوير. وسأفتقد مع كليهما هذه النسمات التي لا يوجد في العالم ما يضاهيها. كم سأفتقد هذا البلد الذي أحببت". فأجبتها: "إنه بلدك. فأنت ولدت وكبرت وتزوجت وكانت معظم حياتك العمليّة في خدمة لبنان واللبنانيين".

كانت إليانور قد وصلت في رحلة العمر إلى حافة التقاعد الذي تزامن مع تمادي مرض التصلّب اللويحي في شلّ الجهة اليمنى من جسدها. وهي رغم المرض، بقيت تعمل في الجامعة الأميركية بدوام جزئي. وكانت تقرأ كثيرًا في أوقات فراغها من العمل. وطالما سلّفتني الكتب الشيّقة التي قضينا أيامًا في نقاشها بعد قراءتها. وكثيرًا ما غاصت نقاشاتنا في موضوعات روحيّة وسياسيّة شتّى، فوجدنا بيننا تقاربًا في وجهات النظر. فهي إلى جانبنا من القضيّة الفلسطينيّة، واختلافنا في الدين جمعنا ولم يفرّقنا في سعينا نحو التقرّب إلى اللّه

بشتّى الطرق. وقد بقينا لمدّة نجتمع مع صديقة أخرى طالما حملها بحثها عن الترقي الروحي إلى الهند، فكنّا نقرأ مختارات من صلوات وأفكار ونناقشها ونصلّي معًا من أجل مستقبل أحبائنا ومستقبل الوطن المشترك الذي يجمعنا حب كبير له.

وقد زرنا معًا مرارًا الأب باولو اليغري، العامل على الحوار بين الأديان في دير مار موسى في سوريا، وخفنا عليه ثم حزننا سوية عليه عندما جاءنا خبر مقتله. وأثناء إقامتها الطويلة في لبنان، درست إليانورعن الكنائس الشرقية وعن الدين الإسلامي في مؤسسات دينية محلية، كمدرسة اللاهوت للشرق الأدنى، كما زارت مؤسسة الفلسفة الدينية الإسلامية في ضاحية بيروت الجنوبية للتواصل وتبادل وجهات النظر.

وفي توقها إلى التمتّع بجمالات الطبيعة وبعراقة المواقع الأثرية في هذا الجزء العريق الحضارة من العالم القديم، كانت إليانور ترافق زوجها ريتشارد في سيارتهما الجيب الحمراء في طرقات غير معبّدة وغير معروفة بحثًا عن أماكن تنطق بتاريخ ما مرّ على مواقع قرآ عنها أو حدسا بوجودها.

تعرّفت اليها عندما طلب اليها رئيس مجلس أمناء المدرسة التي كنت أديرها مساعدتنا في تحرير بعض النصوص الإنكليزية التي تعلن عن رسالة المدرسة وفرادة تاريخها. وقد دخلت مكتبي في يوم كنت فيه تعبة إلى درجة كبيرة، ولفتني أن مكوثها معي بثّ فيّ نشاطًا وحيويّة لم أعرف من أين أتياني. وبعدما تعمّقت صداقتنا، علمت أن روحها الإيجابية الصافية المحبّة هي ينبوع من الحيوية ينعش من يجالسها.

ولدت إليانور في بيروت سنة 1945، وأمضت معظم عطل الصيف في طفولتها وشبابها في مصيف العائلة في شملان، في البيت نفسه الذي أمضى فيه والدها عطل الصيف منذ طفولته. وقد تابعت دراستها في لبنان حتى عمر الرابعة عشرة، وذهبت بعد ذلك إلى أميركا لاستكمال دراستها. وأثناء دراستها في الخارج، كانت ترجع كل سنة لتمضية العطلة الصيفية في شملان. وبما أن حياتها في تلك السنين تمحورت حول العائلة أكثر منها حول المدرسة ورفاقها، فشملان تعني لها أجمل ذكريات الطفولة والصبا وأكثرها انطباعًا في ذاكرتها. ومن ذكريات الطفولة التي كثيرًا ما استرجعتها، تلك السلّة الصغيرة التي كانت تحملها في الصباح الباكر وتنزل بها إلى بستان عائلتها في شملان لتملأها بثمار الحديقة من عنب وخوخ وتين. وقد ضحكت وهي تخبرني عن "شيطنة" ما تزال تحتفظ بشيء منها، إذ تذكر كيف كانت تأكل العنب من عن العريشة، عاصية أمر والدها بوجوب غسله قبل أكله. وهي تذكر أيضًا أنها كانت تأتي مع الأهل سنويًا إلى الشوير، حيث كانت الإرساليات الإنجيلية تقيم مؤتمرها السنوي. وهي من يومها مولعة بالشوكولا مو التي تذوقتها في مطعم الحاوي في ضهور الشوير.

وقد قضت إليانور معظم حياتها العملية بين التدريس في الجامعة اللبنانية الأميركية (كليّة بيروت للبنات حينئذ) وبين العمل في مدرسة الجالية الأميركية وفي الجامعة الأميركية في بيروت. وقد عمل زوجها ريتشارد أيضًا سبع عشرة سنة في التدريس في مدرسة الجالية الأميركية وفي كلية بيروت للبنات. وقد شغل في الأخيرة رآسة قسمي الرياضيات والعلوم.

وإليانور هي أميركية الجنسية لبنانية المولد والهوى والمحتد. والد جدها لوالدها هو دانيال بلس، مؤسس الجامعة الأميركية في بيروت (الكلية البروتستانتية السورية سابقاً). وجدّها ماري بلس دايل أسست في القرن التاسع عشر مدرسة للبنات في رأس بعلبك ثم أسست كلية التمريض في الجامعة الأميركية في بيروت. أما جدها لوالدها فكان طبيباً متخصصاً بالجراحة النسائية وعميداً لكلية الطب في الجامعة نفسها. ووالدها هاري دورمان كان ممثّل الشرق الأدنى للمجلس الوطني للكنائس في أميركا. وهو الذي درّب لبنانيين للاضطلاع بإدارة المجلس المسيحي للشرق الأدنى، الذي كان مدراؤه قبل ذلك من الأجانب. وقد وضع والدها كتاباً بالإنكليزية عنوانه "من أجل فهم الإسلام". أما والدتها فرجينيا فعلّمت في لبنان مادة الموسيقى الدينية وعملت مديرة الموسيقى للكنيسة البروتيستنتية العربية في بيروت.

ومن ذكريات إليانور مع والدها، هاري دورمان الذي أتقن اللغة العربية، مرافقتها له في قارب صغير صعوداً في النيل نحو منزل قروي من منازل دلتا مصر، للالتقاء بجماعة من القرويين يشكلون "المنظمة القبطية الإنجيلية". وكان والدها، في معرض مخاطبته لهم عن الخدمة الاجتماعية، يخبرهم من قصص جحا. وفي حديث إليانور عن والدها ذكرت براعته في رواية القصص، خاصة المضحك منها، مستعيدة من الذاكرة وجوه القرويين المغرقين في الضحك وهم يستمعون لروايته لنوادر جحا. قالت: "لا زلت أذكر وجوههم الضاحكة وقد أنارها قنديل وحيد، إذ لم تكن الكهرباء قد وصلت بعد إلى تلك القرية المصرية النائية". ومن ذكرياتها عن تلك الرحلة،

أنها شاهدت في صبيحة اليوم التالي مسيرة جنازة كانت النسوة تسير فيها حاملات مآكل للموتى، وكان الأطفال يسيرون معهن حتى يأكلوا ما ستتركه النساء في المقبرة. وعلّقت إليانورعلى تلك الذكرى، معبّرة عن إعجابها بتقليد يستعيد التاريخ الفرعوني السحيق لتلك الأرض المغرقة في العراقة ويسهم في الوقت نفسه بإطعام الأطفال. ولإليانور ذكريات كثيرة عن كيفية تقريب أبيها الحضارة العربية إلى قلبها وقلوب أخوتها وعن تعليمه إيّاهم عن مواقع النجوم التي تعرّفوا اليها في سماء لبنان، وعن شرحه لهم عن علاقة الكواكب بالميثولوجيا الإغريقية. وهذه التنشئة ساهمت في دفع أخيها بيتر نحو التخصّص بعلم الآثار المصرية وحببت اليها واليه الإقامة والعمل في هذه المنطقة.

وعندما وقعت حرب 1967 كانت إليانور تعدّ شهادة ماجستير في الفلسفة في جامعة في الولايات المتحدة. ولأنها لم تتمالك عاطفتها تجاه هذه البقعة من الأرض وهي تعاني من نكستها، تركت الدراسة قبل إتمامها وعادت إلى لبنان. وقد لمست عاطفة وحسًا بالانتماء مماثلان عند بنتيها عندما وقعت حرب 2006 الإسرائيلية على لبنان. فحين اضطرهما الظروف العائلية إلى مغادرة لبنان مع الأميركيين المرحّلين إلى بلادهم، ذهبتا دامعتي العيون قلقتين على من تركتا في البلد، بل خجلتين من ترك البلد في وقت محنته، في حين كان كثير من اللبنانيين من حاملي الجنسية الأميركية يغادرون البلد بضمير مرتاح وفرح بكونهم أوفر حظًا من سائر مواطنيهم. وكانت ابنة إليانور الكبرى، بتسي، قد ذهبت في طفولتها إلى مصر، ضمن برنامج لتبادل التلامذة بين مصر وأميركا، وعادت اليها في شبابها

للتدرّب على التعليم بعد تخرّجها من الجامعة. وهي متخصصة في التاريخ. اختارت أن تدرس اللغة العربية أثناء تخصّصها الجامعي. ثمّ اختارت مع زوجها أن ينضمّا، لبضع سنوات، إلى هيئة التدريس في مدرسة الجالية الأميركية في بيروت قبل انضمامهما إلى مدرسة الجالية الأميركية في قطر.

وقد التحقت اليانور عند عودهما إلى بيروت، إثر النكسة، بكلية بيروت للبنات كمعلّمة للغة الإنكليزية والفلسفة. وهناك تعرّفت إلى ريتشارد الذي تزوجته سنة 1970 وأنجبت منه بتسي وكاتي وبيتر. بعد زواجهما ذهب ريتشارد وإليانور إلى الولايات المتحدة حيث درّسا في مدرسة داخلية في كونتكت، التحق ريتشارد بعدها بروبرت كوليدج في تركيا، ترافقه إليانور التي كانت حينها منهمكة في رعاية أطفالها. ولما عادا إلى الولايات المتحدة للعمل في مدرسة في مونت فرنون أسسا برنامجًا للتبادل الدراسي بين تلك المدرسة ومدرسة شولتز الأميركية في الإسكندرية. فكانوا يأتون كل عام بعشرة طلاب وبعض المدرسين إلى مصر، حيث يعاين القادمون عن كثب المعالم المختلفة للحضارة المصرية التي سبق أن درسوها في الكتب. وتقول إليانور أن معظم هؤلاء الطلاب أصبحوا في ما بعد متخصصين بشؤون منطقتنا العربية أو عاملين في ما يخصّها أو متحيّزين لها في صراعها الطويل المرير مع إسرائيل.

وفي تسعينات القرن الماضي عاد الزوجان إلى بيروت، حيث عملا في مدرسة الجالية الأميركية. بعد ذلك عملت إليانور ضمن مكتب التنمية في الجامعة الأميركية في بيروت. وفي عام 2001 أصيبت بمرض التصلّب اللويحي، ممّا أجبرها على تقليل ساعات العمل

بحيث غدت موظفة بدوام جزئي في مكتب العميد الأكاديمي للجامعة.

وبعد تفاقم حالتها الصحية وتقاعد ريتشارد من التدريس، أحبت إليانور وزوجها تمضية خريف عمرهما في الربوع اللبنانية، حيث ولدت وترعرعت وأحبت وعملت. لكن عندما استقصيا عمّا تطلبه الدولة من غير اللبنانيين غير العاملين (بما في ذلك المتقاعدين) لبقائهم في لبنان من رسوم إقامة ومن إثباتات لأسباب بقائهم، وجدا أنه من الأفضل لهما الذهاب إلى الولايات المتحدة لتمضية ما تبقّى لهما من العمر، خاصة أن التسهيلات لمن هم في وضع إليانور الصحي، هي أفضل هناك.

قالت لي إليانور قبل ذهابها إنها ستفتقد أصدقاءها في مسقط رأسها وفي الجامعة الأميركية والجبل، وإنها تعزّي نفسها بأن كثيرًا من الأشياء التي ستفتقدها لم تعد موجودة: فالشواطئ غدت غير متوافرة للناس العاديين، والأبنية المرتفعة ذات الطوابق الكثيرة تزداد في الجبال. قالت: "سأفتقد الشجر والشمس والطقس المعتدل، ولن أفتقد زحمة السير الخانقة ولا الكسّارات التي تدمى قلبي كلما رأيتها تنهش جبالنا الرائعة".

لم أجد ما أقوله لصديقتي التي تبعدها الظروف عن بلدها. فقوانين الجنسية في لبنان لا تعترف بمن ولد وترعرع في لبنان أو بمن خدم البلد وأحبه. فشرطا الحصول على الجنسية اللبنانية هما إما التحدّر من أب لبناني (الأم لا يحسب لها حساب في صلة الدم في هذا السياق!) وإما عدم إمكانية حصول الطفل المولود في لبنان على جنسية أخرى. وإليانور غير مستوفية أيًا من الشرطين. وعندما

هاتفتني من المستشفى في الولايات المتحدة، قالت ضاحكة: "يصعب على الإنسان أن يمرض في بلد غريب". ولمّا سألتها عن شهيتها للأكل لأستعلم عن وضعها الصحي أجابتني: "لا بأس. لكن الفطور لا طعم له من غير منقوشة ولبنة وخيار".

عفاف

هي امرأة سورية من عائلة تجمع بين العصامية والعراقة ويتميّز معظم أفرادها بالجرأة في المبادرة وفي تحقيق نجاحات شبه خارقة فيما يتبنونه من مشاريع مختلفة. وعائلة عفاف رأسمالية دون أن ينسى أفرادها الفقراء. أما نظرتهم إلى "العطاء" فهي في الغالب تقليدية شبه دينية، تنيطه بأعمال الرعاية والإغاثة التي تريح ضمائرهم حيال ما يجنونه من أرباح طائلة في التجارة والصناعة وفي قطاع البناء. وبعض عطاءاتهم، مثل توزيع الحليب على الأطفال، يسهم بصورة غير مباشرة في التنمية البشرية. ويظهر أن العائلة قسمت الأدوار بينها، بحيث يكون العمل الإنتاجي المدرّ للربح من عمل رجالها، والأعمال الرعائية في معظمها من مشاغل نسائها.

وعفاف هي الابنة الوحيدة لأسرتها، ولها شقيقان. والدتها من اللاذقية، من أصل ألباني مسلم. تحمل عائلتها كنية "ماميش" التي تعني: "محمد الصغير"، في لغة تلك البلاد. وكانت والدتها وخالاتها من أوائل المتعلمات من النساء في سوريا، إذ الحقهنّ والداهنّ بمدرسة فرنسية للراهبات حتى سن الثانية عشرة، وبعد ذلك كانا ينتدبان معلمات لتعليمهن اللغة الفرنسية في المنزل. ووالدها درس في ليون في فرنسا. وكان أفراد أسرتها يتخاطبون في ما بينهم باللغة الفرنسية.

وقد درست عفاف حتى صف البكالوريا في مدارس داخلية للراهبات. ولم ترد متابعة الدراسة بعد ذلك لشغفها بالعمل في الجمعيات الخيرية، الذي استغرق معظم حياتها ونشاطها. وقد أخبرتني إن الدراسة عند الراهبات في تلك الأيام كانت تشتمل على تعلّم الأتيكيت وتدبير المنزل وأصول التعاطي مع الناس في المناسبات المختلفة، إلى جانب الرطانة باللغة الفرنسية.

كان والدها عصاميًا أسس معامل نسيج في دمشق واسطنبول. ولا يزال مصنعه التركي "المكوك الذهبي" منتجًا حتى زمننا هذا، بعد عقود من وفات مؤسسه. وبسبب نجاح والد عفاف في صناعة النسيج، دعاه طلعت باشا حرب، أبو الاقتصاد الوطني المصري، لتأسيس معامل في مصر حيث أوجد "شركة الغزل والنسيج". وقد أنتجت هذه الشركة أجواخًا ذات جودة عالية، بحيث كانت مؤسسة الأخوة هيلد الإنكليزية المعروفة تشتري أقمشتها وتضع عليها دمغتها. ولأن والد عفاف أحب لبنان، اشترى أراض في البقاع وأنشأ مصنعًا للموبيليا في بلدة شتورة. وأرادت العائلة الإقامة في تلك البلدة البقاعية الصحية المناخ، لكن الحرب الأهلية اللبنانية جعلتها تقرّر العودة إلى دمشق. وقد بنى والد عفاف أول عمارة بشقق متعدّدة في سوريا. ولا تزال بناية "كسم وقبّاني" صامدة في دمشق، حتى بعد سنين على الحرب القائمة في سوريا. ومن رجال عائلة عفاف المبادرين بمشاريع وأفكار كان لها أبعد الأثر في المجتمع، زوج خالتها الدكتور رضا سعيد، مؤسس الجامعة السورية. وقد ساهم مؤخرًا ابنه وفيق سعيد في تجديد أبنية الجامعة. وأدّى بوفيق سعيد اهتمامه الدؤوب بدعم التعليم للمساهمة في دعم صندوق منح طلاب

الجامعة الأميركية في بيروت. ومن رجالات عائلة عفاف شقيق حماها، عبد الهادي الربّاط، أحد مؤسسي "الشركة الخماسية" الشهيرة في صناعة أقمشة وطنية عالية الجودة. وقد أوجد، مع شريك له جمعية "المواساة" الخيرية، وكان من أكبر المساهمين في بناء "دار السعادة" للمسنين.

ولعلّ أكثر نساء عائلة عفاف جرأة في المبادرة في الأعمال الخيريّة، خالتها خيريّة هاميش، زوجة رضا سعيد، التي نشطت في "الاتّحاد النسائي"، حيث كانت مساندة للنضال الفلسطيني ضد الاستيطان الإسرائيلي قبيل تأسيس دولة إسرائيل، أي في منتصف أربعينيات القرن الماضي. وقد ساهمت هذه الخالة في إيجاد جمعية "الإسعاف النسائي" التي بنت "دار السعادة" للمسنين والتي أقامت مبنى "الأيدي الرحيمة" للعجزة. وهي أيضًا من مؤسسي جمعية "نقطة الحليب" التي ما زالت توزّع الحليب على القرى، فتعطيه بالدرجة الأولى للأمهات غير المرضعات، حتى لا يحرم أطفالهن من الغذاء الضروري لنموهم. وبالإضافة إلى الحليب، توزّع الجمعية الملابس وسائر متطلّبات الأطفال المحتاجين. وقد رافقت عفاف خالتها من سن مبكرة في مجمل أعمالها الخيرية. أما والدة عفاف، فعملت أثناء إقامتها في مصر إلى جانب هدى شعراوي في جمعيات "النور والأمل" و"الهلال الأحمر" و"تحسين الصحة". وكانت عفاف قبل زواجها، وأثناء إقامة العائلة في مصر، ترافق والدتها إلى هذه الجمعيات حيث تعلّمت من أساليب العمل ما استخدمته لاحقًا في الجمعيات الخيرية السورية، بعد أن تزوجت وانتقلت للإقامة في سوريا، حاملة معها رغبتها الدائمة في العمل الخيري.

ويبدو أن حظًا استثنائيًا أصاب عائلة عفاف عندما أمّم عبد الناصر المصانع في مصر وفي سوريا. فلأن والدها كان قد أحسن معاملة عمّال مصنعه في مصر وأمّن لهم بيوتًا يسكنونها، تظاهر 4000 عامل مطالبين ببقائه رئيسًا لمجلس إدارة المصنع بعد تأميم كان من المفترض أن يصادر صلاحياته الإدارية مع نزع ملكيته للمصنع. وقد أسفرت مظاهرات العمّال عن إعادة والد عفاف إلى موقعه الإداري، مما خفف من وقع التأميم عليه وعلى العائلة، من الناحية النفسية على الأقل. وتقول عفاف إن والدها هو الوحيد من بين الصناعيين المؤممين في مصر الذي احتفظ بهذا القدر من السلطة على ممتلكاته السابقة. كذلك، فعند تأميم المصانع في سوريا، نجا والد زوجها بفضل خطأ بيروقراطي: إذ كان اسمه عند الحكومة "مفيد" بينما كان اسمه الحقيقي وكمالك للمصانع "وجيه"، مما أربك السلطات فلم تؤمّم ممتلكاته. وتعلّق عفاف على هذا الخطأ وأثره في العائلة بالقول: "هذا الخطأ سترنا".

وقد نشأت عفاف في كنف والدين منفتحين دينيًا وتقليديين متعصّبين أخلاقيًا. فوالدها لم يعترض عندما اختارت والدتها السفور لدى انتقال العائلة إلى مصر، بعدما كانت ملتزمة بارتداء الحجاب (الفيشه) عندما كانوا مقيمين في سوريا. وكان والدا عفاف يصطحبانها في رحلاتهما للاستشفاء في أوروبا، لكنهما ما كانا يسمحان لها بارتياد النادي في القاهرة إلا بصحبتهما أو صحبة أحدهما. وقد التقت عفاف بمن أصبح فيما بعد زوجها في حفل غداء عائلي صيفي في سوريا، حيث كان كل منهما برفقة عائلته. وواظبت عائلتها على قضاء أشهر الصيف في الزبداني في سوريا،

حيث كانت تملك ثلاث فيلات، حتى بعد الانتقال إلى الإقامة في مصر. وفي إحدى المناسبات، استضافت العائلة رئيس الجمهورية السورية في واحدة من هذه الفيلات.

ورغم كون عفاف متعلّمة أكثر من زوجها، فهي تقول عنه إنه دماغ اقتصادي درجة أولى، ممّا يسّر له النجاح في التجارة والصناعة كما في المضاربات المالية. فهو ابتدأ بتجارة الأقمشة وهو في الخامسة عشرة من عمره، وبعد ذلك انتقل من المتاجرة بالأقمشة إلى تصنيعها. ومن القواعد التي دأب على تبنّيها عدم تجميد المال واستخدامه في المشاريع الحيّوية المنتجة. أما هي فكانت تحب أن تشتري بمالها أراضي، بنى عليها زوجها فيما بعد، ممّا ضاعف ربحهما من هذين النوعين من الاستثمار.

وقد استخدمت عفاف مواهبها التجارية في زيادة ما تنفقه في طريق الخير. فكانت عندما تذهب إلى مصر لزيارة والديها ويعطيها والدها مبلغًا من المال للجمعيات، تشتري من مصر فضيات وجلابيب وغير ذلك تبيعها في البازار في سوريا، فتضاعف بذلك المبلغ الذي كان أبوها قد أعطاه لها من أجل الجمعيات الخيرية. وكانت عفاف تقوم بهذه النشاطات التجارية رغم اعتراض شقيقها الذي كان يرفض أن تكون شقيقته من "تجّار الشنطة"، ممّا كان يضطرها إلى إخفاء مشترياتها وإدخالها إلى منزل الوالدين في مصر عبر المطبخ، حتى لا يراها الشقيق.

إبتدأ شغف عفاف في العمل في الجمعيات الخيرية، في سن الثانية عشرة عندما تابعت دورة في الإسعافات الأوليّة. وقد كانت لاحقاً تطبخ مع سيدات أخريات ويوزعون الطعام على الفقراء.

وقد أسست مع السيدة خاني جمعية "العائلات المستورة". وحتى الآن، وهي في العقد التاسع من عمرها، لا تزال متحمّسة ومندفعة في المساهمة في كل ما له علاقة بالعمل الخيري. تقول إن كل من يخبرها عن جمعية تساعد الفقراء يجدها حاضرة لإعطائها كل ما تقدر عليه من جهد. وهي تنشط من مكان إقامتها الحالي في بيروت لمساعدة السوريين، من نازحين إلى لبنان أو تاركين ديارهم إلى أماكن آمن منها في سوريا. وفي السنوات الأولى للحرب السورية كانت تقضي أربعة أيام من كل أسبوع في سوريا. أما الآن، بعدما رأت جثثًا في الطريق وأتعبها العمر والألم على ما يصيب بلدها، فهي تقوم بما تقدر عليه. وعندما زرتها كانت في صدد إرسال ألف بطانية إلى نازحين في سوريا، قبل حلول فصل الشتاء. وهي تشتري الأقمشة والتطاريز وتفصّل وتصمّم شالات تطلب من نساء إنجازها لتساعدهن في إنتاج مدخول يعينهن، ثم تهدي الشالات أو تبيعها ليذهب ريعها للجمعيات.

ومن الظروف التي ساعدت عفاف على الانخراط في العمل الخيري منذ كانت شابة، إصرار والديها على ألاّ تسكن مع زوجها وحدهما. فإقامتها مع حماتها وفّرت لها خير سند في تحمّل المسؤوليات العائلية. فكان وجود حماتها في البيت يسمح لها بالذهاب إلى جمعياتها كل صباح في حوالى التاسعة والنصف، وبقضاء سحابة نهاراتها في العمل الأحب إلى قلبها. وعندما كان زوجها يتأفف أو يضيق بغيابها كانت حماتها تلهيه بأمر أو سواه حتى ترجع زوجته إلى البيت. كذلك كانت الحماة تتحمل مسؤولية البيت والأولاد عندما تذهب عفاف لزيارة أهلها في مصر.

تختصر عفاف وصف حياتها بالقول: "كانت حيـــاتي جميلـــة. عشت أحلى عيشه". وقد تيسّر لي رصد جوانب من عيشتها الجميلة إذ شهدت تعاطي زوجها الراقي والمحب معها ورأيت إحدى بناتهـــا تقبّل يدها وتطلب رضاها قبل سفرها. فما شهدته من حيـــاة هـــذه العائلة الكريمة كان نموذجًا للإغراق في التقيّد بالأصول التقليديـــة في الحفاظ على الأواصر العائلية وتعزيزها، دون أن يحدّ هذا التقيّد مـــن إبداعية أفراد العائلة أو يقلّل من تعبير كل فرد فيها عمّا يرتئيه ويحب القيام به. ومن الأمثلة على هذا أن ابنة عفـــاف الوســـطى تلتـــزم بالحجاب، بعد أن سبق أن تخلّت عنه جدّتها وسائر نساء العائلة، وأن العائلة تحترم التزامها هذا وتتقبّله. أما التقليد العائلي الذي حافظـــت عليه هذه الابنة وبناتها السبعة فهو ما أخذنه عن أسلافهن من نشاط دؤوب على عمل الخير.

ياسمين (اسم مموّه)

عرّفتني بها صديقة مشتركة. وعندما ذهبت لزيارتها، وجدت سيدة سعيدة مكتفية، وجهها حنون مرحّب، ابتسامتها حاضرة فرحة، وبيتها أنيق من غير فذلكة، تزيّن جدرانه لوحات رسمها زوجها، العالم الفنان. أخبرتني بفخر عن إنجازات ابنتيها في الدراسة والموسيقى والسباحة، وعن مواهبهما وعمّا قامت به من أجلهما مسهّلة لنيلهن كل هذه الجوائز وللحصول على كل تلك الكؤوس، ومن أجل أن تصبح ابنتها الكبرى وهي في السادسة عشرة من عمرها أول لاعبة بيانو في سوريا تعزف كونسرتو منفردة.

قلت لنفسي لأول وهلة، ماذا سأكتب عن هذه السيدة السعيدة الحظ سوى أن اللّه أغدق عليها كثيرًا من عطاياه دونما عناء منها ولا تعقيدات تجعل حياتها قصّة تروى؟ وفي خلال حديثي معها أخذت جرأتها وكفاحها وحبها الكبير لمساعدة من حرمتهم الظروف من كلما أغدقته عليها تتجلّى لي تباعًا. ظهر لي أن ما تمتلكه ياسمين من عناصر الرغد والهناء العائلي لم تحصل عليه بمجرّد الحظ والصدفة، بل بالجد والتدبير والكثير الكثير من التعاطف والعطاء وبفضل طبعها الصافي المرح الذي يجعلها تحمل الصعاب وكأنها ريشة تتلهّى باللعب بها. وذكّرني ما رأيته من أمرها بالآية القرآنية الكريمة: "من يقرض اللّه قرضًا حسنًا يضاعفه له ويغفر له..."وبالقولين الشعبيين: "من

جدّ وجد" و"اللّه مع الطيبين". فياسمين التي تبدو فرحة بما أغدقه اللّه عليها، ليست في الواقع مجرّد متلقية لشلال من حسن الطالع. فهي لم تأل جهدًا في حياتها العملية كما في خدمة عائلتها. وإلى جانب هذا وذاك، دأبت على بذل كل الجهد في مساعدة المحتاجين، في سوريا وفي لبنان وحتى في كندا.

عندما التقيتها كانت منهمكة بمساعدة السوريين النازحين إلى لبنان هربًا من الصراع الدامي المحتدم في بلدهم. قالت لي إنها زارت النازحين في شهر تشرين الثاني عام 2012، فوجدت الأطفال شبه عراة. ومنذ تلك الزيارة تعاونت مع ثلاث سيدات سوريات أخريات مقيمات في لبنان للعمل على ما يقدرن عليه لمساعدة النازحين. جمعت السيدات الأربع مالاً من العائلات السورية الموسرة المقيمة في لبنان، وهي كثيرة، واشترت للأولاد ثيابًا وأحذية وللأسر صوبيات للتدفئة وحرامات صوف وفرشات ومواد غذائية، وزّعت عليهم دوريًا. ولأنها ورفيقاتها وجدن أن هذه العائلات بحاجة إلى حمّامات قدّموا عرضًا للتمويل إلى الاتّحاد الأوروبي وحصلوا على المال اللازم. وقد ساعدهم زوج ياسمين اللبناني في كتابة العرض، لكونه متمرّسًا في عمله في الأمم المتحدة في تقديم العروض للتمويل. وبهذا المال، وبمساعدة بعض الجمعيات الخيرية، كلفت السيّدات كلية الهندسة في الجامعة الأميركية بناء حمامات في مراكز عديدة للتجمعات السورية النازحة.

أثناء زيارتي لها، جيء لها بأكياس تحتوي على ثياب وأغطية من متبرعين لم يتركوا اسماءهم. أخبرتني أنها تقضي كثيرًا من أيامها في فرز ما يرسل اليها وفي الإشراف على غسل الثياب وكيّها لإعدادها

للتوزيع. وفي لقاء آخر لمست كم هي مقدامة في تجنيد أي صلة أو طاقة للمساعدة في الغاية النبيلة التي لا تكاد تغيب عن عينيها، فهي تحثّ وتسهّل وتسرع حتى لا تضيع أي فرصة على المحتاجين.

وتعتني ياسمين كثيرًا بتوفير الفرص لمتابعة الأولاد النازحين دراستهم. وهي تتعاون لهذه الغاية مع جمعيات شبابية مثل "جسور" Lebanese Active Youth (LAY) & Unite Lebanon Youth Project كما مع Save the Children

فبفضل هذه الجمعيات والأفراد يتابع عدد من الأولاد السوريين مناهج الدراسة المقرّرة في بلدهم، كي لا تضيّع عليهم سنوات النزوح فرصة متابعة تحصيلهم، وتتابع أعداد أخرى برامج تقوية تمكّنهم من الالتحاق بالمدارس الرسمية اللبنانية، بعد أن سمحت الدولة اللبنانية بقبولهم في مدارسها. ومن المدارس التي تتعاون ياسمين معها لتقدّم برامج تقوية للتلاميذ، مدرسة في مجدل عنجر تستقبل الأولاد بعد الظهر ومدرستان أخريان في دير زنون في البقاع. وعندما علمت ياسمين أن ما يتقاضاه المعلّم عن برنامج التقوية لا يتعدّى المئة دولار في الشهر، أخذت على عاتقها توفير رواتب رديفة لهؤلاء الأساتذة. وقد استغربت زميلاتها التزامها هذا وساءلنها: "من أين ستأتين بهذه الرواتب؟" مضيفات: "تيسّرت الرواتب هذا الشهر، لكن من أين ستحصلين عليها في الشهر القادم؟" فأجابتهم: "في حياتي لم أخف من قلّة المال من أجل الخير. فكلّما سعينا تسابق الخيّرون لتلبيتنا".

لكن ياسمين لا تتّكل فقط على المحسنين في تمويل التزاماتها لعمل الخير، فكثيرًا ما تبتدع مشاريع لجمع المال المطلوب. ومن هذه المشاريع، أنها اشترت مواد للرسم ووزّعتها على أطفال سوريين،

فرسموا لوحات معبّرة عن تجربتهم. ثم أقامت معرضًا لرسومهم دعت اليه العائلات السورية الموسرة، فبيعت معظم الرسوم، ممّا جمّع حوالى خمسين الف دولار تكفي للرواتب وسواها من الاحتياجات لردحة من الزمن.

وحياة ياسمين الزوجية لم تكن دائمًا رغدة تترك لها كل المجال لشغفها بالعمل الخيري. فهي عاشت الفترة الأولى من زواجها في انكلترا، حيث كان زوجها يتابع تحصيله العلمي. وكان عليهما تدبّر أمرهما من منحته الدراسية المتواضعة. وبعد عودهما إلى سوريا وولادة ابنتيهما، كانت ياسمين تدأب على القيام بأقصى ما تتطلّبه واجبات الأمومة خدمة لابنتين طموحتين، فكانت تساعدهما في تلخيص مواد الحفظ المطلوبة في المنهج السوري وترافقهما إلى دروس الموسيقى والرياضة التي أخذت حيّزًا كبيرًا من وقتهما وبالتالي من وقت والدهما. وإلى جانب واجباتها كأم وربّة أسرة، تقلّبت ياسمين في وظائف عدّة، رغبة منها في تحسين الأوضاع الماديّة لعائلتها الصغيرة.

فلدى عودتها مع زوجها إلى سوريا، عملت ياسمين في شركة للطيران. بعد ذلك التحقت بالعمل الحرّ في شركة يملكها أهلها. وقد عانت كثيرًا في عملها هذا عندما استهدف بعض المتنفذين السياسيين الشركة ممّا أدّى إلى فسخ عقود كانت أجرتها مع زبائنها وإلى ضياع أرباحها ومعظم رأس مالها. وقد هدّدت السلطات المتواطئة أخيها ممّا اضطرّه إلى الهرب، فرست على ياسمين مهمّة تصفية كل العالق من أمور الشركة الخاسرة. لكن هذه التجربة الصعبة لم تفت من عضد ياسمين. فما أن انتهت من مشاكل الشركة حتى أنشأت مع إحدى

صديقاهما شركة لصناعة الثياب الجاهزة. لكن إصرارهما على جـودة ما تنتجانه قلّل من قدرهما على الربح، فصفّتا الشركة بعد شهور من تأسيسها. بعد ذلك عملت في مؤسسة حكومية للبحـوث، حيـث عيّنت مسؤولة عن التعاون العلمي مع الدول الأوروبية وعن تجهيـز المختبرات العلميّة في سورية. وقد أهّلها لهذه الوظيفة كونها متملّكـة من اللغتين الفرنسية والإنكليزيّة: الأولى تلقّتها في مدرسة الراهبـات والثانية عمّقت إلمامها بها أثناء متابعة زوجها الدراسة في انكلترا.

وإلى جانب تقلّبها في الحياة العمليّة التي لاقت فيها النجاح كمـا الفشل واكتسبت منها خبرات عديدة، لم تتوقّف ياسمين أبـدًا عـن أعمالها الخيريّة. تقول إنها في شغفها بالنوع الأخير من العمل تـأثرت بوالدها التي كانت تشتري أثواب القماش الـدافىء وتصـنع منـها بيجامات توزعها على الأطفال المعوزين خوفًا عليهم من برد الشـتاء. فهذه الوالدة الطيبة كانت مصابة بالأزما التي كانت تعذّبها عندما تبرد ليلاً. ومعاناها حملتها على العمل على محاولة درأ البرد عن الآخـرين، خاصة الأطفال. واقتداء بهذه الأم الخيّرة، غدت ياسمين عضوة نشـيطة في جمعيتي "نقطة الحليب" و"القلب المفتوح" في سوريا. وكانت تشترك مع سيدات أخريات ليومين من كل أسبوع في مطبخ يعددن فيه الطعام المغذي لدور الأيتام. وحتى عندما ذهبت مع العائلة إلى كنـدا طلبًـا للجنسية، كانت ياسمين من ضمن سيدات تعدّ كل منـهنّ طبخـة في الأسبوع لتوزّع في الجامع على المحتاجين. وهي علّقت على هذا الجزء من روايتها قائلة: "الفقر دائمًا موجود، حتى في كندا".

وبما أن زوج ياسمين كان موظفًا في بعثة الأمم المتحـدة، الـتي تنقلت بين العراق والأردن ولبنان، فقد انضمت ياسمين إلى نقابة نساء

الأمم المتحدة التي تعنى بالأعمال الخيرية. وقد جمعت النقابة المال لمساعدة دار العجزة الإسلامية في الحصول على آلة تشخيص عن طريق الموجات فوق الصوتية ولتوفير سيارة إسعاف لجمعية الصليب الأحمر وللعمل على إيجاد الروابط وتعزيزها بين الأطفال الفلسطينيين وأطفال دار الأيتام الإسلامية وأطفال مؤسسة محمد خالد الخيرية. بالإضافة إلى هذا، ساعدت ياسمين سيدة تركية في تأسيس دار للمسنين في مخيم برج البراجنة وساهمت في استمرارية أعمال الدار. ويؤم هذه الدار يوميًا حوالى خمسين مسن ومسنّة، يقضون نهارهم في رياضات خفيفة هيأت السيدات معدّات لها وفي لعب الورق والنرد ومشاهدة التلفزيون. وهناك تقدّم لهم كل يوم وجبة غداء صحية ساخنة. بالإضافة إلى هذا، تساعد الجمعية هؤلاء المسنين في توفير ما يلزمهم في بيوتهم من تجهيزات تسهّل لهم أمورهم الحياتية.

غادرت ياسمين بفكرة أوضح عن مصدر كل هذه السعادة والرضى البادين على محياها والظاهرين في كلامها. فهي تبدو ناعمة بالغذاء الصحي عندما تساهم في إيصاله إلى المعوزين من اطفال ومسنين، وتبدو لائذة بدفء الكنزات والجزمات التي تؤمنها للأطفال في مواسم البرد، ومرتاحة إلى كونهم يتابعون دراستهم فلا تضيع عليهم فرصة الإعداد للمستقبل. فيظهر انها تستمدّ فرحًا من كل عمل تسدّ فيه حاجة أو تشعر فيه من هم في أوضاع صعبة أنهم ليسوا وحدهم وأن الدنيا لا يزال فيها الكثير من الخير والتعاضد الإنسانيين.

كذلك يبدو أن ياسمين تستمدّ الرضى والفرح من كونها لا تنسى نعم اللّه عليها. فهي لا تنسى أنها زوجة سعيدة لرجل موهوب، وأم وجدة لعائلة لا يستكين طموحها. وتبدو شاكرة كونها

خاضت غمار التجربة الناجحة كما الفاشلة فاغتنت تجربتها بالإثنتين. تجدها تنظر إلى الحياة وناسها نظرة من هي في قلب المجتمع وفي محور أوجاعه ومسؤولياته وصعابه كما هي في غمرة أفراحه ونعمه. وقد سهّل لها التعاطي مع الآخرين ما عاشته من تجارب في قطاعات وأحوال مختلفة، وأعطتها الخبرة قدرة على إقامة الصداقات والعلاقات التي تفيد منها في أعمالها الخيّرة الكثيرة. وقد أخبرتني السيدة التي عرّفتني بها والتي كانت زميلتها في المدرسة أن ياسمين كانت الصلة التي جمعت بين زميلات صفّهما، بعد أن فرّقتهن عقود كثيرة. وأخبرني زوج ياسمين، أن في اليوم الذي تلى وصول عائلتهم إلى كندا، دق باب غرفتهم في الفندق امرأتان من صديقات ياسمين الكثيرات عرفن بالصدفة عن وصولها إلى كندا فأتين يزرنها، يحملن معهما دفئًا سوريًّا لم تطفىء الثلوج الكندية جذوته.

مبادرات

تكاد النظريات والآراء السائدة تعتبر التفكير العملي المستقل بعيدًا عن طباع النساء، مع أن الكلام على مكرهنّ يحمل معنى الابتكار والذكاء، ولو بمعنى سلبي. وفي الفلسفة العربية القديمة كان معنى العقل موازٍ لمعنى الاحتيال من أجل التدبير. لكن الفلسفة الغربية جعلت العقل تحليلياً واستنباطياً وجعلته من صفات الذكورة، مبقية العاطفية والانفعال ضمن ما ينسب إلى الإناث. وسواء أكان الدافع عقلانيًا أم عاطفيًا، فنساء السير اللاحقة ملكن من الشجاعة والمثابرة ما حققن به النجاح في مبادرات اجترحنها وثابرن على تحقيقها.

نور (إسم مموّه)

يفاجؤك حديث نور عندما تصف مسار حياتها كما يدهشك وأنت في المدينة أن تتنشّق نسمة هواء نقيّة مشبعة برائحة الأعشاب البكر. فهي تتكلّم بشغف عن جماليات التراث وحكمته ورونق زمنه وببعض الملل عن المرّتين اللتين تزوّجت وطلقّت فيهما. وهي تروي عن الأصدقاء وعمّن آذاها عائليًا أو سياسيًا وكأن هؤلاء جميعًا بعض موزاييك الحياة التي تحب وتتقبّل بكل طيبة خاطر.

ونور عملت سنين طويلة على التعريف بالتراث وإنشاء متاحف وتدريب حرفيات وحرفيين ومساندة بعضهم والتعلّم من سواهم. وكان معظم عملها تطوّعي لأن توجّهها ومزاجها كانا لخدمة أمور عامة وطنيّة وتراثيّة. وفي هذا السبيل درست علم الآثار والتاريخ والفنون والحرف القديمة.

والدها صناعي وصاحب بنك من وجهاء منطقة المزرعة والطائفة الأورثوذكسية في بيروت. كان أخوه سياسيًا معروفًا بوطنيته وبعده عن التعصّب الطائفي. وممّا يقال بتندّر عن والدها وأخويه أنهم كانوا رجلاً واحدًا يدعى: "نعيم نديم نسيم". والدتها مصرية بروتستانتية من أصل لبناني ومولودة في مصر في محافظة طنطا. تعرّف والداها على بعضهما في الإسكندرية. وكانت أمها حينئذ في التاسعة عشرة من عمرها وكان أبوها يكبرها بثلاث عشرة سنة. تزوجا

وعاشا في بيروت حيث رزقا بثلاثة صبيان ونور، ابنتهما الوحيدة وثاني أولادهما.

بعد شهرين غير سعيدين في روضة أطفال في منطقة المزرعة نقل الأهل نورًا إلى الكوليج بروتستانت، المدرسة التي انتسبت اليها من طفولتها وحتى التخرّج. وبعد تخرّجها، تابعت نور دراستها في الجامعة الأميركية في بيروت حيث تخصصت في التاريخ القديم. وما كادت تنهي البكالوريوس حتى تزوجت من رجل مصري الجنسية وانتقلا إلى بلجيكا حيث مكثا خمس سنوات. وفي بلجيكا، كان زوجها طالب دكتوراه في الاقتصاد، فرع الشؤون المالية وكانت هي أيضاً طالبة جامعيّة تدرس علم الآثار وتاريخ الفنون.

عاد الزوجان إلى مصر بعد وفاة عبد الناصر لاستعادة بعض ما كان أمم من ممتلكات العائلة، وبقيا هناك خمس سنوات. وأثناء إقامتهما في مصر، انتسبت نور إلى الجامعة الأميركية في القاهرة حيث أعدّت شهادة ماجستير في الفن والعمارة الإسلاميين. وقد أحبت نور الأجواء المصرية الأصيلة والتراث المصري وكوّنت مع أهل البلد صداقات كثيرة، من أهمها صداقتها مع شهيرة محرز، مالكة الشقة التي سكنت وزوجها فيها. وقد عرّفتها شهيرة على المهندس حسن فتحي،الذي بنى قرية استوحى هندستها من التراث المصري القديم، فكان الثلاثة يتبادلون المعلومات ويتحدثون عن مميزات فن العمارة الإسلامي وعن التراث ومرتكازاته العملية الملائمة لأسلوب حياة سكان البلد. وقد جمع بين الصديقتين حبهما للمنتجات التراثية. وكانت شهيرة تجمّع الثياب والمجوهرات المصرية القديمة وتعيد تأهيلها للعرض أو للاستخدام، فتعلّمت نور الكثير منها وأفادت ممّا تعلّمته فيما بعد، في عملها مع الحرفيين في لبنان.

وأثناء إقامتها في مصر نشبت الحرب الأهلية في لبنان (1975-1990) مما سبّب لنور قلقًا على بلدها وأهلها. وبسبب الحرب غـــدا صعبًا عليها احتمال مواقف عائلة زوجها السياسية المخالفة لآرائهـــا، كتعصّبهم ضد الفلسطينيين وضد الفقراء. وغـــدت تســـميتهم لهـــا بـــ "الشيوعية" و"أرملة ياسر عرفات" تستفزّها وتؤلمها.

في هذه الأجواء، قرّرت نور وزوجها الانفصال عن بعضـــهما لسنة، على سبيل التجربة، فعادت نور إلى وطنها الجـــريح. وبعـــد انقضاء السنة قررا المضيّ بالطلاق.

كانت عودة نور إلى لبنان عن طريق مطار دمشق بسبب إقفال مطار بيروت في ذلك الوقت. وقبل سفرها اقترح عليهـــا عمّهـــا أن تذهب في سيارة أجرة من دمشق إلى بيروت الشـــرقية (المســـيحية) وتتصل من هناك بشقيقها ليأخذها إلى البيت، حتى لا تتنقّل وحدها في بيروت الغربية (المسلمة). لكن نور لم تعمل بنصيحته، وذهبت توًا إلى القسم الغربـــي الذي الفته من العاصمة، في سيارة صـــدف أن جميع ركّابها الآخرين كانوا من المقاتلين. وفي طريقها إلى بـــيروت، شاهدت دخول قوات الردع السورية إلى لبنان واستقبال اللبنـــانيين لهم بالزهور والترحاب.

في بيروت، وجدت نور عائلتها في وضع مالي صعب، فكـــان عليها العمل لإعالة نفسها. التحقت بمدرسة لويز فاغمان كمعلمـــة تاريخ وجغرافيا وبمدرستها القديمة، الكوليج بروتستانت، كمسؤولة عن المكتبة. وقد أصابت الحرب عائلة نور إصابات مباشرة، فقتـــل ابنها الأوسط، الذي كان بحق "واســـطة العقـــد" وخـــير الأبنـــاء، واختطف كل من الابنين الآخرين: واحد اختطف على طريق شملان

والآخر خطف من منزله، أمام عيون أمه وزوجته. لكن حظ المخطوفين كان جيدًا، فخلّص ياسرعرفات واحدًا منهما، وأنقذ الثاني من موت محقق ميكانيكي سيارات درزي كان يعرف الشاب الذي سبق له أن أصلح سيارته. وكانت قد نشأت بين الميكانيكي وشقيق نور صداقة أكّدت للميكانيكي أن ميول الشاب السياسية وطنية واشتراكية مما دعاه للدفاع عنه ولمخاطبة زملاءه المقاتلين قائلاً: "أقتلوني معه"، فأطلق المقاتلون الشاب وعاد إلى أسرته.

ورغم الأثمان الباهضة التي تحمّلتها عائلة نور، بقيت العائلة على سياستها الوطنية وبقيت مقيمة في بيروت الغربية ومؤمنة بالتعددية الدينية لمواطنين يجمعهم بلد واحد. وخلال الحرب تزوجت نور بشاب مسلم كان صديقًا لأحد أخويها، وأنجبت صبيين بعد أن ولدت بكرها طفلة ميتة بسبب تأخر الطبيب في توليدها. عاشت نور مع زوجها الثاني اثنين وثلاثين سنة انتهت أيضًا بالطلاق، رغم التقارب في اهتماماهما وفي وجهات نظرهما السياسية والاجتماعية والثقافية. وكانت فترة زواجها الثاني وما بعدها غنية بالمشاريع المتشعّبة، منها ما ساعد الفقراء ومنها ما نهض بتراث بلدها أو أضاء عليه.

فبسبب احتلال إسرائيل لجنوب لبنان (1978–2000) نزح كثير من الجنوبيين إلى بيروت، فانتسبت نور للتجمّع النسائي الديمقراطي الذي ساعد النازحات بتعليمهن التطريز الذي درّ عليهنّ دخلاً كانت عائلاتهنّ في أمسّ الحاجة اليه. فكانت نور تفصّل النماذج وتضع التصاميم ثم تعطيها للنساء ليطرّزنها. وعندما عرض ما صنعته النساء في القاعة الزجاجية لوزارة الاقتصاد لاقى نجاحًا وإقبالاً كبيرين ممّا لفت النظر إلى رهافة ذوق نور وسعة اطّلاعها، فطلب منها المطران

غريغوار حداد العمل مع "الحركة الاجتماعية" في المجال نفسه. لكن المطران أرفق طلبه بشرط أن تتخلّى عن التجمّع النسائي الديمقراطي بسبب الصبغة الشيوعية التي طبع بها. رفضت نور الشرط مذكّرة إياه بلقبه "المطران الأحمر" ومخبرة إياه بأنها لم تحصل بعد على "شرف الانتساب للحزب الشيوعي"، فتراجع المطران عن شرطه وعملت نور معه ومع بيار قساطلي في إيجاد "الحرفي اللبناني" للصناعات التراثية، الذي ما زال مزدهرًا حتى اليوم. وفي عملها هذا تأثّرت بالتراث المصري الذي أدخلت بعض خصائصه على التراث اللبناني.

شجّعها زوجها كثيرًا في عملها هذا كمديرة للإبداع والانتقاء في "الحرفي اللبناني"، وعملت بجد حتى أثناء حملها بابنها الثاني. ومن نشاطاتها في تلك الفترة الانضمام إلى بعثات حفريات الآثار التي كانت الجامعة الأميركية تقوم بها إلى تل الغسيل في سوريا وإلى أسواق بيروت القديمة وإلى غيرهما من الحفريات.

وكانت نور منذ طفولتها تقوم بتجميع القطع التراثية التي تجدها في أماكن مختلفة محاولة سبر تاريخها وكيفية صنعها ووظائفها العمليّة. ولطالما استنفذت مصروف الجيب (الخرجيّة) الذي كان والداها يمنحونه لها في شراء هذه القطع. فقد أحبت الحياة القروية وأجواء الماضي المريحة وأحبت الذهاب إلى معمل جدها لمياه الشرب في النعص، حيث لا كهرباء ولا رفاهيات حديثة وحيث تصنع النساء الخبز المرقوق على الصاج ويعددن أنواع الأطعمة من كشك وقورما ومربيات وسواها لمونة الشتاء التي تحفظ من غير تبريد ويعملن جماعيًا آخذات فسحات للمحادثة والتسلية. وكانت نور تسعى لجمع المعلومات والخبرات المتعلّقة بهذا النوع من النشاطات بين مصر

وحلب ودمشق و"سوق العتق" في البسطه في بيروت. وقد رفد نشاطاتها هذه انضمامها إلى جمعية أصدقاء متحف الجامعة الأميركية في بيروت، حيث ساهمت في النشاطات المختلفة للجمعية، كالرحلات إلى الأمكنة الأثرية في بلدان عدّة وتعريف صغار اللبنانيين بتراثهم عن طريق ورشات أشغال يدوية معدّة خصوصًا لهم.

وقد طلبت اليها أمينة متحف الجامعة الأميركية أن تصنّف المجموعات التراثية التي جمعتها على مرّ السنين لتعرضها في المتحف، فقررت نور أن تفرز المجموعات إلى تراث مديني وتراث ريفي وتراث بدوي. وساعدها مهندس ورسام على تقديم المجموعات وعرضها. وكان العرض ناجحًا جدًا. وبسببه عرض عليها مدير بنك عودة مهمّة إنشاء معمل للصابون التراثي في مدينة صيدا، فقامت بأبحاث حول الموضوع، متنقلة بين حلب وطرابلس. وجمعت المعدّات اللازمة وأشرفت على إنشاء المعمل وكتبت كتالوجًا عنه. ولا يزال معمل الصابون في صيدا من أهم المعالم التي يقصدها السيّاح والزائرون في تلك المدينة.

وانتسبت نور أيضًا إلى "المؤسسة الوطنية للتراث" التي رمّمت المتحف الوطني في بيروت وأعادت تنظيمه كما نظّمت المعالم الأثرية لنهر الكلب. وكانت نور تذهب يومين في الأسبوع لزيارة قرى في البقاع وعكار حيث أهداها القرويون أشياء وباعوها غيرها. فكانت لدى عودتها من هذه الزيارات تصرف أيامًا في التفنيد وتدوين ما تعلّمته او اكتشفته. ومن حصيلة زياراتها هذه ما وجدته في قرية تربل البقاعية من بيوت تراثية مصنوعة من الطين، فحوّلت أحدها متحفًا وضعت فيه ما أعطاه لها أحد أبناء الضيعة من معدات قديمة للزراعة

كان لا يزال محتفظًا بها. وأسست مع جمعيتها في تلك الضيعة حانوتًا صغيرًا لبيع أشياء تراثية. كذلك وجدت في بلدة رأس بعلبك معصرة قديمة لا تزال صالحة للاستخدام لصنع الدبس من الزبيب. وقد أدهشها تدبير القدماء في تلك القرى وتعلّمهم من بعضهم بعضًا عندما علمت أن من علّمهم صنع هذا النوع من الدبس كان رجلاً من معلولا السورية. فالرجل أتى إلى رأس بعلبك وعلّم أهلها كيفية صنع الدبس من العنب المنشّف (الزبيب) الذي لم يتسنّى لهم بيعه. فكانوا يضعون زبيب كل عائلة في كيس عليه اسمها، وعندما يحلّ الخريف كانوا يضعون الزبيب في اجران، مع قليل من الكلس والماء والبلان، ويغلونه حتى يغدو دبسًا يكون بمثابة ما تحتاجه العائلات من الحلو أو السكر لباقي السنة. وتنوي نور إعداد كتيّب عن هذا الموضوع.

وفي تنقلها بين القرى، وجدت نور ضيعة يصنع أبناؤها معدات منزليّة من القش، ووجدت أخرى في عكار اسمها "عيدمون" امتهن ابناؤها المسلمون والمسيحيون صناعة النسيج والسجاد التركماني الشبيه بما اشتهرت به قرية الفاكهة البقاعية. وقصّة انتقال هذه الحرفة من عيدمون إلى الفاكهة ثم عرسال تشبه قصّة انتقال صناعة الدبس من الزبيب من سوريا إلى تربل. فالقصة التي ترويها نور أنه عندما تزوجت إحدى بنات عيدمون إلى قرية الفاكهة في البقاع الشرقي علّمت الحرفة لأهل الضيعة، ومنهم تعلّمها أهل بلدة عرسال المجاورة.

تروي نور عن اكتشافاتها بشغف واهتمام كبيرين. تقول عن نفسها إنها "مجمّعة" تحب الأشياء القديمة والقروية، وهي تحب أيضًا إجراء المقابلات مع أهالي القرى وغيرهم من بسطاء الناس. ولديها مجموعة كبيرة من المقابلات التي لم تقرّر بعد ما ستفعله بها.

منى

أصاب والد منى اليتم وهو في الخامسة عشرة من عمره، وكان الأكبر بين سبعة أولاد. أرسلته والدته إلى نيجيريا، حيث كان لهم معارف وأقارب، وطلبت منه أن يسعى في طلب رزق أخوته. عمل هناك صبيًا في مكتب، ولمّا جمع بعض المال فتح دار سينما، ثمّ أسس مع آخرين شركة تصدير واستيراد، وفتح اللّه عليه، وغدا قادرًا على مساعدة والدته بما تتطلّبه تنشئة أخوته من مال.

وبعد أداء مهمّته تجاه إخوته، رجع الشاب إلى لبنان بحثًا عن عروس. كان عندئذ في الثلاثين من عمره وأحواله الماليّة جيّدة، فتقدّم بطلب يد ابنة عائلة عريقة في السادسة عشرة من عمرها، ووافق والداها. وفور إتمام الزواج، أخذ الشاب عروسه معه إلى أفريقيا، ومنذ ذلك الحين حتى نهاية العمر بقي واقعًا في غرامها. رزق الزوجان بابنتين وصبيين، منى ثانيهم، بعد شقيقتها أمل. ولا تزال منى تتذكر نشأتها الإفرقية بكثير من الشوق والحنين.

ومنذ طفولتها، كانت منى شغوفة بالحيوانات على أنواعها. ولعلّها تأثرت في ذلك بوالدها، الذي كان يحب العصافير، وبمربيتها الإفريقية المولعة بالحيوانات. فكان لمنى الصغيرة قرد تلعب معه وقطة تحب أن تأكل معها تحت الطاولة. وكانت تروي لوالدها حكايا خيالية عن الغزال وسواه من مخلوقات غابات أفريقيا ممن أشعلوا خيالها وأيقظوا

عاطفتها الحانية وخيالها الجامح نحو أنماط من العيش غير التي تأنس اليها عادة صغيرات العائلات المتقيّدة بالمألوف والمتوقّع. وكانت منى تغوى تسلّق الأشجار وتحب كثيرًا مربيتها وتتكلم معها لغة السكان الأصليين بطلاقة تفوق إلمامها باللغة العربية (لغة والديها) وباللغة الإنكليزية التي كانت لغة التعاطي بين والديها والعمّال من أهل البلد الأصليين.

ولم تدم طفولة منى الأفريقية السعيدة إلى أبعد من سن السادسة، حين أرسلها والداها إلى مدرسة داخلية للراهبات في بيروت. فقد دأب معظم المغتربين الشيعة من أبناء لبنان الجنوبي على إرسال أولادهم للدراسة في مدارس بلدهم الأم، بينما يبقى الوالدان في أفريقيا طلبًا للرزق. وفي لبنان قاست الطفلة كثيرًا لعدم معرفتها اللغة العربية ولا اللغة الفرنسية، التي كانت المدرسة تصرّ على ألاّ يتكلّم الطالبات بغيرها. وكانت الراهبات يضربن التلميذات بالمسطرة على أيديهن لأقل سبب ويرغمن الفتيات على أكل سندويش الموز والزبدة قبل مجيء الأقارب لزيارتهن كي لا يبدين نحيلات.

بعد سنتين من عذاب منى في مدرسة الراهبات عاد والداها إلى لبنان والحقاها وشقيقتها، التي كانت قد سبقتها إلى لبنان، بمدرسة بيت الأطفال التابعة لجمعية المقاصد الإسلامية. تحسّن الحال، بالنسبة إلى منى، لكنها كانت تتأثر من التفرقة الطائفية في المدرسة، كونها مسلمة شيعية وكون المدرسة تابعة للطائفة الإسلامية السنية. كانت التلميذات يصلين الفروض الواجبة في المدرسة، ويظهر الفرق بين من يكتّفن أيديهن (سنّة) ومن يرخينها إلى الجانبين (شيعة).

وبعد الشهادة الابتدائية (السرتفيكا) نقل الوالدان ابنتيهما إلى المدرسة الأميركية للبنات. وهي مدرسة إنجيلية تبشيرية، ترتاد

تلميذاتها يوميًا كنيسة المدرسة للترتيل والصلاة ويدرسن التوراة والإنجيل كمادة من ضمن المواد الدراسية المقرّرة. وفي السنة النهائية من دراستها هناك، وقبل التخرّج ببضعة أشهر، تمّت خطبة منى على طبيب من معارفهم. لكنها ما لبثت أن فسخت الخطبة تخوّفًا من الإقدام على الحياة الزوجية التي شعرت أنها ليست مستعد بعدة لها. وبعد تخرّجها من المدرسة الأميركية للبنات التحقت منى بالجامعة الأميركية في بيروت لدراسة مهنة التمريض. وهي تعتقد أن اختيارها لمادة التخصص تأثر إلى حدّ ما بمهنة خطيبها السابق. وقبل تخرّجها من الجامعة ضغط عليها الأهل كي تقبل خطوبة شاب من عائلة سورية معروفة. وكان والدا منى قد تعرّفا إلى عائلة الخطيب في الهند حيث كان والده يرأس بعثة دبلوماسية.

كان الانسجام بين الزوجين شبه مفقود بسبب الاختلاف الجذري في طباعهما وتطلّعاتهما. وقد علّقت منى على الحياة الزوجية بشكل عام قائلة: "على العموم، الزواج هو مؤسسة فاشلة". ولما أنجبا صبيًّا صار للعائلة رباط تتمركز حوله وجمع بين الزوجين مصدر قوي للفرح والأمل. وبعد إرسال الصبي إلى المدرسة عملت منى في ترميم الآثار في قصر فريد زيادة، وعملت أيضًا كمصوّرة فوتوغرافية. وممّن صوّرتهم الفنانة فيروز وفرقة كركلا للرقص الشعبي.

وعندما كان ابنهما في الثامنة من عمره، تعرّض لحادث في المياه التركية، حيث كانت العائلة تقضي إحدى العطل. فبينما كان الصبيّ يسبح مع والديه، صدمه قارب مسرع يجرّ أحد المتزلجين على الماء. قتل الصبي على الفور ووجدت الأم نفسها تلتقطه من الماء مضرّجًا

وتسبح به إلى الشاطىء. وهذه الكارثة دمغت ما بقي من حياة منى بدمغة مأساوية وبشعور طاغ بالفقدان غدا يصعب كثيرًا العيش تحت وطأتهما.

ولأن منى تملك، إلى جانب إحساسها المرهف وعاطفتها الدافقة، صلابة وعزّة نفس لا تجدان مندوحة من مقاومة الانهيار، بحثت عمّا يساعدها في مواجهة الشعور بأن الاستمرار في العيش أصبح فوق طاقتها. لجأت إلى أطباء نفسيين حشوها بعقاقير كان لها آثار سلبية على صحتها وأعصابها. ولأنها كانت تحمل جواز سفر بريطاني بسبب ولادتها في مستعمرة بريطانية، قررت الذهاب إلى انكلترا طلبًا للعلاج وللبعد عن كلما يذكّرها بما حصل. ولمدّة تزيد عن السنة، لم تخبر زوجها ولا عائلتها بمكانها. وعندما أخبرتهم، طلبت الطلاق من زوجها وحصلت عليه. ولأن العلاج في انكلترا لم يفدها كثيرًا، ذهبت إلى هولندا.

في هولندا وجدت منى العلاج المناسب ووجدت من حضنوها وساعدوها على مواجهة الحياة من جديد. وقد استفادت من حلقات الإرشاد الجماعي للمتعرضين لصدمات كبيرة، مما أعاد لها القدرة على العيش المنتج، فعملت في ترميم البورسلان. وبقيت منى في هولندا خمسًا وعشرين سنة.

كانت تسائل نفسها وهي هناك إن كانت تستطيع البقاء في الغربة بعد بلوغ الخمسين من العمر. وكانت تحلم بالشاطىء جنوب مدينة صور حيث تملك عائلتها أرضًا كانت في سني فتوتها ترتادها وتسبح في مياه شاطئها. قالت لنفسها: "لن أقدر على العيش في المدينة، لكنني قد أحب العيش في هذه المنطقة القروية المطلّة على

البحر الأبيض المتوسّط". أرادت التأكد من شعورها هذا، فقدمت إلى لبنان برفقة صديقة من هولندا سنة 1999. وكان الجنوب اللبناني آنذاك واقعًا تحت الاحتلال الإسرائيلي منذ سنة 1978. وفي أثناء زيارتها، حدث لها ما اعتبرته معجزة ساعدتها في اتّخاذ قرارها النهائي في العودة إلى بلدها وفي ما عليها تكريس ما تبقى من حياتها له.

كانت منى تجلس مع صديقتها على الشاطىء عندما رأت في الأفق غيمة على شكل سلحفاة، فأخذت لها صورة بكاميرا كانت بحوزتها. ثم شعرت بالرمل يتساقط بكثرة على قدميها وكأن أحدًا يحفر بقوّة من تحت سطح الأرض، وفجأة ظهرت أمامها سلحفاة يوازي حجمها حجم إنسان ضخم، علمت فيما بعد أنها كانت تحفر مكانًا لتضع فيه بيضها. سارعت منى لتصوير السلحفاة المهيبة عدة مرات. صرخت السلحفاة بمنى وكأنها تحتجّ على هذا الاعتداء على خصوصيتها. وصرختها هذه أيقظت منى من سكرتها الروحية ومن خشوعها إزاء قوى طبيعية تتناغم بين الأرض والسماء. تنبّهت إلى أن ضوء الكاميرا الذي أزعج السلحفاة لا بد أن يكون قد لفت انتباه الإسرائيليين المرابطين على شاطىء هذه المنطقة المحتلة. عندها هربت منى وصديقتها خوفًا من ردّ يأتيهما من الأسلحة الإسرائيلية.

في اليوم التالي، عادت منى إلى المكان نفسه من الشاطىء بحثًا عن البيض، فلم تجد شيئًا. علمت أن الإزعاج الذي سببه تصويرها للسلحفاة التي كانت عائدة، على عادة السلاحف، لتضع بيضها في مكان ولادتها أدّى إلى هروب الأم، وبالتالي إلى وضعها البيض في البحر وضياعه. ومن ذلك الوقت، لا تفتأ منى تطلب السماح من تلك السلحفاة/الأم، وتحاول التكفير عن ذنبها بمساعدة السلاحف

على البقاء، خاصة نوع السلاحف الكبيرة الخضراء (كيلونيا ميداس) التي أغضبت واحدة منها، وهي سلالة مهدّدة بالانقراض من البحر الأبيض المتوسّط.

اتصلت منى بعدد من الجمعيات الحمائية كي تتثقف حول مساعدة السلاحف. وأنشأت محمية أسمتها أورانج هاوس (البيت البرتقالي)، تيمّنًا بلون هولندا، عرفانًا منها بفضل ذلك البلد في شفائها وفي مساعدتها في بلسمة جراحها. وتعيش الآن في محميتها في بيت بسيط مهيأ لاستقبال الزوار، خاصة الأولاد منهم المهتمين بمساعدة تلك المخلوقات البرمائية وبتعلّم العناية بالبيئة. ومن هؤلاء الأولاد من انتسب إلى مشروع "نادي أورانج، فرع نادي السلاحف للأولاد". ومنهم واحد أظهر اهتمامًا كبيرًا بالمحميّة فتبنّته منى كابنها الروحي وهي الآن تتعهد تخصّصه الجامعي بعلم الكائنات البحريّة، آملة أن تترك المحميّة في عهدته في المستقبل.

وفي موسم تفقيس السلاحف في شهر آب، تستيقظ منى في الفجر مع زائريها المهتمين، ويذهبون إلى الشاطئ لرؤية البيض ينكسر فتخرج منه السلاحف الصغيرة فيساعدونها على الوصول إلى الماء قبل أن تأكلها العصافير أو الكلاب أو القطط وغيرها من الكائنات آكلة اللحوم. وقبل التفقيس بحوالى خمسة وأربعين يومًا، أي في فترة وضع السلاحف لبيوضها في الرمل، تبحث منى ومعاونيها عن أمكنة البيض فيحفرون لها في الرمل حفرًا أكثر عمقًا مما صنعته السلحفاة الأم ويضعون عليها مشبكًا حديديًا يمنع وصول الحيوانات من أصحاب حاسة الشم القوية اليها، مما يحمي البيض حتى يحين وقت التفقيس.

تتنقل منى بين كائنات المحمية المشتملة على خنزيرة برية، قتل والداها وتركاها يتيمة في صغرها، وبعض الماعز من أم سويسرية بيضاء وأب لبناني أسود وقطة سوداء وكلب عجوز، وبين أزهار المحمية وأشجارها التي زرع أجدادها بعضًا منها. المرأة والرجل العاملان في المحمية بدوام كامل يناديانها "ماما". واهتمام منى بالمخلوقات المختلفة، خاصة صغارها، يتعدّى الحاضر إلى بعض القلق على المستقبل. فهي تتمنّى أن يحمل صغار البشر اليوم مسؤولية صغار الأجناس الأخرى في المستقبل، خاصة السلاحف، حتى لا تنقرض. تتنقّل بهمّة بشعرها الأبيض القصير وبشرتها التي لوّحتها الشمس، مرتدية الشورت والقميص والكاسكيت، فتشعر وكأنك أمام إنسانة تجمع بين الحداثة وبين أسطورية آلهات الخصب والرعاية الحادبة. ومع أنها تبدو كليًا مستقيلة من عالم الجمال النسائي، فآثار الجمال المهمل لا تزال واضحة عليها، في عينيها الزرقاوين وقامتها النحيلة المتناسقة.

أخبرتني منى عن نوعي السلاحف التي تؤم شاطئها: فمن هذين النوعين السلاحف العاديّة (كيلونيا كاريتا)، ومنهما السلاحف الكبيرة الخضراء (لأنها لا تأكل إلا أعشاب البحر) واسمها العلمي هو (كيلونيا ميداس). النوعان يقصدان عادة الشاطىء الذي ولدا فيه لوضع بيض يطمرونه بالرمال. وتقطع السلاحف الخضراء الصغيرة بعد طلوعها من البيض مسافات كبيرة لتصل إلى الأماكن الغنية بأعشاب البحر. وعند نضوج جهازها التناسلي تعود أدراجها كل المسافة إلى مسقط رأسها لتبيض فيه، أو في مكان قريب منه، إن وجدت المكان الأصلي غير مناسب. وهذه المسافات يقطعها ذكور السلاحف كما تقطعها أناثه. وعدد ما تبيضه كل سلحفاة أنثى هو

حوالى 110 للسلاحف العادية و70 للسلاحف الخضراء. ومن يزور المحميّة في صباحات شهر آب يرى السلاحف الصغيرة حال خروجها من البيض تشق الرمل في ترحال متعثّر الحركة لكنه واضح الوجهة، نحو البحر.

والعين المتمرّسة كعيني منى تشعر بتحرك الرمل قبل يوم أو يومين من ظهور الصغار. أما همّها الأساسي بعد الحفاظ على البيض فهو إيصال الصغار إلى البحر قبل أن يقضى عليها. تقول منى إن واحدة من كل مئة سلحفاة تطلع من بيضتها يتسنّى لها في سني نضجها العودة إلى الشاطىء لوضع بيضها. وقد كانت السلاحف تعيش إلى ما يصل إلى المئة وخمسين عامًا، لكنها الآن غدت تمرض بسبب التلوّث وقلّما تعمّر إلى هذا الحد، وحتى مرض السرطان صار يصيب البعض منها. أما فترة الخصوبة عند السلاحف فلا تختلف كثيرًا عما هي عند الجنس البشري، إذ تتراوح بين سن السابعة عشرة والأربعين سنة.

سألت منى إن كان للسلحفاة الأم دور في حياة صغارها بعد وضع البيض. أجابتني بأن السلاحف مخلوقات وحيدة تعيش الواحدة منها بمعزل عن المخلوقات الأخرى. ذكرني هذا بما قرأته عن أن الدماغ الأقدم، وفق نظرية التطوّر الداروييني، هو دماغ الزواحف الذي لا تتعدّى وظيفته خدمة بقاء الذات، بمعزل عن بقاء الذريّة أو الصاحب الأليف. ما تذكرته جعلني أظن أن السلحفاة الكبيرة التي صرخت بمنى كانت خائفة على نفسها وليس على "أولادها" وأنها ربما بسبب خوفها القت بيضها في البحر (قالت لي منى أن بعض أناث السلاحف يفعلن هذا). أما دماغ الإنسان الذي خاض التطوّر

من الزواحف إلى الثدييات المحبة لأسرها إلى ذوي العقل والتخطـيط المستقبلي، فلعلّ أصحابه من حاملي مسؤولية جنسهم بالإضـافة إلى مسؤولية الأجناس الأخرى، المهتمين بالمخلوقات الأدنى وبصـغارها ومستقبل جنسها، هم الأكثر تطوّرًا والأعمق إنسانية.

جانيت

ولدت جانيت في بيروت سنة 1935، أما والداها فكانا من الأرمن المولودين في كيليكيا في تركيا. وقد أتت عائلتاهما إلى بيروت، مع من هاجروا إلى المنطقة سنة 1922.

كان جداها قد نجيا من أحداث 1915. فقد أبقت السلطات التركية على جدها لأمها لأنه كان من أمهر الصناعيين في النقش الفني على الأدوات الفضية وتصنيعها بجودة عالية. فمهارته وصيته بأن لا جهاز عرس لبنات الطبقات العليا يكتمل من غير طقم شاي أو صوان أو خلافهما ممّا تصنعه يداه دعيا لاعتباره من الأقليّة الأرمنية التي تريد السلطنة بقاءها. وقد رأيت عند جانيت نماذج ممّا كان جدّها يصنعه فوجدتها تعكس ذوقًا راقيًا في الجمع الفني بين النقش المنمّق الدقيق والمساحات الفارغة من النقش. أما جدها لأبيها الذي كان والد أربعة شباب في وقت كان الشباب الأرمن الأكثر استهدافًا بالتصفية، فقد أشار عليه أصدقاؤه الأتراك أن يتظاهر باعتناق الإسلام وأن يصلّي في الجامع حتى لا يطال عائلته الترحيل أو القتل، فعمل بنصيحتهم. ولكن، عندما استلم الحكم مصطفى كمال أتاتورك، سنة 1922، وقرر أن الأرض التركية هي للأتراك فقط وابتدأ بقتل الأرمن واليونان والكلدانيين وغيرهم من "الغرباء" دون أي مراعاة للعائلات المتجذّرة في تركيا أو حتى المسلمة من الفئات

الإثنية غير التركيّة، هربت عائلتا والدي جانيت من تركيا إلى لبنان بمساعدة فرنسيين وبرفقتهم.

كان جدّا جانيت لأبيها لا يعرفان لغة غير الأرمنيّة سوى التركية. وبقي جدها طول حياته يستمع إلى الأغاني التركية ويعزف الألحان التركية على الكمنجة ويغني ويصلي باللغة التركية. بقي يلبس الزي التركي، مع الجاكيت والطربوش الأحمر والزنار العريض. ولم يكن يرتدي الثياب "العادية"، أي الإفرنجية الشائعة في بيروت، إلا عندما كان ابنه الأصغر "المتعب" يتأخر في السهر فيذهب أبوه للبحث عنه في علب الليل. وتقول جانيت إن جدها ربما كان يحب عملية البحث هذه التي تعرّفه بأجواء حياة الليل في بيروت، وربما كان يفضل الذهاب إلى أماكن كهذه "متنكرًا" بالزي الإفرنجي.

وفي بيروت أقام هذا الجد مع زوجته وابنه "المتعب" مع عائلة والد جانيت، المؤلفة من زوجة الأخير وابنيه وابنته جانيت. كذلك ضمت العائلة امرأة أرمنيّة اسمها أوسنا مات جميع أفراد أسرتها في حوادث 1915، ما عدا ابن أخ لها سرعان ما غادر إلى أرمينيا وانقطعت أخباره عنها. وأوسنا من الأيتام الأرمن الكثيرين الذين أنشأ الأوروبيون والأميركيون ملاجىء لرعايتهم. وعندما انتهى بها المطاف في عائلة جانيت، كانت تساعد في أعمال البيت واعتبرتها الأسرة، إلى حد ما، واحدة من أفرادها. كانت تأكل معهم وتحبهم ويحبونها. وتذكر جانيت أن أوسنا كانت تملك سلسلة ذهبية تقول للأولاد إنها ستقسمها إلى ثلاثة أجزاء ليرث كل منهم قسمًا منها بعد موتها. وكانت عمة جانيت تقيم في شقة في البناية نفسها، حيث يتردّد عليها أبناء أخيها ليأكلوا مَن البقلاوة الي يصنعها زوجها.

وكثيرًا ما غلبهم النعاس وهم ينتظرون أن تصبح البقلاوة جاهزة للأكل. أما عمّا جانيت وعمّتها الباقون فقد هاجروا إلى أميركا، وكان جدها يشتكي من أنه خسر نصف أولاده لصالح أميركا.

درس والد جانيت الطب سنتين قبل أن يحوّل اهتمامه لصياغة المجوهرات. كانت والدها في الخامسة عشرة من عمرها عندما تزوجته، وعاشت معظم حياتها الزوجية مع حمويها. كانت حماتها تطبخ وهي تساعدها، متمنية في سرها لو تدعها تطبخ وحدها حتى لا تعمّ المطبخ الفوضى ويكثر الجلي. فهذان كان يسببهما أسلوب الحماة الفوضوي في إعداد الطعام.

تقول جانيت إن نشأتها في بيروت كانت هانئة في وسط عائلة كبيرة هي فيها الابنة الوحيدة وأصغر الأولاد. ولا شك في أن جمال جانيت في الشكل والطباع جعلها أثيرة عند جميع أفراد العائلة. وقد قرر أهلها إرسالها إلى المدرسة الأرمنية في مرحلة الدراسة الابتدائية، مع أنهم أرسلوا الصبيين إلى مدرسة فرنسية. وكان لهذا التمييز أبعد الأثر في كون جانيت أكثر أخوتها معرفة باللغة والتراث الأرمنيين والأقل إتقانًا للغة العربية. وبسبب تحسّس جانيت لمعاناة شعبها ولرغبتها في نشر المعرفة عن تفاصيل هذه المعاناة، أعدّت في تسعينات القرن الماضي كتابًا عن تاريخ الأرمن، باللغة الفرنسية، وزعته على الأصدقاء والمهتمين.

بعد إنهائها دراستها الابتدائية، انتقلت جانيت إلى "المدرسة الأميركية للبنات" (مدرسة بيروت الإنجيلية، حاليًا)، حيث نالت شهادة الهاي سكول، دون الالتحاق بالصفوف العاديّة للغة العربية. فكانت تدرس عربية مبسطة جدًا في صفوف خصصت لمن لا يعرفون

اللغة. بعد ذلك درست الأدب الإنكليزي والفن التشكيلي في كلية بيروت للبنات.

أحبت جانيت طبيب أسنان فلسطينيًا. لكنه لم يلق ترحيبًا من الأهل، خاصة لأنه كان يعزف الموسيقى في ناد ليليّ بعد الانتهاء من العمل في عيادته. وصدف أن جاءها أحد أصدقاء العائلة بصورة لمهندس معماري أرمني يعمل في العراق وقال لها إنه يبحث عن عروس تناسبه. كانت الصورة لشاب يقف إلى جانب حصان، فيبدو الحصان ضئيل الحجم نسبة إلى الشاب. أعجبها صاحب الصورة، الطويل القامة العريض المنكبين، فتعارفا وتزوجا بعد ستة أشهر من تخرج جانيت من الكلية.

التقيت بجانيت وزوجها في ثمانينيات القرن الماضي أثناء رحلة لدراسة الآثار المصرية نظمتها جمعية أصدقاء متحف الجامعة الأميركية في بيروت. تعاطف الزوجان معي لأنني كنت الوحيدة بين المجموعة التي لا تتقن اللغة الفرنسية ولأنني مرضت عند العودة إلى القاهرة فلم أجد عناية إلا منهما. نشأت من وقتها بيننا صداقة لمست فيها عمق ثقافة الزوجين ودفء إنسانيتهما وروعة انسياب التفاهم في علاقتهما. إلا أن جانيت أخبرتني أن التناغم بينها وبين زوجها لم يتم إلا بعد حوالى خمس سنوات من الزواج. صرت التقيهما تكرارًا في الحفلات الموسيقية والمحاضرات، ونشأت بين عائلتي وعائلتهما صداقة وتقارب. وقد أعجبت كثيرًا برونق الأبنية التي صممها زوج جانيت، ومنها القصر الجمهوري في بعبدا. وبعد تقاعده تبرّع بخبرته ونشاطه لخدمة كنيسته وطائفته.

عندما كانت جانيت لا تزال عزباء كانت تساعد والدها، الصائغ المعروف في بيروت، في اختيار الأحجار الكريمة وفي انتقاء

التصاميم وكتابة الرسائل باللغتين الفرنسية والإنكليزية. وفي بداية الحرب الأهلية اللبنانية (1975-1990)، انتقلت مع زوجها وأولادها إلى باريس. لكن ابنتها الكبرى التي كانت حينها طالبة في الجامعة بقيت مع جديها في بيروت. كذلك، لم يطق ابنها الحياة في فرنسا حيث "يكثر المدخنون ورواد البارات"، فهدّد والديه بأن يلقي بنفسه على سكة الحديد أمام الترامواي إن لم يعيدوه إلى بيروت، فأرسلاه ليبقى مع أخته وجديهما. كان الزوج حينها يعمل في السعودية. و لم تلبث جانيت وابنتها الصغرى أن انضمّتا إلى ابنها وابنتها الأخرى في بيروت، في فترة هدوء نسبي، قبل معاودة القتال بين اللبنانيين.

عندما عادت جانيت إلى بيروت سنة 1979 كان أولادها قد كبروا و لم يعودوا بحاجة إلى كثير من وقتها، و لم يعد عملها الخيري في جمعية رعاية العميان الأرمن وفي غيرها من جمعيات رعاية العميان يملأ وقتها. وعندما أراد شقيقها، الذي يعمل مع والده في صياغة الذهب والمجوهرات، الذهاب إلى أوروبا لأسابيع قليلة، طلب اليها أن تحل محلةّ في غيابه. وكانت تلك فرصة سمحت لجانيت أن تلمس كم تحب هذا النوع من العمل الذي يستغرق معرفتها وذوقها الفنيين. لذلك استمرت في العمل مع والدها وشقيقها بعد عودة الأخير من سفره. ولكن بعد زواج الشقيق ورغبة زوجته في العمل معه، انسحبت جانيت وصارت تصمّم المجوهرات وحدها وتبيعها في بيروت وأميركا ودول الخليج العربي. وغدت السيدات من أهل البلد وخارجه يقصدنها لتصمم لهن ما يرغبن فيه من الحلى المتقنة والمصنوعة بذوق رفيع خاص بها. وبعد أن رأوا أعمالها طلب عديد من الصاغة أن تعمل جانيت معهم لكنها رفضت لرغبتها في المحافظة

على استقلاليتها وعلى القدرة على التحكّم بوقتها. فهي تحب أن تبقى حرّة للذهاب إلى التزلج على الثلج أو للسباحة أو لقضاء الوقت مع الأصدقاء، عندما ترغب في ذلك.

ولعل ما ينبيء عن أخلاقيات جانيت وزوجها ما حدث مع ابنهما خلال الحرب الأهلية. فهو خطف ليومين، ولّما تمكنا من استعادته بواسطة أصدقاء من السياسيين سارعا إلى إرساله لتكملة دراسة الهندسة في أميركا. كان ابنهما متفوقًا في دراسته في الجامعة الأميركية في بيروت، سنة أولى هندسة، مما سهل له القبول في جامعة كولومبيا ذات الأقساط الباهضة. وبما أن معاناة الشعب الأرمني أوجدت بين أبنائه نوعًا خاصًا من التعاضد، فقد راسلهما أحد كبار المتمولين الأرمن عارضًا أن يتكفل بنفقة تعليم ابنهما. لكن جانيت وزوجها رفضا عرضه قائلين: "شكرًا. لا نحب أن يكون لأحد سوانا فضل على أولادنا". وكصديقة للعائلة، لمست كم كافح الزوجان وكم حرما نفسيهما من كماليات وبعض الضروريات حتى تمكنا من القيام بواجبهما نحو ابنهما، من دون الاستعانة بأحد. وابنهما الآن بروفيسور في جامعة كولومبيا، وهو رئيس دائرة الهندسة البيو-ميكانيكية. وقد حاز من سنوات على مدالية أفضل أستاذ في الجامعة.

أما ابنتهما الكبرى فتركت لبنان بعد تجربة مرّة مرت بها كعاملة في التلفزيون اللبناني. فقد احتجزها مسلحون طوال الليل في أحداث 6 شباط 1981، بعد أن احتلوا محطة التلفزيون الرسمي وطلبوا منها أن تذيع خبر انتصارهم، فادّعت عدم معرفة اللغة العربية كي لا تقوم بما يطلبونه. بعد هذه التجربة، تركت الصبية البلد لتعيش بين نيويورك وباريس. وقد عملت في الترجمة بين اللغات العربية والفرنسية

والإنكليزية والإسبانية في عدة محطات تلفزة أميركية لتستقر أخيرًا كمترجمة معتمدة في منظمة الأمم المتحدة. و لم يبق مع جانيت وزوجها في لبنان إلا ابنتهما الصغرى التي تعمل في الإدارة وفي تجهيز المعارض لكل من مكتبة أنطوان والجامعة الأميركية في بيروت.

وإلى الآن لم تتقاعد جانيت من عملها الأشبه بالهواية. وهي تقرأ كثيرًا وتتابع النشاطات الثقافية ولا تزال جميلة وأنيقة. ومن علامات مظهرها الفارقة أنها ترتدي دائمًا ملابس دافئة أكثر مما يستدعي الجو، فهي كثيرة الحساسية للبرد ترتدي طبقات عديدة من الملابس، حتى في فصل الصيف. وتتميّز شخصيتها بثقافة واسعة وبمرونة اجتماعية وحسّ إنساني مرهف، كما يتميز حضورها بالمرح المتجلي في الضحك المنطلق بين الفينة والأخرى، مشيعًا حولها إحساسًا بروعة الحياة وبكونها فسحة وقيمة وهبة يبدو أن جانيت تقدّرها حق قدرها.

كوخ الصبايا
(الشقيقات آمال ومي ومنى)

حديثهن يعيد السامع إلى زمن مضى. فكأهن يعشن قبل زمن الملكية الفردية وبغفلة عن متطلبات التأمين الصحي، بل وكأهن لم يسمعن عن التكالب على النجاح المادي أو في سبيل طموح يضحّى في سبيله بالفرح اليومي ويلهي عن إعطاء فسحة للودّ والإلفة وما يبثانه من دفء للقلب وراحة للبال.

أصل والدهن من رومية ووالدهن من المروج في المتن الأعلى، حيث استقرت العائلة. كان والدهن يعمل محاسبًا، أما والدهنّ فكانت أميّة شغوفة بالزراعة. ففي أول يوم ذهبت فيه الأم وهي طفلة إلى المدرسة ضربها الأستاذ، فما عادت ترغب في العودة إليها أبدًا. وكما إنه من غير المألوف أن يتزوج متعلّم من امرأة أمية، من غير المألوف أكثر أن يقبل الزوج أن يترك مسقط رأسه ليعيش في قرية زوجته. فقد جرت العادة أن تقتلع النساء عند الزواج من حضن بيئتهن ويدفع بهن إلى استنبات جذور في بيئة أخرى. وعندما سألت إحدى البنات عن سبب سكن العائلة في قرية والدهن وليس في قرية والدهن، كما جرت العادة، أجابتني: "لأن والدي أحب أمي كثيرًا كثيرًا، أرادها أن تبقى مرتاحة بين أهلها وفي الجو الذي تألفه".

انجب الزوجان خمس بنات وصبيين. عرفت من صورة أكبر الصبيين أنه من حاملي جينة المثلث الصبغي، لكن شقيقاته لم يذكرن هذا التفصيل الهام في حديثهن عنه. ولم يبد أهن أحببن إخفاء هذه الحقيقة، ولكن كأهن لم يفطنّ لها إذ استرسلن في الكلام عن مواهبه وعن شخصيته الجذّابة وعن شوقهنّ اليه. أخبرنني عن جماله وروعة صوته وقدرته على التقاط اللحن وإعادته بدقة. شكين لي من الفراغ العاطفي الذي يشعرن به بعد وفاته، لأنه "فرح ودمه خفيف ويعمل جو في البيت ويغني لوديع الصافي وفيروز". وقد توفي الشقيق عن عمر لم يكمل عقده الخامس بسبب مرض السكري. وهن يعزين مرضه إلى حزنه لوفاة والده، ويعتقدن أن ما قصّر حياته هو ما كانت والدهم تخصّه به من المآكل الدسمة "المغذّية" دون أن تدري أنه كان مصابًا بمرض السكري الذي يستدعي حمية خاصة عمادها المآكل الخفيفة. ولم تعرف العائلة بمرضه إلا بعدما استفحل وأثّر في وظائفه الحيويّة.

لم يتزوج من أولاد العائلة السبعة سوى البنتين الكبريين. أما البنات الثلاث الأصغر، أمال ومنى ومي، والصبيّان، فبقوا عازبين. وعزوف الفتيات عن الزواج يدعو إلى العجب، خاصة أهن جميلات، بوجوههن المتناسقة وشعرهن الأشقر وقاماهن النحيلة الصلبة ولطف معشرهنّ الذي يقرّهنّ من قلوب عارفيهن. وممّا يزيد في العجب أنه في الأرياف اللبنانية، في زمنهن، قلما كانت تبقى حتى قليلات الجاذبية من غير زواج. وعندما سألت مي، في أول لقاء لي بها، عن سبب عزوفهن عن الزواج، أجابتني: "غالبًا ما تتزوج الفتيات عندما يكن صغيرات غير داريات بأمور الحياة. لكن عندما تصبح الواحدة

واعية وعارفة بحقائق الأمور، يصبح من الصعب إقناعها بان تتزوج"! وعندما الححت في السؤال في آخر لقاء لي معها، أخبرتني أنها لم تجد رجلاً يتحلى بالمزايا التي تتطلّبها في من ترغب بالزواج منه. أضافت، أنها لا تثق بإخلاص الرجال لزوجاتهم. فهي تعجب من أن الكثير من الرجال المتزوجين ممّن يرتادون كوخهم يحاولون دعوتها لمواعدتهم، لاعتقادهم أن كونها وحيدة يجعلها مستعدة لإقامة علاقات خارج الزواج. وهذا عزّز قلة ثقتها بإخلاص الرجال واقتناعها بندرة وفائهم لعهود الارتباط.

وما لمسته من الودّ والوئام بين الشقيقات جعلني أظن أن التعاطف والإلفة الصافية التي تجمعهن أغنياهن عن المجازفة بتغيير قد يجدن فيه خسرانًا وندمًا. ولما سألتهن إن كن يتخاصمن أحيانًا، وجدت في وجوه الشقيقات استغرابًا، وكأن الحب الذي يجمع بينهن يجعل الواحدة منهن منحازة للأخريين، على حساب ما تريده أو تفضّله.

في صغرهن، التحقن بمدرسة البلدة الرسمية. ومن المواد التي درسوها هناك مادة تعاليم الدين المسيحي، التي كانت راهبة تدرّسها لهن، مرّة في الأسبوع. ومما تذكره مي من تعليم هذه الراهبة أنها كانت تقول لهن أن أصابع الإنسان كانت في البدء مغطاة بالإظفر من أعلاها إلى أسفلها، لكن بسبب خطايا بني البشر انحسر الظفر إلى ما هو عليه! ومن تأثير التعاليم الدينية على الفتيات أنهن كن في صغرهنّ يعترفن بذنوبهن للخوري، حين كانت خطاياهن من نوع قطف تفاحة من شجرة يملكها آخرون أو الكذب على الوالدة لأخذ المال منها لشراء بوظة لطالبات المدرسة الداخلية وتسريبها اليهن عبر

النافذة المشبّكة بالحديد. ويبدو أن كــلام الراهبــة عــن الجحــيم والقصاص لم يقنع هؤلاء الفتيات اللواتي نشأن في حضن طبيعة نقيــة ونعمن بحياة عائلية هانئة، فقد قالت لي مي أنها بعد أن كبرت غدت تكلّم ربها "رأسًا "دغري" (مباشرة) دونما حاجة إلى رجــل ديــن". وأخبرتني أنها تحب الكنائس وتزورها، لكن في غير أوقات القدّاس.

وعن حياتهن العملية، أخبرني أنه منذ كان والدهن حيًا وعــاملاً في المحاسبة، كانت والدتهن تضمن أرضًا تزرعها. وأحيانًا كانت تزرع في أماكن متروكة أو سمح لها صاحبها بزراعتها. وهذا ما كان يحصــل أكثر الأمر في أراض على طريق الزعرور، بين ضهور الشوير وبسكنتا. وكانت البنات يساعدنها في الزراعة وفي الخبز علــى الصــاج الــذي يصنعون من بعضه مناقيش الزعتر والكشك والجبنة. وكــان ســائقو الشاحنات المارون من هناك يتوقفون ويطلبــون تــذوق مناقيشــهن، فكانت بدايات عملهنّ بين البيع والضيافة، حتى إن الأم كانت عنــدما ترى سائقًا يأكل منقوشة اشتراها، تؤنب بناتها قائلة: "ويــن صــحن اللبنة؟" وكأن السائق ضيف قصّرن في تأدية الواجب حياله.

قررت منى ومي أن تمتهنا ما كانتا تفعلانه للعائلــة وللضــيافة. فتبرعت شقيقتهما الكبرى آمال، ذات الموهبة في الرســم والنحــت الفنيين، بأن تصنع طاولات المكان وكراسيه. فصنعت آمــال مــن الخشب طاولات بعضها على شكل طاووس وأخرى علــى شــكل عروس بحر وواحدة لها قرنا أيّل، يعلّق الجالس على أحدهما جاكيتتــه أو شاله، وغيرها على شكل شجرة لها أغصان يأوي اليها إبريق الماء، وغير ذلك من أشكال، مع الاحتفاظ بلحــاء الشــجر وعروقهــا الطبيعية. وعلّقت آمال في مدخل الخيمة التي صنعنها مــن خشــب

وأوراق شجر لوحة تمثّل سماء ونباتًا وضوء ساطعًا. وزرعت الشقيقات حول خيمتهنّ شجر الصفصاف وورودًا يعبق أريجها ليصل إلى حيث تركن سيارات زوارهن الكثر. وتفننت آمال في تجميل كل ناحية من المكان الذي قررت الشقيقات تسميته "كوخ الصبايا". وقد أقمن "كوخهنّ" في أرض يملكها رئيس البلدية بعد أن قال لهن "استخدمنها وبارك اللّه لكنّ فيها".

ومنذ طفولة آمال تبين أن لها موهبة فنيّة متميّزة وأن لها عينًا ذوّاقة وخيالاً يمزج ما خزّنته ذاكرتها من معلومات عن الميثولوجيا بما التقطته عيناها من محيطها من ألوان وظلال وما استشفته من أنساق الطبيعة وما سبرته من مراميها الأنثوية النزعة نحو التخصيب والرعاية وفناء الجزء في الكل. وكانت معلّمة الرسم في المدرسة تطلب اليها أن تعلّم زميلاتها، اعترافًا منها بأن موهبة آمال الفطرية تتخطى ما كانت المعلمة قد درسته وتدرّبت عليه. أما مي فكانت تحلم بأن تكون طيارًا، كي "تطير" إلى أميركا حيث تقيم إحدى شقيقتيها المتزوجتين، لأنها متشوّقة لزيارتها. لكن الواقعية التي تفرّق الحلم عن المتاح جعلتها تلتحق بـ "معهد النجوم" لتتعلّم العزف على الأورغن. ولكنها لم تثابر على هذه الغاية أكثر من بضعة شهور. وفي المعهد، طلب اليها أن تعلّم الرقص الشرقي، لكنها لسبب ما لم تفعل، رغم أنها تحب هذا النوع من الرقص وتعلم أنها تجيده، فهي كلما رقصت في حفل يبدي الحضور إعجابهم بموهبتها. أما منى التي تفيض حنانًا فتقبع الآن في البيت إلى جانب والدها المريضة، وتقول عن نفسها: "أنا في الوقت الحاضر ممرّضة".

راج كثيرًا مشروع "كوخ الصبايا"، فتجد قاصديه من بيروت ومعظم نواحي الوطن الصغير يتقاطرون اليه طوال النهار. لم تعد

"الصبايا" يعطّلن عن العمل أيام الآحاد، لأنها الأيام التي يكثر فيها الزائرون. وقد أضفن إلى ما كن يصنعنه من المناقيش المتنوّعة، صحون بليله الحمّص والفول المدمّس والدبس بطحينه. أما الخضار، من بندوره ونعنع وفليفله وبصل، فكانت لزمن طويل مما تنتجه يدا الوالدة.

ومنذ حوالى الأربع سنوات، قررت البلدية توسيع الطريق مقتحمة جزء من خيمة "كوخ الصبايا". فابتدأت الشقيقات يخططن للانتقال إلى مكان قريب من الخيمة التي عرفت شهرتهن وازدهار مشروعهن. ورغبن في مكان أوسع من السابق وأقدر على درء برد الشتاء في منطقتهم الجبلية المرتفعة، حيث تغطي الثلوج الجبل في فصل الشتاء، فيقصدها هواة التزلج على الثلج، مرورًا بـ "كوخ الصبايا" للتزود بوجبة لذيذة صحية ومنشطة.

قدّم لهن عمّهن قطعة أرض يملكها قريبًا من مكان كوخهما الأوّل، قائلاً لهن: "لو طلبتن الأرض لتشترين بثمنها ماكياجًا وثيابًا لما أعطيتها لكن، لكن لكي تعملن وتحصّلن معيشتكن أعطيها لكنّ من كل قلبي". وما كان من شقيقهن المحترف مهنة البناء إلا أن تصدّى لمساعدة شقيقاته في هذا التحدي الجديد. فبنى لهن مكانًا فسيحًا يصعد اليه بتدرّج سقف جانب منه اتقاء للبرد أو المطر أو الثلوج المتساقطة أو حتى الشمس، وفقًا لتقلّب الفصول. وبنى للقاعة الواسعة التي يقع المطبخ والفرن في ناحية منها، شرفتين، واحدة أثثتها الفتيات بطاولات وكراس عادية وأخرى بطاولات ومقاعد مبنية من الحجر. أما القاعة الفسيحة الوسطى فبقيت مجسّدة لإبداعات آمال الفنية.

تفننت آمال كثيرًا في تزيين تلك القاعة، فصنعت تماثيل لحاملات جرار وحاملات صاج هن أشبه بآلهات الخصب في الزمن

القديم، أرجلهن تذكّر بعرائس بحر يغطي نصفهن الأسفل لحاء الشجر بدل حراشف السمك. وصنعت طيورًا كبيرة دقيقة الإتقان يمكن للناظر أن يرى كل ريشة من ريشاتها على حدة. ورسمت أرض القاعة عشبًا تنبت عليه أزهار الأقحوان. وصنعت على مدخلي المراحيض نصف حائط يشبه لحاء الشجر، زينته بزهور مختلفة. أما في المدخل السفلي الموازي للطريق قبل صعود المدرج، فصنعت آمال من أخشاب مقطّعة أفقيًا تمثالاً لامرأة ترفع يديها إلى الأعلى وكأنها تحمل ما لا يقدر عليه أقوى الرجال، أو كأنها تستصرخ العدالة قبل أن تأخذ على عاتقها إحقاقها، دون تذمّر وبعيدًا عن أي شعور بالعجز. إنه تمثال فني يساند الاقتدار الأنثوي، بلا توحش ولا تعدّ.

كانت عادة الصبايا في خيمتهنّ الأولى أن يقفلن "الكوخ" عند المغيب. أما الآن، بعد أن كثر عليهن الطلب وأصبح "كوخهن" بناء شرعيًا، فيفكرن في البقاء في العمل إلى حوالى الثامنة والنصف أو التاسعة مساء.

يعيش جميع من بقي من أفراد العائلة، ما عدا الشقيقتين المتزوجتين، في المنزل نفسه. يتعاونون في جميع الأمور ولا يقيمون وزنًا لأي حسابات مالية بينهم، فما ينتجه أي منهم هو للجميع. ويزيد العمل المشترك من التعاضد بين أفراد هذه العائلة، ويزيدهم التحامًا بالعائلة حزنهم المشترك، الذي لم يخب، على شقيقهم المتوفى. وقد كتبت آمال عنه قصيدة وضعتها بخطها الجميل في مدخل "الكوخ" تحت صورة له مثبتة في إطار من جذوع الشجر. تقول القصيدة:

كلما أسمع موسيقى أرى وجهك الجميل عندما تفرح
أرى رقصك كلما داعب الهواء أوراق الخريف
أشعر أن في حركته رسالة لي منك
في البرق والرعد أسمعك تغني لي
بصوتك القوي تسترد الرياح
في الشتاء أراك ترقص فوق الغيم بغبطة تزيّن السماء
مبارك جمالك في السماء
وغدًا عندما تقوم القيامة
أنت من سيحيي الاحتفال
بصوتك الأجمل في الدنيا مثل صوت اللّه
يا أيها القديس الجبّار يا حبيب العمر يا مروان.

ومن تعجّبي من غياب "العواذل" من حياة هذه العائلة، سألت الفتيات عن علاقة أفراد عائلتهن بزعيم المنطقة، فأخبرنني أنه يحبهم ويعرفهم معرفة شخصية منذ طفولتهم. تساءلت: "ماذا كان سيحصل لنوعية حياة هذه العائلة لو كانوا من أخصام الزعيم؟ هل كان سيتركهم في حالهم لتواضع مشروعهم أم كان سيضيّق الخناق عليهم؟" وهل يحسبون لرضاه عليهم حسابًا؟ هل يتخوّفون من عوادي الزمن، أم أنهم فعلاً وتمامًا هانئون لا يحملون همًا في جنّتهم الصغيرة وفي كنف الحب الذي يجمعهم؟

سلوى

والد سلوى هو من أوائل المنتسبين إلى جامعة، من بين أهالي مدينة بعلبك البقاعية. كان ذلك في زمن الانتداب الفرنسي. ولانتسابه إلى الجامعة قصّة تحكي عن طائفيّة ووسائط ما زال لبنان ينوء بهما. فعندما انهى الفتى دراسته الثانوية بنتائج جيّدة جدًا رفضته الجامعة اليسوعية في بيروت بسبب انتمائه إلى الطائفة الإسلامية الشيعيّة. أخذه والده مع زميل في مثل وضعه من النباهة والنتائج المدرسية الممتازة والتمييز الطائفي ضدّه لمقابلة الجنرال ديغول والاحتجاج على الإجحاف في حق الشابين، فتوسّط الجنرال للطالبين وقبلتهما الجامعة.

تزوج والد سلوى وأنجب قبل تخرّجه من الجامعة. وكانت زوجته لم تتعدّى المرحلة الابتدائية من الدراسة، لكنها على قدر من الثقافة بسبب كونها ابنة أحد علماء الدين المجتهدين. وبعد تخرّجه، عمل والد سلوى مديرًا لشركة الريجي (التبغ والتنباك) اللبنانية. واكتملت عائلة الزوجين بصبيّين وسلوى في وسطهما. لكن القدر كان قاسيًا على العائلة الشابة، إذ توفي الوالد وهو في الرابعة والثلاثين ربيعًا، حين كانت سلوى لا تزال طفلة في السادسة من عمرها.

بعد موت الوالد، انتقلت الأم وأولادها إلى بيت والدها الذي كان رئيسًا للمحكمة الجعفرية لطائفته. كان مركز عمل الجد في

مدينة بيروت، وهناك انتسبت سلوى إلى كلية البنات الأهليـــة ثم إلى بيت الأطفال النموذجي التابع لجمعية المقاصد الخيريـــة الإســـلامية. لكنها لم تبق طويلاً في أي من هاتين المدرستين، واستقرت في مدرسة الراعي الصالح البروتستانتية المختلطة، الأميركية الهوى، حيث بقيـــت حتى تخرجها. وإلى جانب الدراسة، كانت سلوى تتابع دروسًـــا في رقص الباليه والعزف على البيانو. وقد أحبت الباليه لدرجـــة أنهـــا فكّرت في امتهانه، رغم عدم تناسب مهنة كهذه مع تقاليـــد بيئتـــها المحافظة.

بعد التخرّج من المدرسة، التحقت سلوى لسنتين بدار المعلمين، ثم تزوجت زواجًا تقليديًا من أحد أبناء الطائفة الشيعية من الجنـــوب اللبناني، ممن كان أهلهم قد اغتربوا إلى أفريقيا واغتنوا فيهـــا. وقبـــل الزواج، طلبت سلوى من خطيبها أن يتعارفا لمدة شهر حتى يقررا إن كانا متناسبين، فأعجبته الفكرة. وانتقل الخطيب وعائلته إلى فندق في مدينة بعلبك حيث كانت سلوى وعائلتها يقضون فصل الصـــيف، وصار الخطيبان يلتقيان يوميًا. وبعد مدّة قررا أن التجربـــة ناجحـــة فتزوجا.

ذهب العروسان إلى فرنسا حيث كان الشاب يعـــدّ شـــهادة ماجستير في المعلوماتية. وهناك تابعت سلوى دروس الباليه لرغبتها في إنشاء معهد لتعليم هذا النوع من الرقص في المستقبل. بعد ذلك ذهبا الى أميركا واستقرا في العاصمة واشنطن، حيـــث درســـت ســـلوى تصميم الديكور المنزلي في الجامعة الأميركيـــة في واشـــنطن. ومـــن أنشطتها في الجامعة المساهمة في تأسيس النـــادي الأممـــي للطـــلاب. وكانت سلوى في الشهر الأخير من حملها عند تخرّجها من الجامعة.

وبعد مدة من ولادة ابنتها، صارت تعمل بدوام جزئي في شركة لتصميم الديكور المنزلي. وأثناء حملها الثاني، توفي زوجها بحادث سيارة.

تألمت سلوى كثيرًا لأن الطبيب منعها من مرافقة جثمان زوجها إلى مثواه الأخير في لبنان. أما أوضاع العائلة المادية فغدت بعد وفاته سيئة للغاية، خاصة لأن عائلة الزوج الثرية جدًا لم تهتم بمساعدة زوجته وابنتيه. وكان وضع سلوى النفسي والعائلي بعد فاجعتها لا يسمح لها بمزاولة العمل، مما اضطرها لأن تعيش وابنتيها على المدخول الضئيل الذي كانت الشركة التي عمل زوجها فيها تصرفه لهم وعلى ما يقدّمه لهم الضمان الاجتماعي الأميركي.

وبعد سنة ونصف من وفاة زوجها، اتصلت بسلوى زوجة وزير المال السعودي لتسألها إن كانت لا تزال تعمل في الديكور المنزلي، فأجابتها سلوى بالإيجاب لأنها لم ترد أن تضيع على نفسها فرصة العودة إلى العمل وتحسين أوضاع عائلتها. أخبرتها زوجة الوزير أنها معجبة بما كانت قد رأته من عملها، وبأنها ستأتي إلى واشنطن بعد أسبوعين لتقابلها لتتفقا على تأثيث بيتها في الرياض. سارعت سلوى إلى استئجار مكتب تشترك فيه مع آخرين، كما تشاركهم في خدمة السكريتاريا وفي استخدام غرفة الاجتماعات. فما انقضى الإسبوعين حتى كانت جاهزة لاستقبال زوجة الوزير. بعد ذلك بأيام، أبرمت سلوى مع السيدة السعودية اتفاقًا على تأثيث قصرها، وما هي إلا أسابيع قليلة حتى كانت تأخذ العمال والتقنيين من واشنطن إلى الرياض من أجل تنفيذ الاتّفاق. وقد ساعدها على الانصراف للعمل وجود والدتها مع ابنتيها لترعاهما في غيابها.

عقب انتهائها من هذا المهمة، كلّفت سلوى بتأثيث جميع مكاتب السفارة السعودية في واشنطن. وبعد ذلك نفذت أعمالاً في تونس وجنيف وباريس كما في السعودية. ومن جراء نجاحها في عملها في هندسة الديكور تغيّر الوضع المالي لعائلتها من الكفاف إلى البحبوحة وغدت أوضاعها أفضل مما كانت عليه في حياة زوجها، فتمكّنت من إلحاق بنتيها بأفضل المدارس الخاصة في واشنطن.

ولسلوى ذوقًا مميّزًا في اختيار أثاث المنازل والمكاتب، قوامه مزج آخر الابتكارات الحديثة مع العريق في القدم. فهي مثلاً استخدمت في غرفة واحدة زجاج الوقاية الفائق الجدّة مع الكراسي الدمشقية التقليدية المحصحصة بالصدف. كذلك زاوجت في بيت واحد بين الجدران شرقيّة النقش على الطريقة السورية والمقاعد المودرن المريحة. وفي تعاطيها مع الزبائن، كانت سلوى تستمزج أذواق أصحاب البيت أو أرباب العمل قبل إعداد تصميم الديكور الذي يطلبون، وتسألهم عما يرتاحون اليه من ألوان، ثم تتحدث معهم لتقريب وجهات نظرهم من بعضهم البعض ولإقناعهم بما هو عملي وجميل، في نظرها. وبعد إعداد تصورّها في تصاميم وافية، كانت تعرض ما تقترحه على أفراد العائلة أو أصحاب الشأن المعنيين، مجتمعين.

وبعد خمس سنوات على وفاة زوجها، قابلت سلوى رجلاً سوريًا من عائلة معروفة، كان مطلقًا وله ابنة، فتحابا وتزوجا. وقد وجدت ابنتاها في زوج والدتهما والدًا بديلاً وانضمت اليهما ابنته التي كانت أصغر من إحدى الفتاتين وأكبر من الأخرى.

بقيت سلوى تعمل في هندسة الديكور حتى قررت هي وزوجها العودة إلى بيروت سنة 2009، بعد زواج ابنتيها. ولأنها وجدت

الأوضاع في بيروت غير مستقرة، قررت الانتظار حتى يستقر الحال قبل أن تستأنف نشاطها العملي. وفي فترة الانتظار هذه، انتسبت سلوى إلى جمعيات خيرية وثقافية، موجهة نشاطها وذوقها لنوع آخر من الفعالية. وشرعت ترسم لوحات زيتيّة في أوقات فراغها. وقد اختارت الحكومة الكويتية إحدى هذه اللوحات لتصنع منها لوحة إعلانية عنوانها "لا تنسوا أسرانا". أما زوجها فيعمل في قطر، حيث تسكن إحدى بنتيها مع عائلتها، فيتفقدهم من وقت لآخر. وهو يزور سلوى في بيروت كلما سنحت له بذلك ظروف عمله، فيجدها منهمكة بأعمالها الفنية والاجتماعية، التي من جملتها العمل على تحسين ظروف العيش والعمل في البلد المنهك من حربه الأهلية ومّما يعصف بالمنطقة من مخاطر وما يعتمل فيها من مستجدات مقلقة.

ربات بيوت

قد يكون للفرق بين التسمية العربيـــة والتســـمية الإنكليزيـــة للسيدات اللواتي لا يعملن خارج المنزل مغزى ينبيء عن الفرق بـــين موقع هؤلاء النساء في الحضارتين. فكونهن يدعين "زوجات المنازل" باللغة الإنكليزية و"ربات البيوت" باللغة العربية قد ينبيء عن التركيز على دور الزوجة عندهم وعلى دور الأم أو الراعية عندنا. وقد تـــنمّ التسمية العربية عن ذكاء خبيث يستخدم تفخيم العنوان كترضية أو تعويضًا عن ضعف الموقع في الواقع المعيش.

وفي هذا الصدد تقول روزان يار: "أكره أن أكـــون "زوجـــة منزل" وأفضّل أن أدعى "آلهة الحياة المدجّنة"، وما تفضّله يـــار مـــن تسمية يشبه كثيرًا التسمية العربية "ربات البيوت".

سلمى (إسم مموّه)

سلمى سيّدة درزية في السابعة والتسعين من عمرها (مواليد 1916) ولا تزال في كامل لياقتها العقلية والبدنية، مضيافة حلوة الحديث، ضيافتها تنبئ عن بورجوازية عريقة وبيتها ينم عن ذوق سليم يرجع إلى زمن مضى، فلا يشوب أثاثها وستائرها أي لامع أو مذهّب أو صارخ اللّون.

من ذكرياتها في الحرب العالمية الثانية، أن جنودًا فرنسيين كانوا يتمركزون في البلدة البقاعية التي كانت عائلتها قد استقرت فيها. تذكر أن الضابط (الفرنسي) أقام عندهم ردحًا وأنه كان ضيفًا مهذبًا خفيف الظل، فكان عندما تدعوه الحاجة إلى التنقل في البيت أثناء نومهم يسير حافي القدمين كي لا يوقظهم. ومع أن بعض الضباط كانوا يزورونهم ويشربون القهوة عندهم، كانت عائلتها ترفض أن تأخذ "مونة" مما يوزّعه الفرنسيون على أهل البلدة. وفي أيام الآحاد، عندما كان أصدقاؤهم الفرنسيون يدعونهم لمرافقتهم إلى الكنيسة، كان أفراد عائلتها يجترحون الأعذار لعدم الذهاب دون أن يقولوا للفرنسيين إنّهم ليسوا مسيحيين.

كذلك روت لي سلمى أنه في فترة من الحرب الأهلية اللبنانية (1975-1990) كان أهل بلدهم يسمعون طوال الليل جلبة سيارات وآليات مصفّحة تحمل المقاتلين الفلسطينيين من لبنان إلى سوريا. وقد

خاف أهالي البلدة من حصول حوادث تهدّد الأمن خلال ذلك النزوح، فانتقل كثير منهم للمبيت في الدير للاحتماء بحرمته ولاعتباره لصلابة بنائه الحجري آمن من غيره من المباني وكي يتآنسوا بالكثرة المطمئنة. فكرت حينئذ سلمى وشقيقتها أن تحذوا حذو الآخرين فكلّمتا رئيسة الدير التي أعطتهما مفتاح غرفة لتبيتا فيها وحدهما، عرفانًا بفضل والدهما على الدير إذ إنه كان قد تبرع عند بنائه بنقل الإسمنت اللازم بشاحناته مجانًا. لكن الشقيقتين لم تستفيدا من كرم الدير ورئيسته، إذ ما فتئتا تؤجلان الانتقال إليه من يوم لآخر حتى رحل المقاتلون وعاد جميع أهل البلدة للمبيت في بيوتهم.

وتشعر سلمى اليوم بالأسى لانحدار مستوى السياسيين في بلدها عما عرفته في الجيل الماضي، منتقدة تفشي الفساد والتكالب على الثروات وتغذية الزعماء للنعرات والانقسامات الطائفية. وهي تأسف لما تراه من تنافر بين فئات المجتمع اللبناني، متحسّرة على ما عايشته من تآلف وتضامن بين الطوائف المختلفة في البلدة التي نشأت فيها. فعائلتها كانت العائلة الدرزية الوحيدة في بلدة سكانها من المسيحيين والمسلمين. وكان أبناء الديانتين يزورون عائلتها في عيد الأضحى للمعايدة، بما فيهم ممثلون عن كنائس الضيعة الثلاث. وكانت عائلتها أيضاً تزور المسيحيين والمسلمين للمعايدة وفي المناسبات الاجتماعية الأخرى. وكان أهل سلمى يصنعون كل شتاء مغارة ميلاد لأولادهم. وقد جمعت الصداقة والأخوّة بينهم وبين جيرانهم لدرجة أن الشارع كان يشهد يوميًا في أوقات الغداء صحاف الأكل ذاهبة غادية بينهم وبين جيرانهم حتى يتذوق الجار ما طبخه جيرانه. ومع أنها تسكن بيروت من عقود كثيرة، لا يزال من يلتقون بها من أبناء

الضيعة يتحسرون معها على الزمن الجميل، قائلين إن ضيعتهم ما عادت الضيعة التي عرفوا بعد التغييرات التي طرأت عليها، بما في ذلك نزوح العائلة الدرزية التي أحبوها.

وسلمى هي صغرى أولاد عائلتها. لم يعش للعائلة مولوداها الأوّلان. بعدهما ولدت شقيقتها سلوى وتلتها هي بعد أربع سنوات. درست الابنتان في مدرسة بروتستانتية في البلدة ثم في مدرسة داخلية في عاليه. كانت المدرسة الأولى مختلطة وتدرّس اللغة الفرنسية إلى جانب اللغة الأم. أما مدرسة عاليه فكانت مدرسة بنات، إدارتها درزية، ولغتها الثانية الإنكليزية. ولأنه لم يكن للأسرة أبناء ذكور شجع الوالدان الفتاتين على الاستقلالية وتحمّل المسؤولية. فكانتا تنزلان وحدهما إلى بيروت، وكانت الابنة الكبرى سلوى، بشكل خاص، متنبهة إلى ما يقوم به والدها من أعمال. ومن علائم انفتاح العائلة أن ابنتي سلمى كانتا الفتاتين الوحيدتين في البلدة اللتان تركبان العجلة (بسكلات). وقد اشترى الجد لكبراهما سيارة وهي في السادسة عشرة من عمرها.

كان والد سلمى قد تزوّج والدتها خطيفة، بعد أن رفضه أهلها المعتدّون بجمال ابنتهم الوحيدة وبحسن تربيتها. التجأ العروسان إلى أصدقاء لهما في ضيعة في البقاع. ويبدو أنهما أحبا المنطقة، فقرّرا السكن في بلدة بقاعية لا تبعد كثيرًا عن ضيعة أصدقائهما. كان والد سلمى اجتماعيًا ومحبوبًا وصاحب همة وأفكار جديدة. حصل على بذور لزراعة اللوبياء، فوزّعها على المزارعين. وكان المحصول في تلك السنة مميزًا. وكّل أهل البلدة والدها ببيعه في بيروت، فنقله إلى المدينة على دفعات بواسطة عربة خيل (طنبر)، وحصّل لهم أثمان لم يكونوا يتوقعونها ولا يحلمون بها. ومن وقتها اهتم أهل تلك البلدة بزراعة

اللوبياء. ومع الوقت اشترى الوالد بيتًا وأراضي وشاحنات لنقل المنتوجات الزراعية، كما أنشأ مزرعة دواجن. وكان يساعد الفلاحين بآرائه في الزراعة ويسلّف المال لمن يحتاجه لزراعة أرضه، ليعود فيستوفيه منه عند بيع المواسم. وكانت شاحناته تنقل المحاصيل إلى أمكنة تسويقها بعد مساهمته في إيجاد المشترين لها. وبذلك كان والد سلمى جزءًا أساسيًا من جميع مراحل الإنتاج الزراعي للبلدة: من اتّخاذ القرار بالنسبة إلى ما يزرع إلى تمويل الزراعة ثم نقل المحصول وتسويقه. ومن مبادراته أنه أسس أثناء الحرب العالمية الثانية مطعمًا قريبًا من مدينة زحلة.

أما والدة سلمى فكانت ربّة بيت من الطراز الأول وعلى قسط عال من اللياقة والتهذيب وتعنى كثيرًا بتجميل نوعية الحياة اليومية للعائلة. وكانت تحب قراءة الشعر وتتقن التطريز بما فيه الكروشيه، الذي ابتدعت أساليب لتطويره. كذلك كانت تستنبط أطباق جديدة عرف بها مطبخها، لم تكن من قبل خطرت في بال أحد سواها. أما ابنتاها فكانت تلبسهما فساتين الحرير الابيض من قماش "ست كروزا". وكانت تحرص في أيام العطل على أن تناما بعد الظهر ثم تنهمكان معها في أشغال الإبرة والصنارة. وتذكر حفيدتها أن جدتها كانت تقول لهم ألاّ يقرأوا حرفي الخاء والقاف لأنهما مطلع كلمتين غير مهذبتين! ومع أنها لم تكن محجبّة، كانت تضع على رأسها أحيانًا ما يشبه القبعة (توربان) التي كانت تعتمرها المسلمات، خاصة من كانت أصولهن تركيّة.

وككثير من الدروز، لم يكن أفراد العائلة مطّلعين على دينهم. لكن في إحدى زياراتهم لضيعة قرنايل، قرر أحد المشايخ من أقرباء

جدة سلمى أن "يحمل خطيّتهم" ويسلّمهم شيئًا عن دينهم. فتح كتاب "الحكمة" أمامه وأخبرهم عن وجوب عبادة اللّه وعن اليوم الآخر وعن "مولاي العقل" الذي سيظهر في مكة ويحرّر الكون بمساعدة أعوانه. أخبرهم أن الحدود الخمسة متجسّدة في أناس كلهم من المشرق وأن أحدهم موجود بين الناس في لبنان (ذكرت لي إنها قرأت لاحقًا في كتاب أحد الروحانيين أنه مات من سنتين). وبعد أن أكد عليهم الشيخ وجوب التحلي بالفضائل وغرسها وتنميتها في الأبناء، أعطاهم كتابًا صغيرًا فيه صلوات لا تزال سلمى تحتفظ به وتقرأ صلواته كلما شعرت برغبة في التواصل الروحي أو بإلقاء الحمل أو الطلب في كنف الخيّر المقتدر. وقد أطلعتني على إحدى الصلوات التي تحب أن ترددها طالبة إلى اللّه أن يعم الخير والصلاح جميع العالم.

ولأن العائلة كانت قليلة العدد ورغبت في زيادة عديدها، زوجت بنتيها في سن مبكّرة، فكانت سلمى عند زواجها في السادسة عشرة من العمر. وقد أقامت بعد الزواج مع والديها، كما فعلت شقيقتها من قبلها. أنجبت سلمى صبيين وابنتين. ولما وصل أكبر الأبناء إلى سن المراهقة انتقلت بهم إلى بيروت، حرصًا على تعليمهم في أحسن المدارس ولكي تتحسن فرصهم في الزواج من أبناء طائفتهم. وفي تلك الفترة كان زوجها يذهب كثيرًا إلى سوريا حيث معظم مشاريعه العملية. وهي تقول عنه: "كان زوجي بهي الطلعة تتمناه النساء، وكنت أحبه، لكن بشكل لائق، وليس كما هو الحب في هذه الأيام". أما سلوى فلم تنجب، وتعاطت مع أبناء سلمى وكأنهم أبناؤها، وكانوا بدورهم ينادونها "ماما سلوى". وكانت ابنة سلمى الصغرى ألصق إخوتها بخالتها، وكأن سلمى تخلّت لشقيقتها

عن ابنتها هذه حتى تمكّنها من تجربة الأمومة من خلال رعايتها لأصغر أولاد شقيقتها.

توفي زوج سلمى وهو في الرابعة والخمسين من عمره، وكان زوج شقيقتها قد توفي قبله. وحزن والدها على صهريه كثيرًا، لدرجة أنه رفض الاحتفال بعيد ميلاده المئة، فترك الحفل وذهب إلى بيت الجيران قائلاً: "كيف احتفل وأنا فقدت شابين من أفضل الشباب". وعاش الوالد ثلاث سنوات بعد المئة، وتوفاه اللّه بعد زوجته بوقت قصير. وفي سنواته الأخيرة، كان عندما ينتبه إلى أنه يعيد السؤال أكثر من مرة، ينصح ابنته بأن تحجم عن توجيه الأسئلة عندما تبلغ المئة سنة من عمرها.

وبعد وفاة الوالدين والزوجين أصبحت سلوى وسلمى وحدهما، فحملت الشقيقة الكبرى مسؤولية الاهتمام بأرزاق العائلة. كانت تراقب العمل في الحقل وفي البيع وتنسّق أعمال العناية بمواشي المزرعة. وكانت غالبًا ما تصطحب أولاد شقيقتها ثم أولادهم معها في تفقدها الباكر للمحاصيل. وتبدي سلمى تعلقًا بشقيقتها قّل نظيره. فهي لا تفتأ تذكرها، وتقول إنهما لم تتخاصما يومًا في حياتهما وإن أختها كانت ينبوعًا دافقًا من الحنان عليها وعلى ذرّيتها، مضيفة: "رغم مرور زمن طويل على وفاة سلوى، لا أزال أشعر بوجودها الدائم معي، ناصحة حانية".

وفي مجال الخدمة الاجتماعية، نشطت الشقيقتان في جمعية الصليب الأحمر اللبناني، كما عملت سلمى لبضع سنوات في جمعية إنعاش القرية، التي كانت تعلّم الفلاحين كيفية حفظ الفواكه (كومبوت) وتساعدهم في إنشاء المدارس وفي أمور حياتيّة أخرى.

تعيش سلمى الآن في شقة في بيروت تنتظر فيها زيارة أبنائها لها. تصنع لهم قوالب الحلوى الصحية التي تحتوي على الموز أو الجزر أو المكسرات والتمر، دون سكر ولا زبدة. لا تنقطع ابنتاها عنها، خاصة ابنتها الصغرى التي تسكن على مسافة قريبة منها. تقول عن أحد إبنيها إنه "قبضاي" وشاطر من نعومة أظفاره. وهو يعيش في البرازيل التي سبقه اليها، على مرّ أجيال، كثير من أفراد العائلة الممتدّة. أما الابن الثاني، الذي يبدو أن سلمى متعلقة به بشكل خاص، فذهب في شبابه إلى فرنسا للتخصص بالزراعة، كما أرادت له العائلة. لكنه تنقل هناك بين اختصاصات عديدة قبل أن يستقر في كليّة الصحافة والإعلام. وعمل بعد التخرّج في مجال الصحافة البعيد عن الاهتمام بالأرض وما تنتجه. وعندما كانت زوجته موظفة تقضي نهارها في عملها، كان يزور والدته يوميًا ويتناول معها طعام الغداء. لكن زياراته لها قلّت كثيرًا بعدما تقاعدت زوجته. وعندما تعاتبه سلمى على طول غيابه عنها يقول لها: "إحسبيني مسافرًا أو مهاجرًا مثل شقيقي".

لا يبدو على سلمى أنها غاضبة من هذا التغيير في سلوك ابنها. فكأنها تجد في انسجامه مع رغباته "خفة دم" وصدقًا محبّبين. ولعل تقبّلها لتغيير عاداته ينبع من المألوف عندنا من أن الرجال يفعلون ما يحلو لهم أو ما يناسبهم وأن الانضباط وقمع الرغبات مطلوبان، بالدرجة الأولى، من النساء. أما بنتاها اللتان تعلّمتا في أفضل جامعات البلد، فكل منهما عملت خارج المنزل لمدة محدودة، لتعود إلى التفرّغ للاجتماعيات وإلى ما يتطلبه مجتمعنا الشرقي من نسائه من زيارة الأقرباء ومشاركة الناس في أحزانهم وأفراحهم. ولعلهما تعبتا

من التوفيق بين متطلبات العمل وتلبية المتوقّــع منــهما إزاء العائلــة والمجتمع فقررتا التوقّف عن مزاولة عمل ليسوا في حاجة ماديّة اليــه. ولا شك في أن سلمى تستفيد من كون بنتيها غير مأسورتين بوظيفة، فذلك يسمح لهما أن يمنحاها مزيدًا من الوقت والرعاية.

ليلى (إسم مموّه)

هي فتاة سورية التقيتها في منتصف مرحلة الدراسة الابتدائية. كانت زميلتي في الصف رغم أنها كانت تكبرني بأربع سنوات، فهي لم تول الدراسة أي اهتمام، وكانت تقول: "لماذا أهتمّ بالمدرسة والدراسة، فجمالي ومجد والدي يكفيانني". واعتدادها أو اكتفاءها هذا وعدم اعترافها بسلطة المدرسة أو الزوج أو الأخ كلفاها الكثير من العذاب وتسببا لها بمشقات لم تحسب لها مسبقاً حساب.

كانت ليلى رائعة الجمال بشعرها الأشقرالناعم الغزير وعينيها اللوزيتين وشمائلها المتناسقة وقامتها الغزلانية الرشيقة. وبعد أن يعجب النظر بما أغدقته الطبيعة عليها من إتقان في الشكل، يؤخذ الذوق بما في حركاتها وسكناتها ومشيتها وإطراقها من حس مرهف ومن تلقائية محببة. ففي ليلى التقت الطبيعة وما يضفيه عليها الإنسان ليصنعا نموذجًا فريدًا يمجّد الخالق، من ناحية، ويملأ المشاهد إعجابًا بمقدرة بعض المخلوقات على الإخراج الفني المتناسق، من ناحية أخرى.

فوالدها السوري ووالدتها اللبنانية، اللذان جمعتهما الطائفة الدرزية والشكل الجميل كانا، من حيث الطباع وطريقة الحياة، من عالمين مختلفين. فالوالدة خريجة دار المعلمات ومدرّسة في مدرسة رسمية، وهي ابنة مديرة مدرسة ضيعتهم، التي أعالت أولادها بعد وفاة والدهم المبكرة. أما والد ليلى فزعيم كبير بالوراثة، أمير على

قومه، لم يتعلّم كثيرًا وتزوج باكرًا جدًا من أجل بقاء النسل المميّز. كان يحب النساء كثيرًا وتزوج وطلّق منهن عددًا وافرًا. زوجته الأولى التي أنجبت له صبيين، تعذّبت معه، ودعت عليه وهي صبية على فراش الموت حتى لا يولد له ذكور من بعدها. ومن غرائب ما نراه في الحياة، أن دعاءها استجيب، فلم يولد له غير البنات من الزوجات الكثيرات اللائي تزوجهن بعد وفاتها.

عندما تقدّم والد ليلى لطلب والدتها للزواج، كانت الوالدة في الرابعة والعشرين وهو في أوائل الثلاثين من العمر. وكان قد اقتنع أنه بحاجة إلى زوجة متعلّمة تفتح البيت الكبير وتتقن اللغات الأجنبية التي كانت مهمة لمن يتعاطى السياسة، في زمن الانتداب. ومع ترددها خوفًا من زيجاته السابقة وأولاده الكثر، فقد كان طلب من كان في موقعه بمثابة أمر لا يردّ، فتزوجا.

ضاقت المرأة ذرعًا بحياتها الجديدة وبقصر زعامة لم تأنس اليه يومًا. وعندما عادت إلى الصورة الزوجة التي سبقتها والتي كانت المرأة الأحب إلى قلب زوجها، أخذت ابنتها الطفلة ليلى وهربت بها من سوريا إلى لبنان. تطلّقت أم ليلى بعد ثلاث سنوات وبضعة أشهر من زواجها، وعادت إلى بيت والدتها وإلى التدريس من أجل تحصيل معيشتها. و لم يلبث النصيب أن طرق بابها ثانية، فاضطرت للذهاب مع زوجها الجديد إلى حيث عمله في بلد عربي آخر، وتركت ليلى عند جدّتها (والدة أمها) ثم في المدرسة الداخلية.

في المدرسة كنّا نلاحظ ذوق ليلى الخاص بها في اختيار الثياب وتسريح الشعر. أذكر تنورتها الحمراء المشجّرة بالأبيض وأذكر كيف كانت تضع أحيانًا ثمار الكرز على حابسة شعرها، بل أذكر أسلوبها

في ترتيب سريرها وخزانتها في المدرسة الداخلية، وكأنها في انهماكها بهما تصنع عملاً فنيًا مغرقًا في العملانية وفي التنظيم الذي يريح النظر.

كانت تهتم بالأحداث السياسية وتؤمن بعقيدة والدها الحزبية المنسجمة، إلى حدّ ما، مع عقيدة القيّمين على مدرستها. لكنها كانت تأخذ العقيدة كما جمالها ومركز والدها كوقائع تتعاطى معها بمباشرة متحيّزة وبواقعيّة جامدة، فلا تفكّر في نقد بنودها أو التحيّز لبعض أوجهها على حساب أوجه أخرى. كانت تعتبر الحزب والجمال ومركز الوالد مواقع قوة موثوقة لها، وكانت في ركونها إلى امتيازاتها لا تنتبه للفرق بين قوة الرجال المدعّمة وقوة الأناث الهشّة. أما إبداعها الأنثوي النكهة فكان في رواية القصص، واقعيّة ومتخيّلة، رغم أنها لم يكن لها من قصصها حظ شهرزاد التي انقذتها رواياتها.

كانت ليلى تسحر السامع بفيض من الألوان التي تتراوح بين الرهافة الطريفة والثقل الداكن المأساوي. وظني أنها لم تكن تروي الواقع كما هو، بل تبالغ في إظهار نكهات الوقائع بحيث تطاول ما يطمح الخيال اليه أو يخاف منه. كانت تنقل سامعها إلى عوالم الفانتازيا التي لا رتابة فيها ولا تفاصيل ترابية تثقلها. فالحصان الذي امتطت صهوته لتتجول مع والدها في أرضهم الزراعيّة هو في جمال خيول قصائد الجاهلية، وسقوطها من على ظهره كان حدثًا دراماتيكيًا فيه بطولة وتعال على الوجع. ففي روايتها لهذه الواقعة، تقمّصت ليلى دور الفارسة القديرة حينًا ولعبت دور الأميرة الرقيقة المتحمّلة للمعاناة وأوجاع الجسد وزوجات الأب، حينًا آخر. ومع أن الأوقات التي قضتها في منزل والدها كانت قليلة، فهي الأوقات التي كانت تجدها مادة لرواياتها ولجنحات خيالها.

ولم تكن ليلى ترى والدها إلا في فصول الصيف التي تأتي الوالدة فيها إلى لبنان. وهذا كان يحصل كل عامين تقريبًا. وفي هذه الأثناء صار لها من أمها أخ وأخت أحبتهما. وفي غياب أمها، كانت تزور بيت خالها في العطل. وعندما كانت في الخامسة عشرة، التقت في بيت خالها أحد أقرباء العائلة فأعجبت به. كان بهي الطلعة مديد القامة، وإن كان له ضعف ما لها من العمر. طلبها للزواج فرفضته والدها بشدة لأنها كانت تريد لها أن تكمل تعليمها وأن تصبح في عمر أكثر نضجًا قبل التفكير في الزواج. لكن، بما أن بعض أقرباء والد ليلى كانوا أيضًا يريدون الزواج منها، أقنع الخال شقيقته بأنه من الأفضل أن تزوجها ممن أرادت حتى لا تضيع منهم بالذهاب إلى بلد والدها. ومما ساعد على إقناع الأم بأن ترضخ لمشيئة ابنتها أن ليلى لم تكن مهتمة أبدًا بالدراسة. ومع هذا فلم تحضر الأم زفاف ابنتها لعدم رضاها عن زواجها المبكر.

بقيت ليلى مع زوجها ما يزيد على العشرين سنة. كان الزوج لم يتعدّى المستوى المتوسط من التعلّم، لكنه كان يملك الكثير من الأرزاق. وأنجب الزوجان صبيين، وكان للعائلة كثير من الأصدقاء، بمن فيهم بعض الفنانين الكبار من الديار المصرية. وكانت ليلى لا تزال تعاني من آلام الظهر جرّاء سقوطها عن الحصان في طفولتها، فأقنعها طبيب من أصدقاء العائلة بأن تخضع لعملية جراحية. ولم تنجح العملية وبقيت ليلى بعدها ستة أشهر سجينة الجفصين والألم. وللسيطرة على الألم، أغدق الطبيب/الصديق حقن المورفين على مريضته، مما أدّى بها إلى الإدمان. وفي تلك الأثناء كان زوجها يغرق في إدمان آخر هو لعب القمار. فصار الزوجان يبيعان ما لهما من

أملاك خدمة لإدمانيهما كما لإعالة ولديهما، حتى انتهى بهما الأمر إلى اضطرار الزوج أن يقبل بوظيفة بسيطة، بعد أن باع معظم أملاكه.

وبين ضيق ذات اليد والآلام التي كانت ليلى تعانيها، تعكّر كثيرًا مزاج الزوجين ممّا أوصلهما إلى الطلاق. وبعد الطلاق لم تجد ليلى ملجأ. فوالدها كان حينها سجينًا سياسيًا، والأصدقاء الذين كانوا من قبل كثرًا لم تجد منهم التعاطف والعون اللذين كانت في حاجة ماسة اليهما. ولم يلبث زوجها السابق أن تزوج من أخرى.

عندما التقيتها بعد طلاقها بسنوات، أخبرتني أنها عانت بعد الطلاق ضائقة مالية شديدة. ولأنها لا تحمل شهادة أو مؤهلاً لأي وظيفة، اضطرت إلى العمل بائعة في متجر، بأجر زهيد وساعات عمل طويلة، من الثامنة صباحًا حتى التاسعة ليلاً. وبعد أن عزّ عليها ما تعيشه من انحدار في مستواها الاجتماعي والمادي حاولت الانتحار بتقطيع شرايين زنديها، لكن زوجة بواب العمارة أنقذتها بعد أن رأت الدماء تتسرّب من أسفل باب شقتها الصغيرة.

بعد ذلك كانت ليلى تلتجىء إلى أحد الأقارب أو الأصدقاء لتجد أنه يضيق بها أو يحاول استغلالها. وكلما التقيتها في تلك الفترة، كانت تخبرني عن عذاباتها بأسلوبها الذي ما فقدت فذاذته رغم كلما عانته: فمن قصة القريب البخيل الذي يعدّ أعواد الثقاب في العلبة، قبل خروجه من البيت ويعدّها بعد عودته ليتأكد من أنها وزوجته لم يشعلا أعوادًا أكثر من الضروري، إلى طبيب الأسنان الذي أرادها زوجة، ولم تجد القدرة على مغالبة اشمئزازها منه. وكانت تصوّر عذاباتها هذه بما يضحك ويبكي في الوقت نفسه. فكنا نضحك من

القلب مما رأته ليلى وأعادت تصويره على مسمعي من صغارة بعض الناس ونشاز ردود أفعالهم واستعدادهم لتخطي متطلبات الكرامة والتعاطف الإنساني للحصول على ما يسيل له لعابهم. وكنا نغالب البكاء متظاهرات بالبطولة "الدرامية" عندما تأتيني مرة مخلّعة الأسنان من أثر الصدمات الكهربائية التي جرّبوها عليها في المصحّة بغية شفائها من الإدمان، ومرّة منتفخة الوجه والجسم من أثر ما حشوها به من عقاقير.

تحسّنت أحوال ليلى بعد خروج والدها من السجن ولجوئه السياسي إلى أحد البلدان المجاورة، فكانت تزوره وتعنى به من وقت لآخر، ثم تعود إلى لبنان. كان أخوها وأختها من أمها مقيمين أيضًا في لبنان، لكن الحرب الأهلية (1975-1990) باعدت بينهم، فلم تكن تراهما إلا نادرًا. وكانت أختها الطبيبة تهتم بإدخالها المستشفى كلما ساءت حالتها. أما أفضل ما حصل لها في تلك الفترة فكان عودة علاقتها بابنها البكر إلى طبيعتها، فأقامت معه ردحًا من الزمن. وعندما كانا يسكنان منفصلين، كان يزورها دائمًا ولا ينسى عيد ميلادها أو أيًّا من المناسبات لقضاء وقت معها.

كان ابنها هذا يعمل في مؤسسة سياحية، وكان كثيرون يطلقون عليه صفة "أجمل شاب في بيروت". وقبل يوم من ذهابه للتخصص في لندن في إدارة الفنادق والمعالم السياحية، وأثناء احتفال أقامه له أصدقاؤه لوداعه، شرب الشباب الخمر ولعبوا روليت روسية (حيث يضعون رصاصة واحدة في بكرة المسدس ذات السبع طلقات، ليبرموا البكرة ثم يطلق أحدهم على صدغه)، فكان من حظ الشاب وحظ والدته العاثرين أن انطلقت من البكرة رصاصة أودت به.

لم تخبرني ليلى بمصيبتها، الأكبر بما لا يقاس هذه ولم أرها بعدها أبدًا، ولكنني عرفت بها من الإعلام. بحثت عنها فما وجدتها، وأضاعها أخواها أيضًا. ولا يزال من عرفها يتساءل: هل هي ميتة مرتاحة من كل ما عانته في هذه الحياة، أم أنها لا تزال في مكان ما تتألّم حينًا وتروي القصص المنمّقة الساحرة أحيانًا؟

قابلت أختها التي لا تزال تحمل ألم أمها التي تعذبت كثيرًا من اضطرارها للابتعاد عن بكر أولادها فلم يتح لها السهر عليها كما كانت تودّ أن تفعل، كما تحمل عبء آلام أختها الكثيرة وحيرتها هي حيال مصيرها المجهول. وجدتها تشفق من أن تكون أختها قد لاقت حتفها لشجاعتها في المطالبة بما يحق لها من ميراث. وأخبرتني أن ابن ليلى الأصغر عاد فتصالح مع ذكراها، مطلقًا اسمها على ابنته الوحيدة.

كثيرًا ما ساءلت نفسي، هل كانت ليلى لتصبح ممثلة أو عارضة أزياء شهيرة لو لم تكن ابنة عائلة عريقة لا تقبل هذه المهن لبناتها؟ وهل كانت لتصبح تلميذة مجتهدة ثم مهنية ملتزمة بعملها لولا اعتدادها بجمالها ونسبها؟ بل هل كان سيكون حظها من الحياة الزوجية أفضل لو لم تكن على ذلك القدر الكبير من الانطلاق والصراحة، وكأنها لا تعي المزالق الكثيرة في دروب النساء؟ أما ابنها، فلعله ورث عن والدته صفات أبطال الأساطير وحظ شخصيات المآسي.

هلن

هلن هي كبرى أخوتها والأبنة الوحيدة لأسرة لها خمسة أولاد. فاقت أشقاءها جميعًا في الحصول على الشهادات العلمية. و لم تتمكن من تحقيق طموحها بالانتساب إلى كلية الطب في الجامعة الأميركية بسبب الأقساط الباهضة التي تتطلّبها. فوالدها كان موظفًا محدود الدخل في شركة محليّة. لكنها تمكّنت من متابعة التحصيل حتى نالت شهادة الماجستير في البيولوجيا من الجامعة ذاتها، بفضل منح استحقتها لتفوقها الدراسي وبمساعدة من خالها على تسديد ما كان يتبقّى من أقساط الجامعة. وقد عملت هلن إثناء تحضيرها شهادة الماجستير في مدرسة برمانا العالية ثم كمساعدة في التدريس والأبحاث في الجامعة الأميركية، حيث ساهمت في وضع ثلاث دراسات علمية تحمل اسمها مضافًا إلى اسم الأستاذ الذي عملت تحت إشرافه.

وبالإضافة إلى حصول هلن في شبابها على لقب "ملكة جمال جبل لبنان" ربحت جوائز عديدة في الرياضة، بما في ذلك جائزة في فنون القتال الصينية. وهي رغم تراكم السنين وحظ وافر من المعاناة لا تزال تحتفظ بطلّة بهيّة وبلياقة بدنية ملفتة.

ابتدأت معاناتها بتعلّق زوجها بأخرى ورغبته في التخلّص من زواجه ليرتبط بها، واستمرت مع ما واجهت به هلن هذه الرغبة من إصرار على الإبقاء على زواجها. وقد تسلّحت من أجل تحقيق

رغبتها هذه بالتعاليم الكنسية التقليدية التي تعتبر الزواج سرًا مقدّسًا لا فكاك منه إلا بالموت، وبدراستها للقانون الكنسي وبجرأتها وإقدامها في المطالبة والمحاججة وبطول نفسها في المتابعة ومقاومة الأساليب التقليدية في تحجيم النساء.

ابتدأت قصّة علاقة هلن بمن أصبح في ما بعد زوجها بالتقائهما في إحدى الحفلات. كانت حينها تلميذة في السابعة عشرة، وكان هو طالبًا في كلية الطب، سنة أولى. ومن أول لقاء بينهما أعجب بها. وبعد سنتين على لقائهما أصبحا رفيقين متحابين. سافر إلى فرنسا للتخصّص. وتابعت هلن في غيابه دراستها الجامعية وعملها في التدريس كما كمساعدة في الأبحاث. وعند عودته إلى لبنان كانت قد حصلت للتوّ على منحة فولبرايت للدراسة في أميركا، مما جعلها تتردّد بين رغبتها في الزواج منه وتوقها لقبول المنحة للسفر ومتابعة دراساتها الجامعية العليا.

تزوّج الحبيبان في كنيسة كاثوليكية سنة 1974 وسافرا إلى فرنسا حيث كان الزوج يتابع تخصّصه. بقيا في فرنسا ثلاث سنوات، عادا بعدها إلى بيروت حيث تابعت هلن عملها الأكاديمي، لكنها تخلت عن العمل خارج المنزل عندما أصبحت أمًا. وعندما زرتها في صيف 2013 في بيتها الجبلي المنور المطلّ على بعض الجبال اللبنانية الخلاّبة، وقد تخلى لها زوجها عنه، لفتني ذوقها المميز في ترتيب البيت وإدارته. وأثار عجبي تصدّر صورتين قديمتين لرجل وامرأة من عائلة زوجها لحائط غرفة الاستقبال، رغم الخلاف المستعرّ بينها وبينه من سنوات عديدة.

أدهشني ما أفضت إلي هلن به من أنها كانت تعتبر نفسها عونًا وسندًا لزوجها عندما ذهبت إلى البروفسور الذي كان زوجها يعمل

تحت إشرافه وطالبته بأن يعطيه مكتبًا مناسبًا بدل المكتب الذي كان قد وضع له في أحد أروقة المستشفى. وقد اعتبر زوجها تدخّلها هذا في عمله واحدة من الذرائع الثلاث المساندة لطلبه من الكنيسة أن تسمح له بهجرها.

قبل تحوّل عواطف زوج هلن عنها إلى سواها، كانت حياتهما معًا هانئة ورغدة. فكان لديها مساعدتان في أعمال المنزل، وكان زوجها يريدها أجمل السيدات في سهراتهما، مغدقًا عليها المال لتكون في كامل الأناقة، ومغيّرًا لها سيارتها كل فترة حتى تحافظ على مستوى مرتفع من الإطلال على المجتمع. ومع أن الانهماك في العمل لم يكن يتيح له الكثير من الوقت مع الأولاد، إلا أن هلن تقول إنه كان والدًا صالحًا ومهتمًا وفخورًا بتفوّق أولاده الدراسي. تقول إن دوام عمله كان يأخذه من البيت من السابعة صباحًا حتى السادسة مساءً، لكن بعد تعلّقه بزميلة له غدا لا يعود إلى المنزل قبل الثامنة والنصف مساءً وكثرت سفراته إلى خارج البلاد، برفقة تلك الزميلة. وعندما كانت هلن تطلب أن تسافر معه، كان يختلق الأعذار ليبرّر لها استحالة ذلك.

أولى محاولات الزوج للتحرّر من زواجه كانت عن طريق الطلب إلى المحكمة الكنسية أن تحكم له بتطليقها. حاول إقناع هلن بأن يتحوّلا إلى الطائفة الأشورية حتى يسهل عليهما الطلاق، فلم تقبل. ترك البيت ووكّل محاميًا بإقامة الدعوى. وعندما زارها المحامي ورأى عنايتها ببيتها وأولادها نصح زوجها بأن يستأجر شاليه "للمسخرة"، وأن يرجع عن فكرة الطلاق، مذكرًا إياه بأن البيت عند الانفصال يكون من حق المرأة.

عاد الزوج إلى بيته بعد محاولة الطلاق الفاشلة، وتسامحت هلن مع نزوته كي تحافظ على العائلة. لكن عودته هذه لم تدم. فقد ترك منزل الزوجية من جديد عندما تطلّقت عشيقته من زوجها. وعين محاميًا جديدًا كي يلتمس من الهيئة الكنسية أن تجيز له هجر زوجته لأنها "تتدخل في عمله وتشتمه ولا تعتني بالأولاد". أعطته الهيئة فترة أربعة أشهر للتفكير في الموضوع. اعترض محاميه على هذه الإطالة. وقبل انقضاء الفترة، كان الزوج قد استأجر شقة أقام فيها مع عشيقته وصار يرافقها إلى السهرات والمناسبات الاجتماعية فتظهر صورهما معًا في المجلات، على اعتبار الهما زوجان.

في تلك الأثناء كان شقيق هلن في آخر مراحل المرض العضال، فبقيت معظم الوقت إلى جانبه في المستشفى. استغلّ الزوج هذا الظرف مؤكدًا لهيئة المحكمة أن زوجته لن تحضر المحاكمة لأن شقيقها يعاني آخر سكرات الموت. وهذا التأكيد شجّع الهيئة، كما تقول هلن، على "الاستلشاق" في تبليغها الحكم رغم علم المحكمة بعنوانها. فصدر الحكم بالهجر ملصقًا وعلى مسؤولية المدعى عليها (مما يعني أنه لا تحق لها النفقة)، ودون أن تستمع المحكمة إلى أقوالها. لكن محامي الزوج تغاضى أو تكاسل عن تنفيذ الحكم!

بعد وفاة شقيقها، اشتكت هلن للمراجع الدينية المحلية من تجاوز الهيئة للأصول فلم تلق تجاوبًا و لم تسمع جوابًا. قابلت السفير البابوي في لبنان فنصحها بأن تراسل روما لتقدّم شكواها إلى جانب شكاوى نساء أخريات مظلومات كانت تتواصل معهن. نصحها بأن تشتكي للسينياتورا عدم صلاحية الهيئة التي حكمت بطلاقها والتي كان اثنان من أعضائها الثلاثة فوق الثمانين من العمر واثنان لا يحملان مؤهلاً

في القانون الكنسي، وأن تشتكي للروتا التجاوزات التي حصلت في التعاطي مع قضيتها من تقصير في التبليغ وفي إعطائها الفرصة لتعيين محام أو للمثول أمام المحكمة للدفاع عن نفسها. استجاب الفاتيكان لالتماسها وأمر بتغيير هيئة المحكمة، فتعيّنت هيئة جديدة أبطلت الحكم بالهجر وأقرّت لهلن نفقة موازية لما اعتادت عليه من مستوى معيشي مرتفع.

غضب الزوج من هذا الحكم، فغيّر المحامي الذي كان قد أوكل اليه دعوى الهجر ووكل محاميًا محليًّا آخر مع محام من الروتا كي يقيما دعوى بطلان زواج في روما. رفضت روما دعوى البطلان، وكان المحاميان أرفقا الدعوى بطلب لإيقاف النفقة وإيقاف الهيئة المحلية الجديدة عن النظر بالدعوى التي ضمت طلب البطلان إلى طلب الهجر. وكان تعليلهما لوجوب كف يد الهيئة الجديدة عن الدعوى أن الهيئة الناظرة بدعوى البطلان يجب أن تكون غير الناظرة في دعوى الهجر. أستجابت السلطات المحلية لطلبهما، فعيّنت هيئة غير التي أبطلت حكم الهيئة السابقة. وقبل إصدار الهيئة الجديدة حكمًا في القضية جاء الردّ من روما مؤكدًا صلاحية الهيئة التي نقضت حكم الهجر ورافضًا طلب إيقاف النفقة. وانطوى الرد على قبول روما أن تنظر بالدعوى بنفسها.

كانت هلن قد أرفقت في رسائلها إلى الفاتيكان اعتراف شقيقة زوجها وابن شقيقته أن شهادتيهما في المحكمة الأولى التي حكمت عليها بالهجر كانت غير مطابقة للواقع ومملاة عليهما من محامي الزوج. كما أنها أرفقتها بتسجيل لحوار بينها وبين المطران الذي شكّل الهيئة المحليّة الجديدة، دار في حصة دراسية كان هو أستاذها

وهي أحد تلاميذها. وفي الحوار الذي صدف أن سجّله أحد التلامذة ليستذكره فيما بعد، ذكّرت هلن المطران بواجبه الكنسي في أن يحاول الإصلاح بين الزوجين وألاّ يشجّع الزنى بدعوة الزانيين معًا إلى المناسبات الاجتماعية، فكان جوابه أنها يجب أن تقبل بأن "الجرّة كسرت" بينها وبين زوجها وبأنه اختار امرأة أخرى. وبدا في التسجيل كلام المطران الموجّه إلى هلن مفعمًا بالتهكّم والفوقيّة.

وحازت هلن بعد أربع سنوات من التحاقها بجامعة الحكمة لدراسة الحق الكنسي على مؤهل "محام كنسي" تقرّه "لاتران" المعترف بها من روما. كذلك أسست جمعية لمساندة نساء اعتبرت أن الأحكام بفسخ زواجهن بحجة "عدم القدرة النفسية على تحمّل مسؤوليات الزواج" ظلمتهن. ففي رأيها أن تمضية السنوات الطويلة من الحياة العائلية والإنجاب والتربية يناقض مقولة "عدم القدرة النفسية". وهي تعتبر أن هذه المقولة غالبًا ما تكون غطاء لرغبة الزوج في أن يقترن بأخرى ولا علاقة لها بوضع الزوجة النفسي. وكانت مراجع روما قد حثّتها على إقامة جمعية كهذه بعد ما لمسته من مقدرتها في استيعاب الجدليات القانونية وفي احترام القوانين نصًا وروحًا. وقد أخبرها سكرتير السفارة بأنهم وجدوا من خلال مراسلاتها أنها "جريئة وجديّة وقادرة على التفكير العلمي المركّز". وقد لفتت هلن الانتباه في مراسلاتها للفاتيكان إلى إساءات تحصل وعائلات تتفكك بسبب عدم القدرة المالية للزوجات، في مقابل قدرة الأزواج المتمكنين ماليًا واجتماعيًا على توكيل أقدر المحامين وتوظيف مواقعهم المهنية المرموقة في سبيل الحصول على ما لا يحق لهم وفق تعاليم كنيسة تقدّس الرباط الزوجي وتوصي بالمحافظة على العائلة.

وفي مواجهة دعوى الهجر، التي كانت لا تزال قائمة، أقامت هلن على زوجها دعوى زنى، في المحاكم المدنية. نصح أحد المحامين الزوج بأن يتخلص من تهمة الزنى بإشهار إسلامه ممّا يمكنه من الزواج من صاحبته ومن تطليق هلن. إلا أن القاضي ذكّر المحامي أن دعوى الزنى لا يسقطها زواج متأخر. أما تطليق مسيحية عقد زواجها في الكنيسة بواسطة محكمة إسلامية، فرفضته مراجع دينية كما سياسية لأنه يهدّد السلم الأهلي في لبنان. مع هذا، قبل رجل دين مسلم تطليق هلن، مقارعًا حجة "الحفاظ على السلم الأهلي" بذريعة "حريّة المعتقد". وقد اعتبر رجل الدين المسلم الشيعي بلوغ هلن سن اليأس مسوّغًا لتطليقها، مما حملها على الاعتراض لدى مسؤولين دينيين وسياسيين على هذه النظرة "الشرعية"، معبّرة عن استغرابها من اعتبار حالة تطال النساء كافة، عاجلاً أم آجلاً، سببًا مقبولاً للطلاق، خاصة أن "اليائسة"، وفق الشرع الشيعي، يمكن أن تطلّق دون أن تحق لها النفقة!

لم تأخذ دائرة النفوس بوثيقة الطلاق. وقبلت هلن إسقاط دعوى الزنى مقابل تعويض قبضته. ولا يزال الزوج وفق سجلات النفوس متزوجًا من اثنتين، واحدة بعقد مسيحي وأخرى بعقد مسلم. ولا تزال هلن ناشطة في الجمعية التي أنشأتها. أما قضية إمكانية الفكاك من الزواج المسيحي، تلك القضية التي ناضل في سبيلها كثيرون لعقود كثيرة، فيبدو من قصة هلن أنها لا تزال موضوع بحث بين من يتمسك بكون "الزواج رباطًا مقدسًا معقودًا في السماء"، عندما يناسبه ذلك، وبين من يعتقد بوجوب الاعتراف بأن عواطف الناس عرضة للتغيّر، كحال أستاذ هلن الذي سجل الطالب أقواله وحال كثيرين من المطالبين بتسهيل الطلاق لمن يريده.

آيسل

تتحدّر آيسل من والدة لبنانية من طرابلس ووالد أرمني أتى بمفرده إلى لبنان إبان التطهير العرقي في زمن حكم مصطفى أتاتورك، في عشرينات القرن الماضي. كان أفراد من عائلته قد نجوا من مذبحة الأرمن (1915) باعتناق الإسلام، وبقوا عليه بدليل أن شقيقة آيسل زارت عمّها في تركيا سنة 1957، فوجدته قد غيّر اسمه لـ "عثمان" ووجدته وعائلته يعيشون كمسلمين ويحملون أسماء إسلامية. كان والدها قد فقد الصلة بعائلته من سنين طويلة، مات خلالها والديه دون أن يعلمه أحد بذلك. و لم يستعد الصلة بعائلة منشئه إلا عندما اتّصل به شقيقه عثمان في خمسينات القرن الماضي، طالبًا منه مساعدة ما. ومع أن الأتراك نفوا الأرمن وأبادوا أعدادًا كبيرة منهم، فالحضارة التركية بقيت متأصّلة في قسم كبير من الشعب الأرمني، بدليل أن والد آيسل سمّى أولاده الأربعة بأسماء تركية. واسم آيسل يعني "القمر" باللغة التركية.

عند قدوم والد آيسل إلى لبنان، استقرّ في مدينة طرابلس، حيث عمل في محل لصنع الحلويات. وكانت عائلة طرابلسية مسيحية، لها ابنة صبية تعمل في الخياطة، تسكن على مقربة من مكان سكنه. تعرّف الشاب الأرمني على جارته عندما قصدها لإصلاح بعض ثيابه، فأعجبته. وبعد مدّة قصيرة طلبها للزواج، فرحّب أهلها به لأنه

كان محبوبًا في الحي للطفه وكرمه. تزوجا وأنجبا أربعة أولاد، صبيين وبنتين، آيسل هي ثانيهم بعد شقيقها الأكبر.

انتقل الوالد إلى العمل في البناء. وعندما كانت زوجته تعـاني آلام المخاض وهي تضع آيسل كان هو يحاول إنجاز عمله بسرعة في كنيسة قيد الإنشاء ليكون إلى جانبها. ومن لهفته وتسرّعه سقط من سارية الكنيسة إلى الأرض. تعجّب كثيرًا لأن السقوط مـن مسـافة عالية لم يسبب له أذى يذكر، فاعتبر نجاته علامة على أن المولـودة ستجلب له معها حسن الطالع. ومن وقتها غدت آيسل الأثيرة لدى والدها من بين أولاده. وقد صدق توقّعه، إذ ما كادت أمها تلـدها حتى عرضت عليه وظيفة أفضل من التي كان فيها.

وبعد عدّة ترقيات استحقها الوالد لكفاءته في العمل، انتقلـت العائلة بحكم الوظيفة إلى بيروت وسكنت في حي المزرعـة. الحـق الأولاد بمدرسة قريبة من البيت. وتذكر آيسل أنها كانت تبكي عندما تعود يوميًا من تلك المدرسة، مطالبة والديها بأن يستعيضوا عن اسمها الغريب الذي غدت تكرهه بإسم "فاطمة". بقي الأولاد سـنتين في تلك المدرسة قبل أن ينقلهم والداهم إلى مدارس للراهبات. وفي تلك المدارس كانت معظم المواد تدرّس باللغة الفرنسية، فضلاً عن اللغـة العربية وبعض الإنكليزية. وخلافًا لمعظم الأرمن اللبنانيين لم يـتعلم أولاد هذه العائلة لغة أبيهم الأرمنية.

في بيروت، تشارك الوالد مع مقاولين كبار. وعنـدما بلغـت آيسيل العاشرة من عمرها كان والدها قد أصبح من أغنيـاء البلـد ووجهائه. وقد بقي على صلة بمجتمع مدينة طرابلس، مسـقط رأس زوجته. فكان يساند بعض سياسيي الشمال في الانتخابات. وغـدا

صاحب أشهر كباريه ليلي في بيروت الذي دعاه "الكـــاف دي روا" (أي كهف الملك)، ونشأت بينه وبين بعض رجال السياسة المرموقين صداقة وود. وكان من أصدقائه الدكتور فتحي عرفات، شقيق ياسر عرفات، الذي نزل في ما بعد ضيفاً على آيسل عندما كانت تقيم في الفيليبين.

أثناء امتحانات شهادة البكالوريا اللبنانية، جلس إلى الطاولـــة المجاورة لطاولة آيسل شاب جذاب اسمه هنـــري. اســـتعارت منـــه المسطرة ثم عرضت عليه أن توصله بسيارتها إلى بيته، بعدما عرفـــت من حديثها معه أنه يقيم في العمارة نفسها التي تقيم فيها صـــديقتها التي كانت قد اتفقت معها على أن توصـــلها عنـــد الانتـــهاء مـــن الامتحان. ومنذ ذلك اليوم كثرت زيارات آيسل لتلـــك الصـــديقة وأصبحت هي وهنري رفيقين. ولأن بيت هنري كان قرب الجامعـــة الأميركية، فضّلت آيسل أن تنتسب للجامعة الأميركية التي تـــدرّس باللغة الإنكليزية، اللغة الثالثة بالنسبة إلى آيسل، بـــدل الانتســـاب لجامعة القديس يوسف الفرنسية، حيث لغة التدريس هي اللغة الـــتي تتقنها أكثر من أي لغة أخرى. ومع أن والدة آيسل كانت متحـــرّرة تسمح لأولادها بالعيش في أجواء مختلطة، فقد كان علـــى آيســـل، إسوة ببنات العائلات من زمنها، أن تسمح لهنري بقضاء وقت مـــع فتيات أخريات من بيئات تختلف عن بيئتها، من وقت لآخر، ريثمـــا يتزوجان.

بقي هنري وآيسل صديقين مدّة خمس سنوات تخللتها دراستهما الجامعية في بلدين مختلفين. إذ درست هي إدارة الأعمال في الجامعـــة الأميركية ودرس هو الصحافة في جامعة القاهرة. وكانا يلتقيان أثناء

العطل التي كان هنري يقضيها في لبنان. وبعد التخرّج، طلب هنري يد آيسل من والدها قائلاً: "أحب ابنتك وأريد أن أتزوجها ولا أريد منك أي مساعدة مالية. وعندما أعلم أنها أخذت منك قرشًا واحدًا سأعيدها لك". وهكذا كان، فعاش الزوجان على ما يجنيه هنري، ولم يكن كثيرًا في البدء. وقد غضب كثيرًا عندما اشترت لها أمها في أحد الأيام ثوبًا أعجبها. سكنا في بيروت وأنجبا صبيًا وابنتين. وما لبث هنري أن حقق نجاحًا كبيرًا في عمله وتحسّنت كثيرًا أوضاع الزوجين المادية.

لم يعمل هنري في الصحافة التي درسها، بل توظف في شركة أميركية للمواد الكهربائية والألكترونية. وعندما نشبت الحرب الأهلية في لبنان (1975–1990) انتقلت العائلة مع وظيفة هنري إلى عمّان ثم إلى روما فهونغ كونغ. ولغلاء المعيشة وارتفاع كلفة العمل في هونغ كونغ انتقلت الشركة إلى الفيليبين حيث بقيت آيسل وعائلتها اثنين وثلاثين سنة. وسنة 1983 ترك هنري الشركة وأنشأ سلسلة من البارات وبقيت العائلة في الفيليبين حتى سنة 2006، حين تقاعد هنري وعادوا جميعًا إلى لبنان. وأثناء إقامتهم في الفيليبين توفي شقيق آيسل الأكبر، الأحب إلى قلبها.

لم تتوظف آيسل لكنها ساندت زوجها في عمله وكان لها اهتمامات خاصة بها محورها الخدمة الاجتماعية عن طريق الجمعيات. وقد أحبّت لعبة "البريدج" التي علّمها إياها والد زوجها. وفي أحد الأيام طلب مساعدتها أحد القيّمين على مؤسسة تعنى بتعليم ذوي الحاجات الخاصة وبمساعدة شباب لديهم مشاكل نفسية وسلوكية. ورغم أنها لم تكن متخصّصة في هذا النوع من العمل، فقد لمس

المسؤول عن المؤسسة تعاطفها مع الآخرين ولاحظ أن أسلوبها في المحادثة يريح الصغار والشباب فيأنسون اليها ويستسهلون التعبير لها عمّا ينوؤون به. كان عملها ذلك تطوّعيًا، وصارت تحادث بعض المدمنين وتنصحهم بلطف ورأفة، مما رفد ما كانوا يتلقونه من عناية مختصّة وساعد في شفائهم. ومن أحد نجاحاتها في تلك المؤسسة أنها ساهمت في شفاء شاب يعاني من هوس السرقة، فلا يستطيع كبح رغبته العارمة في أن يسرق ما تقع عليه يداه. وقد واكبته حتى عمل في بنك، وغدا يقاوم رغبته ويؤتمن على أموال فلا يقربها إلا ليحوّلها إلى المخوّلين استلامها.

وقد التقت عائلة آيسل في الفيليبين بثلاثة أشقاء لبنانيين، شابين وفتاة من مدينة عاليه فدعتهم الى الغداء في منزلها. كانت الفتاة تتخصص في طب الأسنان. وعندما عرفت آيسل أنهم يسكنون في منطقة غير لائقة لسكن فتاة شابة، عرضت على الفتاة الإقامة عندها كي لا تتعرض لخطر أو تجارب مزعجة. انتقلت الفتاة إلى بيت آيسل حيث مكثت حتى انتهاء تخصصها، وغدت بمثابة ابنة لآيسل بالتبني. وكان للأخيرة أبعد الأثر في تربية الفتاة وفي توجيهها في العمل والزواج وفي مساعدتها على إرساء علاقات جيدة مع أبناء زوجها الثلاثة من زواج سابق. ولا تزال الصلة بين المرأتين قائمة عبر الهاتف والتواصل الألكتروني ومن خلال زيارات الصبية لآيسل كلما أتت لزيارة أهلها في لبنان.

أما أولاد آيسل، فواحدة من بنتيها مجازة في العلوم السياسية ومتزوجة من مهندس ويعيشان في قطر. والابنة الثانية التي درست التصميم والرسم متزوجة من مهندس شيعي يعمل في نيجيريا. والأخيرة تقيم مع عائلتها في شقة قرب منزل والديها في بيروت

حيث يزورها الزوج كلما سمح له عمله. وآيسل التي تحب الطهي تطبخ يوميًا لعائلة ابنتها كما لعائلتها. أما الابن الوحيد للعائلة، فتوفي أثر حادث سير مفجع في مانيلا عندما كان في الثامنة والعشرين من عمره. ولا تزال الغصّة تجتاح قلب آيسل ووجهها كلما مرّت ذكراه بها وكلما صادفت ما يجعلها تستعيد تلك الذكرى المؤلمة.

وكأن الأقدار أشفقت من أن تصيب هذه العائلة الطيبة فاجعة جديدة، فدرأت عنها شفاعة القديس شربل العجائبية مصيبة أخرى. فقد وجد الطبيب ورمًا سرطانيًا في رأس حفيد آيسل الذي لم يتعدّ العاشرة من عمره. ومن لهفة العائلة أخذته أمه وجدته إلى محبسة القديس شربل طلبًا لشفاعته. وعندما كانوا خارجين من المحبسة تقدّم من الأم رجل يرتدي بذلة قاتمة غاية في الأناقة وأعطاها قرصًا مدملجًا. أرادت أن تعطيه ثمن القرص فشكرها قائلاً لها أنه ليس بحاجة إلى شيء لأنه ميت من زمان! استغربت العائلة هذا الحدث وبقيت متسائلة إن كان مزحة سمجة من ذلك الغريب. وكان القرص يحتوي على سرد لعجائب القديس شربل.

وبعد أيام، عند عودة الأم والجدّة برفقة الصبي من عيادة الطبيب، قال الصبي لهما إن الرجل الذي أعطاهم القرص كان يرافقهم طوال الزيارة. وبعد العملية الجراحية التي أجراها الطبيب المختص لاستئصال الورم من رأس الصبي، قال الصبي لعائلته أنه رأى الرجل الأنيق ذاته في غرفة العملية، واقفًا إلى جانب الطبيب، قبل الجراحة وبعدها. وعندما توجّه الجرّاح لطمأنة العائلة بعد العمليّة، أخبرهم أنه تعجّب من سهولتها بعد أن كان متخوفًا من خطورتها الشديدة. قال لهم: "وجدت امامي أوتوسترادًا يدلني على

الورم، فاستأصلته بمنتهى السهولة". والحفيد الذي أصبح شابًا هو الآن في صحة وعافية. ولا تزال العائلة تزور القديس شربل وتقدّم له النذور في فترات متقاربة.

لم أتعجّب من هذه المعجزة، فآيسل امرأة طيبة القلب وشجاعة في عمل الخير. وهي قرّرت مع شقيقها وشقيقتها أن يتبرعوا بما تدرّه البنايتين اللتين ورثوهما عن والدهم لتعليم فقراء واعدين حتى نهاية تخصّصهم. ولأنها موكلة بإرث العائلة، فهي القيّمة على تنفيذ رغبتها ورغبة شقيقيها. وفي معرفتي لها وجدتها لا تحب البذخ وتشفق من إغداق المال على أناقتها أو راحتها، مفضّلة أن تعيش ضمن المعقول المريح، لتتمكن من مساعدة المحتاجين. ومن الذين ساعدتهم عائلة آيسل على الدراسة من يعملون الآن في الخارج ويرسلون المال لأهاليهم.

والمفارقة الغريبة هي أن الجزء الأكبر من البنايتين اللتين ورثتهما آيسل وأخوتها عن والديهم ورصدوا ريعهما لعمل الخير محتلتين من مركز ديني كان قد استأجر منهم شقة من زمن، ثم احتل ثلاث شقق أخرى مع مستودعات البنايتين ومساحاتهما الأرضية. ولأن أكبر السطوة في لبنان هي للطوائف، ينصح الأصدقاء آيسل ألاّ تقيم دعوى لاسترجاع حقها وحق أخويها وحق عمل الخير الذي التزم الثلاثة به. وكل من تأخذ آيسل رأيه في الموضوع يقول لها أن دعواها ستقف في منتصف الطريق بسبب نفوذ المدّعى عليه، ولأنها حتى لو أخذت حكمًا فلن تجد من يجرؤ على تنفيذه. لكن آيسل مصمّمة على أن تخوض التجربة، من منطلقين وطني وحقوقي. فهي تحب أن تكتشف كيف سيتعاطى القضاء مع قضيّة بين معتدى عليهم لا سند لهم إلاّ الحق القانوني ومعتدي يشغل موقفاً طائفياً رسمياً.

ليندا

التقيت ليندا البالغة خمس وثمانين سنة من العمر في منزلها في الضيعة. جلسنا على شرفة وارفة تحيط بها الأشجار الباسقة والزهور العطرة. كل شيء في منزلها مثلها مهفهف زكي الرائحة. تضع على رأسها منديلاً ناصع البياض قالت لي إنها ارتدت مثله دائمًا، حتى في أميركا التي قصدتها لزيارة ابنائها المهاجرين. وقدّمت لنا الضيافة على صوان عليها مفارش من شغل الإبرة الكثير الأناقة والذوق، من صنع يداها. استقبلتنا بهمة ولطف وإلى جانبها ابنها الأكبر وزوجته. أخبرتني أن هذه الكنّة هي الأثيرة لديها، وقد اختارتها ليندا بنفسها عروسًا لابنها عندما رأت الاحمرار يعلو خدّيها أثناء حديثها معها. قالت: "استغربت وجود فتاة خجولة في هذا الزمن ففرحت بها".

أخبرتني ليندا قصتها بصوت منخفض، معتذرة عن ضعف سمعها. لكنني لم أجد أي صعوبة في التواصل معها، لا من حيث السمع ولا من حيث سرعة بديهتها ودقة ملاحظتها.

أخبرتني ليندا أن كلاً من والديها عرف اليتم من صغره. وعند بلوغهما مرحلة الشباب، أرادت عائلة الفتاة تزويجها بابن عمّ لها. لكن قبل إتمام العقد، لاحظت عمّة الفتاة أن شابًا آخر من أبناء الضيعة هو الأليق بابنة أخيها. عرّفت العمّة الشابين إلى بعضهما البعض، فوجدا أن فراسة العمّة كانت في محلّها، وتزوجا خطيفة وهربا إلى منزل شقيقة

العريس في البقاع. غضبت عائلة الفتاة وتوعّدت العروسين، مما جعل العروس تقبع في المنزل لعدّة شهور خائفة من انتقام العائلة. لكن ما لبث أحد العقّال من أعمام الفتاة أن جمع العائلة وطلب من أفرادها أن يتركوا العروسين لشأنهما. وكان ذلك حوالى سنة 1923.

أنجب الزوجان سبعة أولاد، ماتت منهم فتاة في صباها. وليندا هي ثاني أولاد العائلة. وقد أرسلا جميع أولادهما إلى مدرسة الضيعة الرسمية، لكنهما لم يحبذا تعليم البنات بعد سن العاشرة. كان في المدرسة حوالى الخمسين تلميذ وتلميذة وكانت ليندا من أنبههم. وقد شجعتها معلمتها المسيحية على متابعة دراستها في مدرسة عين زحلتا البروتستنتيّة القريبة من قريتهم، لكن أباها رفض طلب ابنته قائلاً لها: "ماذا يقول الناس عنا لو خرجت لوحدك من الضيعة لمتابعة دراستك؟" ترجّت ليندا خالها أن يتوسّط لها مع والدها، خاصة أن حافلة مدرسة عين زحلتا كانت تمرّ كل يوم في ضيعتهم، لكنه لم يفعل. فانبرت تشغل وقتها بالحياكة والتطريز وتقرأ كثيرًا. وقد نسيت معظم ما تعلمته من اللغة الإنكليزية، وغدت كل قراءاتها بالعربية، وأكثرها كتب دينية.

لأنها بقيت حتى الحادية والعشرين من عمرها من دون زواج كانت أمها تخوّفها من العنوسة مذكّرة إياها بإحدى نساء الضيعة التي لم تقبل بمن تقدّم لخطبتها فبقيت في بيت أبيها. كانت تقول لها: "إن كانت شفيقة تزوجت ستتزوجين". كان سبعة أو ثمانية شبان من عائلتها يريدون الزواج بها لكنها لم ترغب بالزواج بأي منهم. وحتى لا تقول أنها أحبت من غدا زوجًا لها، علّلت تفضيلها له بأنها اعتقدت أنه من الأفضل أن تتزوج من خارج العائلة حتى لا يحصل خلافات بين الأهل. ولعلّ حدسها المطابق لتوصية النبي محمد

(صلعم) "اغتربوا تنجبوا (أي تلدوا نجباء)" حدا بها إلى اختيار زوج من غير أقربائها. والشاب الذي تمّ النصيب عليه كان من ضيعتها، لكنها لم تكن تعرفه. أمه اختارتها له، وهو قال إنه رآها عندما كانت صغيرة فأعجبته. كان دركيًا يكبرها بخمس سنوات. أخذتها أمه معها ومع آخرين في رحلة إلى بعلبك كي تلتقي به. في الطريق كانت تلبس "الحبرى" التي تخفي وجه الفتاة وجسدها، فخلعتها في الحافلة وصارت تلوّح بها في الهواء. تقدّم الدركي لخطبتها فقبلت عائلتها به. لكن حساباتها بالنسبة إلى طالبيها من العائلة والإبقاء على الوفاق بين الأهل لم تكن في محلها إذ خاصم عائلتها معظم أقربائها، ممّا جعل والدها يغيّر رأيه ويشير عليها بأن تترك خطيبها إرضاء للعائلة. احتارت ليندا وبكت كثيرًا من حيرتها، ثم قررت أن تتزوّج خطيبها خطيفة وذهبت معه إلى مدينة زحله، مقرّ عمله.

سعدت ليندا برفقة المسيحيين في زحله، ولم تمتعض عندما كانوا يستغربون كونها درزية وبهذا الجمال وهذه الأناقة. ومن فرط حبها لهم سمت ابنها "سيمون"، تيمّنًا باسم أحد تلامذة السيّد المسيح. وبعد بضع سنين انتقلت العائلة إلى بيروت حيث أقامت ثلاثين سنة في منطقة ساقية الجنزير. وهناك استكملت ليندا وزوجها إنشاء أسرتهما التي ولد لها سبع أولاد، أربعة صبيان وثلاث بنات.

شجع الزوجان أولادهما على العلم فتخرّج جميعهم من الجامعات، البنات كما الصبيان. كانت حماتها تقول لها أن توجّه البنات إلى الأعمال المنزلية وأن تقتصر في تعليمهن، لكنها لم تفعل وأصرّت على دعمهن لأكمال دراستهن الجامعية.

لليندا الآن ما يربو على العشرين حفيدًا وحفيدة. واثنان من

أولادها يعيشان في أوستراليا وواحدة في الولايات المتحدة. أما ابنها البكر فبقي في الضيعة التي عاد اليها الوالدان بعد زواج أولادهما.

قالت لي ليندا إنها تقضي وقتها في شغل الإبرة وفي الكتابة: "على قدر ما أعرف، فأنا لم أتعدّ في دراستي الصف الخامس ابتدائي". نشر لها أحد أبنائها كتاب "ذكرياتي" الذي يروي قصصًا عن أهل ضيعتها. وهي تكتب الشعر العامي أيضًا. منه ما كتبته لابنها سيمون تحثّه على زيارتها فتقول:

لا تلومني يا ابني إذا جنيت

وتقول هاي أمي إختيارة

صرت عم ضيّع طريق البيت

وأوقف عباب البيت محتارة

سراج أمك خلص منو الزيت

فكّرت استقرض من الجارة

إذا من صوبنا شي يوم مرّيت

امرقلك على هالدار شي زيارة

قديش صرت قايله "يا ريت"

ما نفعت الـ "يا ريت" يا خساره

بدك تكون أمك يا ابني نسيت

لكن أنا ما نسيت لما جيت

وسمعت بإذني هيك البشارة

تقول إنها غير متعصّبة دينيًا مع أنها كانت تذهب إلى المجالس الدينية منذ كانت في الخامسة من عمرها، لكنها لم ترد أن تصبح "جويدية" لأنها لا تؤمن بالمظاهر وترى أن كثيرين يكذبون على أنفسهم فيتظاهرون بالتمسك بالتقاليد العتيقة وهم على غير ذلك. أما بالنسبة إلى الزواج من غير دين أو غير طائفة فتقول إن زواج أحد أبنائها من مسيحية وابن آخر وإبنة من مسلمين لم يحزنها و لم يفرحها، لكنها تعتقد أن الزواج من الطائفة نفسها هو الأسهل للزوجين. تقول إن أهل الضيعة كانوا يسمعونها كلامًا وانتقادًا عندما كان أحد أبنائها يتزوج من خارج ملّته، فكانت تقول لهم: "لماذا يحق للزعيم وليد جنبلاط الزواج من غير ملّته أما ابني، لأنه فقير، لا يحق له؟!"

هي ميالة للإيمان بالتقمّص (تناسخ الأرواح) بسبب ما رأته أكثر منه بسبب ما تمليه العقيدة. فقد ماتت لها شقيقة في الثانية والخمسين من عمرها، وبعد حوالى الست عشرة سنة جاءتها صبية من الضيعة المجاورة تحضنها وتناديها بـ "يا أختي". وأخبرتني أن شابًا يدعى نبيلاً قتل في الحرب الأهلية وعاد فولد في مدينة عاليه. كان يقول لجده هناك "أنا نبيل من ضيعة بتلون". ولما جيء به إلى الضيعة القديمة أشار إلى آثار الخردق حيث كان في حياته السابقة يتدرّب مع خاله على الرماية.

ذكاؤها يجعلها واسعة الأفق مع أن حياتها تتمحور حول العائلة. تقول "غلبتني العائلة بالعاطفة فقضيت الوقت بالانتظار". أخبرتني أنها زارت أميركا ثلاث مرات فوجدت "مثل هنا مثل هناك". وقال لي زوجها التسعيني المحتفظ بطلة الدركي وهيبته أنها عندما زارت أحد أبنائها في أستراليا حاكت لعائلته اثنتي عشرة كنزة في ثلاثة أشهر!

وعلّقت على قوله شارحة بأنها كانت هناك تأرق في الليل فتقضي الوقت بالحياكة.

فهمت منها أنها لا تحب إضاعة الوقت أبدًا. فبعد أن أنهت واجبات أم العائلة الكبيرة واستقلّ أولادها أخذت تملأ زمن انتظارها لزيارات أبنائها بالشغل اليدوي وبالكتابة. فهي تكتب القصص والقصائد والمذكرات، ولا تدري ما سيفعله أولادها بكل هذه الكتابات من بعدها.

ماري

ماري من المتن الأعلى في جبل لبنان. معظم سكان ضيعتها من الطائفة الكاثوليكية. وهي ضيعة اشتهرت من زمن بعيد ببراعة أبنائها في تشييد الأبنية الحجرية. في الزمن القديم كانوا يصنعون للبيوت قناطر داخلية (عقد) تتشكّل من أحناء تدرّجي للقسم الأعلى من الجدران بحيث تلتقي في وسط الغرفة. أما مؤخرًا فغدوا يشيدون الأبنية الحجريّة مستقيمة الجدران والسقوف، فلا يميّزها عن الأبنية الحديثة سوى كونها أكثر حفظًا للحرارة في الشتاء وللبرودة في الصيف. وبناء البيوت الحجرية كانت مهنة والد ماري وهي ما امتهنه أيضًا زوجها وما زال ابنها يقوم به.

في صغرها، ألحق ماري والداها بمدرسة الضيعة. لكنها لم تذهب بعيدًا في الدراسة، مكتفية بالمرحلة الابتدائية منها. وما لبثت أن تزوجت وهي في الخامسة عشرة من عمرها من رجل في السادسة والأربعين. أنجب الزوجان ابنتين وصبيًا، أسمياه إلياس، هو الأوسط بين شقيقتيه. وعندما كبرت الفتاتان تزوجتا تقليديًا، كما يحصل عادة في الضيع حيث الأولوية للستر وللحفاظ على الاستمرارية العائلية. أما قصة عذابات ماري التي لا تفتأ تردّدها فهي قصة زواجي ابنها الفاشلين وما تكبّدته العائلة من جرائهما.

وتفصيل ذلك أنه عندما كان إلياس في الحادي والعشرين من

عمره، عرض عليه زوج شقيقته فكرة الزواج من فتاة كان خالها يسكن في نفس عمارة الشقيقة. وقد زكّى الصهر الفتاة بقوله: "هي فتاة عاقلة. أرادت في ما مضى أن تصبح راهبة".

قالت ماري إن عائلة الفتاة ضغطت على عائلة ماري للإسراع في عقد زواج إلياس على ابنتهم. فما إن وصل إلياس وعائلته إلى بيت الفتاة، في أول زيارة قاموا بها للتعرّف إلى الفتاة وأهلها، حتى أطلقت جدة الفتاة زغرودة كما في الأعراس. وخلال زيارتهم القصيرة لعائلة كنّتهم العتيدة، نصح والد الفتاة إلياس بأن يتزوج ابنته "خطيفة"، لأنه (أي والدها) لا يملك المال لتجهيزها أو لإقامة احتفالات زواج لها أو حتى للمساهمة في ما تتطلّبه التقاليد من ضيافة للمهنئين. وزيادة في الضغط على إلياس وأهله كي يسرعوا في إتمام الزواج، تكلّم والد الفتاة عن الإحراج أمام الجيران إن لم "يتمّ النصيب"!

كان لوالد الفتاة ما أراد، فذهبت ابنته إلى منزل عائلة إلياس، كما يحصل عادة عندما "يخطف" العريس العروس من أهلها. ولحقت بها والدتها وامرأة خالها، الإشبينة، التي أقنعت عائلة إلياس أن تشتري لها ثوبًا ترتديه في حفل الإكليل. وتمّت مراسم زواج إلياس وعروسه في كنيسة ضيعة العريس، بعدما قامت عائلته بتحمّل جميع تكاليف العرس وحفل الغداء الموسّع للأهل والأصدقاء، بالإضافة إلى كامل جهاز العروس. وبعد إتمام مراسم القران، سكن العروسان في بيت العائلة مع والدي إلياس.

ابتدأت المشاكل عندما شعرت والدة إلياس أن ابنها وزوجته يطمعان في الاستئثار ببيت العائلة وبما لها من أراض وممتلكات، وأنهما يخططان لإقصاء شقيقتي إلياس عن حقهما في الميراث. فتقول ماري أن

إلياس، بإيعاز من زوجته ووالدها، طلب من والده أن يكتب بيت العائلة باسمه. وقد وعده والده بأن يلبي له هذا الطلب حالما ينجب ولدًا ذكرًا. غضبت ماري من هذا الوعد، ومما زاد غضبها على ابنها وزوجته أن إلياس طرد إحدى شقيقتيه من بيت والديها طالبًا اليها أن تنقطع عن زيارهما. وكانت الشقيقة حينئذ برفقة ابنتها الصغيرة التي تحبها ماري كثيرًا وتفرح بزياراها. فما كان من ماري إلا أن تصدّت لابنها قائلة: "كما حملتك وأرضعتك حملت شقيقتيك وأرضعتهما. كما أنهما أحنّ عليّ وعلى والدهما منك، فلماذا تعتقد أنه ينبغي أن نفضّلك عليهما؟"

بعد هذه الحادثة ببضعة أشهر، وفي عز الشتاء وعواصفه الثلجية، ولد لإلياس وزوجته طفلة، بعد أن جازفت العائلة بسلوك طرقات جبلية تتراكم الثلوج عليها من أجل الوصول إلى المستشفى. وعند ولادة الطفلة، تعجبت ماري من البكاء والعويل اللذين استقبلتها بهما جدّها الأخرى، فعزت ذلك إلى خيبة أمل المرأة من استيلاء ابنتها على بيت العائلة، وفق وعد والد إلياس لابنه. وبعد أشهر من الولادة، طلبت زوجة إلياس الانتقال من بيت والدي زوجها إلى بيت خاص بهما وبابنتهما، فكان لها ما أرادت. لكنها ما لبثت أن أخذت طفلتها إلى بيت أهلها، وبقيتا هناك مدة طويلة. ولما نفذ صبر إلياس من هجر زوجته له، اشتكاها إلى رجل دين. لكن الخوري أجابه أنه يحق لها البقاء عند أهلها سنوات، إلى أن تودّ العودة، وليس عليه سوى الانتظار. عندئذ قالت ماري لابنها: "إن أردت زوجتك الحق بها، وإن أردت البقاء معنا فليس أمامك سوى تغيير دينك."

ذهب إلياس إلى المحكمة الشرعية وأشهر إسلامه. وبعد فترة قصيرة، لحق به والداه إلى اعتناق الإسلام. لكن هذه الخطوة التي سمحت

لإلياس بالزواج من أخرى، بسبب سماح الإسلام بتعدد الزوجات، لم تؤد إلى طلاقه من زوجته المسيحية. فوفق القوانين اللبنانية، يناط الحق الحصري في إبطال الزواج أو الطلاق بالمحكمة التي تمّ الزواج تحت سلطتها، ولا يجوز لدين آخر أن يتدخل في عقد لم يبرم تحت سلطته. وبعد مدّة، أقامت الزوجة لدى المحاكم الكنسية دعوى إبطال زواج بحجة أن زوجها غيّر دينه، فربحت الدعوى. وبالإضافة إلى البطلان حكمت المحكمة الدينية على إلياس بأن يدفع لزوجته مبلغ خمسين مليون ليرة. وأخبرتني ماري أن الإبطال لم ينفذ رسميًا حتى الآن، لأن تنفيذه يحتاج إلى دفع رسوم ما زال كل من الزوجين يتهرّب من تسديدها.

بعد إحدى عشرة سنة على فشل زواجه الأول، طلب إلياس من صديق له متزوج من فتاة مسلمة من جنوب لبنان أن يعرّفه بفتاة كالتي تزوّجها. وبعد برهة أتى الصديق بفتاة إلى بيت إلياس، فأقامت عندهم زهاء أسبوعين. وعندما ذهب إلياس وأهله للتعرّف على أهل الفتاة غدرهم رجل دين كان في بيت أهل العروس بأن كتب كتاب إلياس على الفتاة دون أن يخبر العريس وأهله بالأمر، متحجّجًا أنه فقط يدوّن بعض المعلومات درءًا للإحراج. وتقول ماري إن رجل الدين هذا طلب اليهم لاحقًا ألاّ يخبروا أحدًا بما فعل لأنه قد يقع في ورطة قانونية كبيرة لأنه لم يعطهم مجالاً لإجراء الفحوصات الطبية التي يفرضها القانون على المقدمين على الزواج! هذا السلوك جعل ماري تفقد ثقتها بالفتاة وأهلها، لكنها سكتت على مضض علّ الأمور تسير إلى خواتيم مقبولة بين العريسين.

بعد انقضاء ثلاثة أشهر على الزواج، تركت الزوجة الجديدة بيت الزوجية وذهبت إلى بيت أهلها. بعد ذلك، طلبت أن يكون لها

بيت مستقل عن أهل إلياس، فنفذ إلياس وعائلته طلبها. وبعد مدّة قصيرة من إقامتها في بيتها الجديد، عادت وتركت البيت بحجة أنه ليس بيتًا شرعيًا. أرسلت المحكمة خبيرًا فوجد أن البيت مقبول كمنزل شرعي. ولما طلب إلياس زوجته إلى "بيت الطاعة"، طلبت زوجته الطلاق، شاكية إلى القاضي أن زوجها وعائلته طردوها من البيت عندما كانت على وشك الولادة، وأن معشرهم ليس بيئة صالحة لها كي تمارس واجباتها الدينية، من ارتداء حجاب وصلاة وخلافهما.

حصل الكثير من الأخذ والرد قبل إتمام الطلاق. وتقول ماري إن مختار ضيعة الفتاة كان متواطئًا معها، فلم يكن يبلّغ عائلة إلياس بمواعيد استعادات المحكمة وأوقات انعقاد الجلسات. بالمقابل، تبلّغ أهل إلياس عدّة مرات بوجوب تسديد مال إلى الزوجة لقاء ولادتها ومصاريف أخرى لها ولطفلتها. وكانت المبالغ المطلوبة مبالغًا فيها وأكثر بكثير، في تقدير ماري، من المتوقّع والمألوف. ومن جرّاء النكد وفقدان الثقة بين الزوجين، طلب إلياس فحص جيني للطفلة، فجاءت النتيجة مثبتة أبوّته لها.

وأخيرًا تمّ الاتّفاق على أن تدفع عائلة إلياس للزوجة اثنين وعشرين مليون ليرة لبنانية، وتمّ الطلاق دون اتّخاذ أي إجراء يسمح للوالد برؤية ابنته.

لإلياس الآن ابنتان من زوجتيه السابقتين، واحدة مسيحية وواحدة مسلمة، لأن دين الطفل يلحق دين والده، وفق القانون اللبناني. وهو لم يطالب بحق المشاهدة لأي منهما. وفي مقابلاتي لها، كانت ماري تغيّر دفة الحديث كلما كنت أسألها عن مصير

الطفلتين وكلما أثرت موضوع حرمانهما من والدهما وحرمان الطفلة المسيحية من أن ترث والدها لأن القانون اللبناني ينص على أنـــه لا يستفيد الأقرباء من حقوقهم في الإرث ما لم يكونوا من نفس ديـــن المورّث.

وكانت ماري تصب اهتمامها على انتقـــاد رجـــال الـــدين، مسيحيين ومسلمين: المسيحيون لطلبهم غير المعقول وغير الإنســـاني إلى الزوج أن ينتظر زوجة هجرته لأجل غير مســـمّى، والمســـلمون لتحيّزهم للمولودين في طوائفهم على حساب من اعتنـــق الـــدين في وقت لاحق. وهي تنتقد رجال الدين هنا وهناك لاعتبار كل فئـــة أن الدين الآخر هو "بيئة غير صالحة" لزوجة أو ابنة تدين بغيره. فهـــذا التحيّز، في نظرها، هو غير قانوني ويؤدي إلى كـــثير مـــن الظلـــم والإجحاف ويحدّ من إمكانية تطبيق القانون الذي يصـــون حريّـــة المعتقد.

وقصّتي زواج ابنها جعلتا ماري خـــبيرة في شـــؤون الأحـــوال الشخصية بحسب المسيحية والإسلام وفي الثغرات التي تتضمنها قوانين وممارسات كل منهما. وهي ترفض أن تعترف بأن تغـــيير الـــدين في عائلتها انطوى على تحايل على القانون كي يتمكن ابنها من الـــزواج بامرأة غير الزوجة التي هجرته، بل تخرج الحجاب من حقيبتها لتبرهن أنها وعائلتها اعتنقوا الإسلام فعلاً وليس صـــوريًا. أمـــا الطفلتـــان، حفيدتاها، فلا يبدو أنها تفطن كثيرًا اليهما ولا قبلت أن تتحدّث عن أمرهما، رغم محاولاتي المتكررة لحملها على التعبير عـــن شـــعور أو موقف إزاءهما. كذلك، أصرت ماري على المرور "مـــرور الكـــرام" على موضوع زواجها المبكر وغير المتكافىء عمريًا. فهـــي تعتـــبر أن

السبب الوحيد لقهرها في هذه الحياة هو زواجا ابنــــها الفاشـــلان، وتواطوء رجال الدين مع عائلتي كنتيها. والغريب في روايتها أنها تعتبر أن هذا الفشل المتكرر هو مأساة حياتها هي. فهي "بطلة" القصة التي لا تفتأ ترويها لمن تحادثهم. وفي روايتها يحتل ابنها وحفيدتاها مواقعًا ثانوية، وتلعب كنتاها وعائلتاهما ومن ساندهما من رجال الدين أدوار الأشرار الظالمين.

بدويات

قيل في مدح البداوة: "عندما تأوي إلى بيت لا تعود أفكارك ترتفع أكثر من سقفه لكن عندما تنام في العراء قد ترتفع أفكارك لتطال النجوم". وقيل في ذمّها حديثًا شريفًا يصف التعرّب (أي البداوة) بعد الهجرة على أنه من الكبائر. والنساء الأربع المذكورات في هذا القسم من السير ينتمين إلى عائلات هجرت البداوة واستقرّت في مدن أو في أراض زراعية. لكنهن احتفظن بخصائص من بقايا ماضي بداوة قبائلهن. ومنها خصائص جميلة، يجدر الحفاظ عليها.

نبيلة (أم سعاد)
وسعاد (إسمان مموّهان)

لم يكن العهد بعيدًا بين استقرار قبيلة نبيلة في بيروت وبين البداوة والترحال. فهي قبيلة غادرت العراق منذ حوالى أربعة أجيال، وتنقّلت بين بيروت وجنوب لبنان وفلسطين. والعارفون بأنساب العرب يقولون إنها يعود نسبها إلى مشايخ أعراق انتهى بعض فروعها إلى الاستقرار في مدينة بيروت. وفي هذا الخيار فرادة ملفتة، إذ غالبًا ما كان البدو يستقرون في أراض زراعية أو قرب مراع يسرّحون فيها مواشيهم. وسرعان ما طبع هؤلاء البدو "البيارتة" الجدد بخصال مدينية قرّبتهم من الفعالية والعملانية والتنظيم، ولاحقًا من الطموح العلمي والمالي والسياسي. لكن خصال البداوة المتأصّلة فيهم أبقت على تعاضد الأقرباء وتعايشهم في أمكنة متقاربة وعلى إقامتهم أكبر الاعتبار لقيم الكرم والوفاء والثبات على العهد ومراعاة التراتبيّة العمريّة في الاحترام والبذل.

رجال كثر من عائلة نبيلة عملوا في تجارة الأغنام، أما والدها فكان لحّامًا. ونبيلة هي الابنة الثانية في اسرة لها أربع بنات وصبي واحد. ولما كبر والدها في السن وخفّت همّته صارت هي وأخواتها يساعدنه في سلخ الخرفان وتقطيعها، بينما كان أخوهنّ يأنف من

هذه الأعمال ولا يقربها. وفي اضطلاعهنّ بهذه المهمات شذّت نبيلة وأخواها عن العادة والمألوف، إذ كانت هذه الأعمال تعتبر من المهمات المقصورة على الرجال.

في سن السابعة والعشرين، المتأخرة كثيرًا عن سن الزواج في حسابات ذلك الزمن، تزوّجت نبيلة من قريب لها اسمه علي. كان علي بهي الطلعة مفتول الشاربين، وهو قريب لها وابن فخذ عالي النسب من عشيرتها. وقد كانت نبيلة زواجه الثالث بعد أن طلّق كل من زوجتيه الأولتين لأنه كان صعب الطباع يريد من زوجته طاعة تامة. ولم تكن نبيلة جميلة الطلّعة كزوجها لكنها كانت ذكية ومدبّرة وملتزمة إلى أبعد الحدود بصفات الزوجة المثالية، حتى إنها عندما توفي والدها، وكان منزله بالقرب من منزلها، لم تذهب إلى بيت أهلها وانتظرت مجيء زوجها كي تستأذنه بالذهاب إلى منزل ذويها. وعندما وجدها علي تبكي والدها وحدها في البيت، لامها على مغالاتها بالتمسك بما اعتبرته سلوك الزوجة الصالحة.

كان علي ضابطًا في جيش الشريف فيصل ثم مفتشًا في شركة السكة الحديدية (كوبانية الترامواي). أنجب ونبيلة أربعة صبيان، كان واحدهم يموت قبل أن يولد الثاني. وقبلما مات آخرهم واسمه صلاح كان أبوه ينشد وهو يلاعبه: "يا صلاح الدين اللّه يخليك لعلي المسكين". لكن ما لبث صلاح الدين أن لحق بإخوته.

مات علي قبل أن يصل إلى الخمسين من عمره، بعد أقل من سنتين من وفاة ابنه الرابع. وقبل وفاته بمدّة قصيرة، أعطى زوجته الحامل مالاً كان قد ادّخره وقال لها: "ستلدين هذه المرّة فتاة ولا أريدها أن تقاسي العوز، فاقتصدي في إنفاق هذا المال عليكما حتى

لا تحتاجا لأحد. ووصيتي لك ألاّ تدعيها تتعب وتتبهدل في يوم من الأيام". وكانت نبيلة عند وفاة زوجها في السادسة والثلاثين من عمرها.

عاشت نبيلة وابنتها سعاد سنوات على ما تركه علي لهما من مال. وكانت نبيلة تغدق عاطفة الأمومة على ابنتها وعلى عائلتها وأصدقائها. فمثلاً، عندما لم يرض أخوها أن يكمل تجهيز ابنته بأن يشتري لها حذاءً أبيض للزفاف، اشترت نبيلة للفتاة ما أرادت، ممّا جعلها العمّة الأعز والأقرب إلى قلب ابنة أخيها. وعندما جرحت والدة نبيلة وهي تعيش في بيت ابنها، أخذت نبيلة أمها للإقامة معها ومع ابنتها، بعد أن عرضتها على طبيب مختص قدّم للأم ما كانت تحتاجه من عناية. وبقيت الأم في بيت نبيلة حتى جاء أجلها.

كانت قد جمعت بين عشيرة نبيلة السنيّة وبين عائلة بقاعية شيعيّة ذات مكانة في السياسة اللبنانية صلات صداقة أوجدت مودّة بينهما وولاء من واحدهما تجاه الأخرى. فكانت العائلة تستضيف عشيرة نبيلة كلما تأزّمت الأحوال السياسية أو المعيشية في بيروت، كما كانت عشيرة نبيلة تستضيف رجال العائلة ونساءها كلما قصدوا العاصمة في أمر ما. ويقال إن الصداقة بين العشيرتين تعود إلى قبل الحرب العالميّة الأولى، إذ عندما سجن العثمانيون كبير العائلة السياسية كان أبناء القبيلة الصديقة يأتونه يوميًا بكل ما يحتاجه من مأكل وخلافه. وفي أيام سفر برلك، أبان تلك الحرب، عزّ العيش في المدن وكانت الأرياف، أو بعضها، أفضل حالاً، إذ تمكّن أهلها من تخبئة بعض المؤن عن الجند العثماني الذي كان يصادر جميع الغلال.

في تلك الفترة العصيبة انتقل قسم من القبيلة، ونبيلة بعد طفلة، من بيروت إلى كنف أصدقائهم في البقاع مما ساعدهم على البقاء في ظروف المجاعة التي عمّت البلاد حينئذ. وعندما اشتعل القتال في بيروت بين جيش فرنسا الحرة وجنود حكومة فيشي، سنة 1944، انتقلت عشيرة نبيلة مرّة أخرى إلى منطقة العائلة السياسية، وبقوا عندها حتى استتباب الأمر للحلفاء وانتهاء الحرب العالمية الثانية. وبالمقابل كان شباب العائلة البقاعية الملتحقون بالمدارس والجامعات في بيروت ونساءها القادمات إلى العاصمة للتبضّع يعتبرون أبناء تلك العشيرة الأصيلة أهلاً لهم فيقيمون عندهم أو يكثرون من زيارتهم.

وصدف أن كان منزل نبيلة وابنتها قرب المنزل البيروتي لزعيم العائلة السياسية عينها، وكان وقتها يعيش مع امرأة غير زوجته، إذ بقيت الزوجة في الريف. وقد تعلّقت المرأة، التي لم يكن لديها أولاد بسعاد وكانت تستبقيها معها وأحيانًا تقضي الطفلة الليل عند المرأة وصديقها. وهكذا نشأت بين أصحاب المنزلين المتجاورين صداقة حميمة شجع قاطنيهما عليها التقارب والصداقة القديمين بين أبناء العشيرتين. ولما أجبرت عائلة السياسي ابنها على التخلي عن عشيقته واتّخاذ زوجة ثانية من عائلة تناسب مقامه، طلب الرجل من نبيلة أن تنتقل للعيش معهم، لأن عروسه كانت صغيرة، لا دراية لها بشؤون البيوت وبالمطلوب من زوجات السياسيين من مهام.

عاشت نبيلة مع تلك العائلة ما يقارب العشرين سنة كانت خلالها تشرف على البيت وسكانه. فكانت تغار على مصالح العائلة وتحب أبناءها وكأنهم أطفالها الذين لم تبق الأقدار لها منهم سوى سعاد، فتفتخر بنجاحاتهم الدراسية أكثر من افتخار والديهم بها.

وقد يكون لتفضيل نبيلة الذكور على الإناث من أبناء العائلة علاقة بشوقها إلى أبنائها الذين فقدهم، فكانت تتحيّز دائمًا للذكور عندما يحصل خلاف بين الأولاد، معبّرة عن اقتناعها بأن البنات قادرات دائمًا على تخليص أنفسهنّ وأن الصبيان هم قليلو الحيلة. فعندما يدب الخصام بين إحدى البنات وأخيها كانت تقول لها: "آه يا حواء، أضربي على ركبتك وطلّعي بربوكتك (حيلتك)" لتردف: "مسكين هو، إنه صبي فلا يعرف كيف يتدبّر أمره". ولعلّ فشل أبنائها الذكور في البقاء على قيد الحياة وبقاء ابنتها الوحيدة لهما علاقة بوجهة نظرها هذه. لكنها أحبت جميع الأولاد، ذكورًا وإناثًا وكانت تعنى بتعليم الفتيات أمور الطبخ والخياطة والترتيب قائلة: "على البنت أن تقدر على القيام بكل المهام والتصدّي لكل الأمور"!

وكانت لنبيلة في العائلة التي استقرت عندها مكانة ومحبة كبيرتان، خاصة عند الأولاد الذين كانت تعمل على تهذيبهم ونقد تجاوزاتهم بكل حدب وعناية يشوبهما بعض النزق وخفة الدم. فكانت تطلق الألقاب المضحكة على شديدي النحافة من الأولاد وتقول لمن يكمل طعامه: "صحتين وصحة وأربع عوافي معها واللي ما بتقول لك صحة ريتها بطنها توجعها." وعندما يوبّخ أحدهم طفلاً على افتعال فوضى أو التسبب بدلق الحليب أو الشاي على الأرض كانت تقول للطفل: "قل لهم، أنا حرّ والأرض للسلطان". وكان كبار العائلة يتندرون في أنهم عندما يذهبون إلى نزهة أو سيران، يجدون مع نبيلة كل ما يحتاجونه إن طرأ عليهم صداع أو ألم في المعدة أو جرح أحد الأولاد أو حتى إذا انقطع زر أو تمزّق قميص.

وكانت الأم، صغيرة السن، في تلك العائلة، تحرم نبيلة من الالتقاء بابنتها، التلميذة في المدرسة الرسمية، كلما علمت بوجود مرض في المدينة كالحصبة وأبو كعب وجدرة الماء وغيرها من أمراض الطفولة التي أصبحت الآن شبه منقرضة بسبب التطعيم. فهي كانت تخاف أن تنقل الفتاة العدوى لأطفالها. وفي تلك الأحوال، كانت الفتاة تكلّم أمها من الشارع بينما تقف أمها على الشرفة وتتحادثان عن بعد، وكلاهما تتألّم لهذه المسافة القاهرة بين الأم وابنتها. ولكن فصل الصيف كان فترة بقاء الأبنة مع أمها في الجبل حيث تصطاف العائلة التي تعمل الأم لديها. وكانت سعاد تحب الأولاد فتهز سرير الطفل وتصنع الثياب لمسرحيات يؤلفها ويمثل فيها الأولاد الكبار.

عندما أصيبت نبيلة بمرض الروماتيزم الذي أقعدها الفراش كانت ابنتها متزوجة. أقامت نبيلة في بيت سعاد التي حدبت عليها بكل محبة وعناية. وكان يزورها في غرفتها كثير من صبايا عشيرتها وشبابها وجيرانها، فكانت تحدّثهم بأمور السياسة التي تستمع الى أخبارها عبر المذياع، خاصة أخبار الانقلابات المتتالية في أفريقيا. ولسبب ما اهتمت كثيرًا بصراع لومومبا من أجل الاستقلال ولامته فيما بعد على قرارات اعتبرتها متهوّرة.

أما اهتمام نبيلة بمن حولها من الصغار والشباب فكان مشهودًا. فكانت تهتم كثيرًا بالنجاح أو الرسوب بالامتحانات وبكل من يخطب أو يتزوّج من الشباب. أما فرحتها الكبرى فكانت عندما يولد طفل ذكر لأحد معارفها، فتطفق تصلي على النبي ووجهها منّور وعيناها تبرقان. ولم تكن تتوانى عن تقديم النصح، كأن تقول لصبية "إذا استمريت في لبس هذه الثياب القصيرة لن يتقدم أحد لخطبتك".

فكان الكثيرون، خاصة الشباب، يترددون على منزلها المتواضع وكانت الأمهات يقصدنها لاستشارتها في أمورهن العائلية. وبقيت هذه حال نبيلة: متيقظة إيجابية محبة وخفيفة الظل حتى جاء أجلها، فحزنت سعاد كثيرًا على فراقها، وشعر كل من عرفها بالفقدان لحضورها الإيجابي المندفع الذي قلّ مثيله ولما لها من خفة روح وبراعة في التعبير الصريح عن أفكارها المشبعة بخبرتها في الحياة.



سعاد

ولدت سعاد سنة 1933 بعد عشرين يومًا على وفاة والـــدها. وعاشت طفولتها الأولى مع والدتها وجدتها لأمها. وبعدما نفـــذ مـــا تركه لهم والدها من مال، توظفت أمها مديرة لمنزل سياسي كبير من أصدقاء عشيرتها. غدت سعاد لا ترى أمها إلا في أيـــام العطـــل وفي المساءات التي تعود الأم فيها إلى البيت. ولأن بيتهما كان "من غـــير رجل" كانت نبيلة تطلب من سعاد أن تستأذن عمها كلمـــا أرادت الذهاب إلى غير المدرسة وفي كل قراراتها الهامة.

انتسبت سعاد إلى مدرسة رسمية قريبة من بيتها، لكنها لم تكمـــل الدراسة بعد المرحلة الابتدائية. فما إن بلغت الحادية عشرة من عمرهـــا حتى اشترى لها عمها حجابًا مع غطاء للوجه (فيشـــه) وطلـــب اليهـــا ارتداءه في رواحها ومجيئها. قالت له سعاد: "إما المدرسة وإما الحجاب" فأصرّ على الحجاب، وتوقفت سعاد عن الذهاب إلى المدرسة. بعد ذلك أرسلتها أمها إلى خياطة مشهورة علّها تتعلم الصنعة. وطلبت الخياطة من الرجل الذي كانت نبيلة تعمل في بيته أن يوظف لها شخصًا. ولما تبين له أن الرجل الذي تتوسّط له لم يكن زوجها ولا قريبها نصح نبيلة بأن تمنع ابنتها من الذهاب اليها لأنها "غير مظبوطة".

ولأنه لم يكن لسعاد إخوة كانت تقضي معظم وقتها مع بنات خالتها الثلاث، فنشأت بينهن صداقة دامت العمر كلـــه. وعنـــدما

توقفت سعاد عن الذهاب إلى مشغل الخياطة صارت تساعد ابنة خالتها الكبرى بما كانت تقوم به من عمل في خياطة الثياب والمفروشات.

عندما بلغت سعاد السادسة عشرة من عمرها خطبها ابن عمها وكتب كتابه عليها. وقبل ذهابها إلى منزله تذكرت إحدى العمّات أنها أرضعت سعاد وابن عمها عندما كانا طفلين، وبالتالي غدا الخطيبان أخوين في الرضاعة فلا يجوز لهما أن يتزوجا. تطلقت سعاد، وما لبث قريب آخر أن تقدم لخطبتها وتزوجا.

كان زوج سعاد خياط قمصان رجالية. وخلال الحرب الأهلية اللبنانية (1975-1990) ترك عمله وعمل سائقًا لدى عائلة عراقية موسرة تقيم في لبنان. وكانت العائلة تعامله وزوجته معاملة حسنة وتعنى بتوفير كل ما يحتاجانه، وفي سفرات العائلة الكثيرة إلى لندن كانت تترك سياراتها الفارهة في عهدة زوج سعاد سامحة له باستخدامها متى أراد. وأحيانًا كان الزوج يصادق امرأة ما يتنزّه وإياها في سيارة مخدومه، بينما تقبع زوجته في البيت. وأذكر أنني زرت سعاد يومًا وكانت أمها على قيد الحياة. وجدتها تبكي وفي حالة من القهر والألم. سألتها عمّا بها فقالت لي ألاّ أخبر أمها بما ستسرّه لي، ومفاده أن زوجها كثيرًا ما يأخذ جارة لهما في سيارته ويغيبان لأوقات طويلة. أخبرتني أن الجارة متزوجة ومحجّبة وأنها تتنزه مع زوج سعاد في غياب زوجها. حاولت أن أحل المشكلة فنصحتها أن تخبر زوج المرأة، فأجابتني سعاد: "كيف أخبر زوجها وأهدم بيتًا فوق رأس خمسة أطفال؟!"

لم ترزق سعاد بأولاد. لكن كان لشقيق مريض لزوجها ثلاثة أولاد، بنت وصبيّان. وبعد مرض الشقيق تركته زوجته وتركت

أولادهما وتزوجت من رجل آخر. أخذت سعاد الفتاة إلى بيتها وصارت تعنى بها كابنتها. أما الصبيّان فقد اهتمت بهما جدتهما لأبيهما وواحدة من بنات خالة سعاد. وقد بقيت الفتاة مع سعاد حتى تخرّجت من الجامعة. ثم سعت لها سعاد مع متموّل كان يرسل الطلاب في بعثات إلى الخارج، فذهبت في بعثة دراسية إلى أميركا وحصلت على الجنسية وبقيت هناك. وهي تهاتف سعاد أحيانًا وتزورها كلما أتت في زيارة إلى لبنان. كذلك عنيت سعاد باثنين من أبناء بنت خالتها، وهما الآن ناجحان في عملهما وموسران ينددهان سعاد بـ "أمي" وأولادهما يخاطبونها بـ "ستّ". وتقيم سعاد في بيت فخم في بيروت لأحدهما، تخلى لها ولزوجها عنه عرفانًا بفضلها عليه. وفي الصيف، تذهب سعاد لقضاء عطل نهاية الأسبوع في بيت في البقاع لربيبها هذا.

في سنة 1988 قررت سعاد وبنات خالتها القيام بمناسك الحج. تنافس زوجها وربيبها الذي تسكن في بيت له على تمويل حجّها. وعندما ذهبت مع بنات خالتها لشراء ثياب الإحرام أخذ البائع الثمن من بنات خالتها ورجا سعاد أن تقبل ثيابها هدية منه. كان البائع مسيحيًا ولكن يبدو أنه شعر بأن لهذه المرأة الطيبة مكانة روحية مميزة فأراد أن يكتسب حسنة عند ربّه بالمساهمة في حجّها. وقبل ذهابها إلى الحج طلب منها زوجها أن تسامحه على كل ما سامه لها من عذاب من جرّاء حبه لنساء أخريات. ولأن ابن بنت خالتها كان قد موّل حجتها الأولى، طلب زوجها بعد سنتين أن ترافقه في حج ثان عن روح أمها التي أقعدها مرضها عن القيام بواجب الحج. وفي أثناء أدائها للمناسك رأت سعاد في المنام رجلاً يضع يده على كتفها

ويقول لها: "وأنا؟" فسّر المشايخ لها الرؤيا على أن والدها يطلب منها أن تحج عنه. وفي السنة التالية لبت سعاد طلب والدها الذي لم تره في حياتها وقامت بمناسك الحج نيابة عنه.

شمسه (أم حسين)(*)

هي بدوية كان أهلها رحّلاً وغدت من الجيل الأول الذي استقرّ وتملّك في قرية من قضاء بعلبك. فزوجها وعائلتها يملكون الآن مزرعة وبيوتًا متجاورة تسكن فيها هي وزوجها وزوجته الأخرى عليا وبناهما مع أزواجهنّ وعائلة شقيقها وعائلات أخرى من أقربائها.

أصل عشيرهم من بادية الشام. ولعقود استمرّت جماعات منها تدلف في الربيع إلى مراع لبنانية قرب بلدة علي النهري ليعودوا قبل الشتاء إلى جوار مدينة حمص السورية أو بلدة القاع اللبنانية. وبالرغم من استقرارهم التدريجي على الأراضي اللبنانية، بقوا يحملون جنسيات "قيد الدرس" حتى أواسط تسعينات القرن الماضي، حين منحتهم الدولة الجنسية اللبنانية، ممّا سهّل عليهم أمورًا حياتية شتّى. فبفضل حصولهم على الجنسية غدا بإمكان أبنائهم الالتحاق بالمدارس الرسمية وبالجيش وغدا بوسع عائلاهم الاستفادة من تسهيلات الاستشفاء للمواطنين اللبنانيين، خاصة لمن تسمح ظروف عملهم بانتسابهم إلى صندوق الضمان الاجتماعي.

(*) سبق أن كتبت عن أم حسين في دراسة عنوانها
"Wives or Daughters: Structural Differences between Urban and Bedouin Lebanese C0-wives", in Intimate Selving in Arab Families, Ed. Suad Joseph. (Syracuse NY: Syracuse University Press, 1999).

وشمسة هي الخامسة في عائلة من ستة أولاد، ثلاثة ذكور وثلاث أناث. كان والدها يرعى الغنم والإبل مرتحلاً بين لبنان وسوريا. وهي تعتزّ بأن أفراد عائلتها يخافون اللّه ولا يتكلمون بالعاطل عن أي إنسان. تزوّجت من ابن عمّها وهي في التاسعة عشرة من عمرها واستقرّت معه في قرية حزّين القريبة من بعلبك. لكنها لم تنجب له إلا البنات، في ما عدا حسين، آخر أولادهما الذي غرق في محقن ماء وهو في السابعة من عمره.

كانت زيارتي الأولى لها عام 1992 والأخيرة عام 2013. عندما زرتها أول مرة كانت في الخامسة والثلاثين من العمر، وفي زيارتي الأخيرة لها وجدتها على ما عهدته فيها من جمال هادىء ونظرة ثابتة وابتسامة قريبة من القلب، فيها طيبة وحكمة مغلّفان بحزن يكبته رضى الإيمان. كنت كلما زرتها وجدتها ترتدي ثوبًا داكنًا وتلفّ الإطار الأعلى من رأسها بشملة سميكة، مما يظهر ارتفاع عظمتي خديها ويضفي القًا على عينيها ويضيف بعض السنتيمترات على طول قامتها. وفي لقاءاتي معها بدت لّماحة الذكاء دمثة الطبع، ممًا أحاطها باحترام الجميع وتقديرهم وجعل مجلسها مقصودًا ويسّر علاقاتها وعلاقات عائلتها مع معارفهم وجيرانهم. ومع هذا، فأم حسين هي أبعد ما يكون عن المداهنة والمراءاة. ومما يدلّ على إخلاصها لمزاجها وذوقها وعن صدقها في التعاطي مع الناس وفي تقييمهم وفق سلوكهم ووفق ارتياحها لهم أو عدمه ما أخبرتني به عن حبها الكبير لضرّتها الأولى أميرة وعن قلّة إعجابها بضرّتها الثانية علياء. وحبّها لأميرة عبّرت عنه حتى في زيارتي الأولى لها، في وقت قريب جدًا من زواج أبي حسين بأميرة.

أخبرتني في زيارتي الأولى أن زوجها أراد الزواج من أخرى كي تنجب له صبيًا يكون سندًا لشقيقاته من بعد والدهنّ. وروت لي كيف كانت هي من اختارت له أميرة، التي أحبتها كواحدة من بناتها، رغم اعترافها بأن من تقول "الضراير كالأخوات" تظلم نفسها وأنه "ما من امرأة تحب أن ترى زوجها في حضن فتاة في السابعة عشرة من عمرها". وعندما زرتها مؤخرًا وجدت أن زوجها طلّق أميرة، بعد أن انجبت له ابنة، وتزوّج من علياء (من كان لها عشرة أولاد من زواج سابق)، التي أنجبت له صبيًا. اعترفت لي شمسه أنها لا تحب علياء، لأن الأخيرة تمتعض من حب أبو حسين لشمسة وبناتها ولأنها تلبس كالصبايا رغم أنها أم لأحد عشر ولدًا ولأن أسلوبها غير المحترم وارتفاع نبرة صوتها لا يعجبان أم حسين. قالت إنها تتجنبها وفق القول السائد: "يا جاري، أنت بحالك وأنا بحالي".

من بين بناتها، واحدة فقط تكلّم علياء أبعد من السلام ومقتضيات النسب والتهذيب. وعلى النقيض من رأيها في علياء كانت نظرتها إلى أميرة وإلى ايمان، ابنة أميرة التي نشأت في كنف أم حسين، بعد أن طلّق أبو حسين أمها. وقد قالت لي شمسه عندما كانت إيمان صغيرة: "لن أزوجها باكرًا كما فعلت مع بناتي، وسأعلّمها حتى تصبح محامية". لكن عندما زرتها مؤخرًا، وجدت إيمان متزوجة من قريب لأم حسين. وقد تقلّص طموح شمسه إزاء مستقبل أيمان من رغبتها في أن تراها محامية إلى افتخارها بأنها تقود السيارة، مرافقة والدها إلى حيث يريد، كسائقته.

في زيارتي الأخيرة لشمسة كانت تحيط بها بناتها، وجميعهنّ متزوجات. وكان واضحًا جوّ الإلفة والأنس الذي يعبق من التعاطي

فيما بينهن: فهذه الذكية التي ينصت الجميع بإمعان لما تقوله وتلك الجميلة التي يفتخرن بطول قامتها وبياض وجهها وأخرى يظهرن لها الكثير من التعاطف والحنان، لأن زوجها يهدّدها بالزواج من أخرى إن لم تنجب سوى البنت والصبي اللذين صار صغيرهما في العاشرة من عمره.

وقد لفتني التعلّق الكبير بأهل البيت الذي ميّز هؤلاء البدو عمّا يشاع عن أبناء طائفتهم السنيّة، خاصة في الوقت الراهن، الذي تعمل فيه دول عظمى وأخرى إقليمية على إثارة النعرات بين طائفتي السنّة والشيعة الإسلاميتين. ويصعب تقدير مدى تأثّر حبّ عشيرة أم حسين لأهل بيت رسول اللّه (صلعم) بالبيئة الشيعية التي يتعايشون معها. فأهالي وسكان حزّين والقرى المجاورة لها ينتسبون إلى المذهب الإسلامي الشيعي. وبفضل كياسة شمسة وأهلها ولياقتهم وحسن معشرهم تآلفوا مع محيطهم الشيعي. فهم يتزاورون ويتشاركون في الأفراح والأتراح. ومع أن التآلف بين الطائفتين المتجاورتين لم يصل إلى التزاوج، إلا في ما ندر، فذلك لم يحل دون نشوء صداقات حميمة بينهما. بل إن شمسة وأفراد عائلتها يشاركون جيرانهم بحضور مجالس التعزية في ذكرى عاشوراء، التي قتل فيها الحسين بن علي مع رجال عائلته.

ومع ذلك، عبّرت شمسة عن انزعاجها من شتم بعض الشيعة للخلفاء الراشدين من أصحاب الرسول. لكنها قالت أنها لا تظهر امتعاضها هذا، لأنها لا تحب الشقاق والفتنة. وأخبرتني أنها وبناتها يحضرن أعراس جيرانهم ويستمعن إلى مشاكل النساء منهم، مقدمات لهن النصح ومقرّبات بين وجهات نظر من يختلفن مع بعضهن منهن.

قالت إنها لا تنقل الكلام بين الناس، إلا ما كان منه حلوًا وإيجابيًا، وتحاول التخفيف من ألم من يشتكين لها أو من غضبهن. وكذلك بناتها فهنّ مشكى لضيم الجارات وصديقات ودودات لكثير منهنّ. أما زوجها فيعمل على إحلال الصلح مكان الخصام بين من يعرفهم من أهالي الجوار.

والغريب في شمسة أنها تعتزّ كثيرًا بكونها من أقام عرسي زوجها. فعندما تزوّج أبو حسين من أميرة، ولاحظت أن الجيران يقاطعون العرس لأن شمسه كانت لا تزال في حداد على ابنها حسين، خلعت عنها السواد وزارتهم بيتًا بيتًا لتدعوهم إلى العرس. وهي التي طبخت للمهنئين وأعدّت المكان لخلوة العروسين، واضعة لهما إبريق العصير وصحن الفاكهة في الغرفة. ولما تزوّج زوجها من علياء طبخت لعرسه عشرة مناسف ورقصت الدبكة، بل قادت صفّ الدبيكة من حاشيته. وكأني بها تفصل تمامًا بين شعورها كإنسانة وبين ما تعتبره واجبها كربّة أسرة. ولعلّها تدري أن قيامها بالواجب وأبعد منه يجلب لها الكثير من المحبة والتقدير، من زوجها كما من أبناء العشيرة والجيران وسائر من يعرفونها.

لكن إلى جانب تعاطيها "الاجتماعي" مع زواج زوجها من غيرها، فهي تصرّح "أن الزوجة القديمة هي كالرداء القديم. فلا أحد يحب أن يرتدي ثوبه القديم عندما يكون لديه ثوب جديد". وما يعزّيها أن زوجها يوليها مكانة الصدارة بين زوجاته من حيث الاحترام والمعزّة والتقدير، وهي التي ترافقه إلى الزيارات والواجبات الاجتماعية، كذلك فخيمة الضيافة التي يستقبل ضيوفه فيها يسمّيها الجميع بـ "خيمة أم حسين".

نجمه

في قرية الحمودية القريبة من مدينة بعلبك، ترى سيارات وزوارًا ذاهبين إلى منزل نجمه وآيبين من عندها. يجلبون لها قناني الزيت أو الماء لترقيها لهم ويقولون إنهم يجدون في شرب ما رقته شفاء وعافية.

ونجمة هي بكر عائلة لها عشرة أولاد، خمس أناث وخمسة ذكور، وهي تقيم الآن وحدها في منزل فقير، حيطانه من إسمنت وسقفه لوحًا من التوتيا.

أخبرتني قصتها. قالت أنها تزوجت من بدوي مثلها عندما كانت في الخامسة والعشرين من عمرها. عاشت معه ست سنوات دون أن يرزقا أولادًا. وفي يوم قامت فيه بكثير من العمل، خاصة نقل الماء من العين إلى البيت، في أوان كبيرة وثقيلة، شعرت بتعب وألم في وسطها. وفي اليوم التالي، حاولت النهوض من فراشها فلم تستطع.

بقيت نجمة ثماني سنوات مشلولة تمامًا. ولم يحتملها زوجها على هذه الحال أكثر من أسبوع من الزمن، ردّها بعده إلى أهلها كي يعتنوا بها. وقد أخذها إخوتها إلى مستشفى تل شيحا ومستشفى آخر ثم إلى مزارات لأولياء وشهداء علّ كراماتهم تشفيها، لكنها بقيت على حالها. بعد ذلك أخذها أحد زعماء المنطقة إلى مستشفى الجامعة الأميركية في بيروت، فقال له الأطباء إن أعصابها تالفة، ولم يحسّنوا من وضعها إلا قليلاً. وبقيت قعيدة الفراش.

وفي يوم من الأيام جاءتها جارتها الحاجة دنيا، وهي من أتقياء الطائفة الشيعية، لتخبرها أنها رأتها في المنام ذاهبة إلى مقام السيدة زينب في دمشق وسمعتها تنشد:

يا فرحة طول العمر بنطرها وبطلب لرب السما العالي يكمّلها.

بكت نجمة عندما أخبرتها الحاجة دنيا برؤياها، ولما أخبرت إخوتها عن رؤيا جارتها حملوها إلى سيارة جار لهم وذهبوا بها إلى مقام السيدة زينب..

قالت نجمة: "ربطوني ليلاً بقفص السيدة عليها السلام. وفي حوالي الساعة الثالثة صباحًا رأيت نورًا ساطعًا وحمامة بيضاء ترفرف قرب المقام، ثم شعرت بيدين تحملانني من وسطي وتوقفانني على رجليّ، وكنت أنده: "يا سيدة زينب، أرجوك أن تشفيني أو تميتيني". صارت رجلاي تنتفضان وشعرت بالدم يتدفّق فيهما، ولما رآني زوار المقام قادرة على الوقوف، دفقوا يهللون ويكبّرون وأضيء الجامع وأعلن الشيخ من على المئذنة عمّا حصل لي من نعمه. وقد كتبت الصحف عن أعجوبة شفائي وذبح أهلي (وهم من الطائفة السنية) وجيراني (وهم من الطائفة الشيعية) الخراف ووزعوها على المحتاجين، احتفالاً بشفائي. ومن يومها وهم يقصدونني لرقية أبنائهم ومرضاهم ويحبون أن أرافقهم لزيارة الأولياء".

قالت: "بعد زيارتي لمقام السيدة وحدوث الأعجوبة التي كرّمتني بالشفاء صرت أول الأمر أمشي ببطء، وأخذت بالتحسّن تدريجيًا حتى أصبحت بعد حوالى الشهر أمشي كباقي الناس."

داومت نجمة بعد شفائها على زيارة السيدة زينب كل عاشوراء وكل "فكّة أربعين الحسين". وفي أحدى زياراتها تلك كانت مصابة

بالحمّى المالطية وتتوكأ على عصا، فلما دخلت إلى حضرة السيدة شفيت وطارت العصا من يدها. وعندما أصيبت، منذ عامين (2011) بمرض السكري ظهر لها نور كالذي ظهر من قبل وشفيت من مرضها. كذلك، عندما مرضت ابنة أخيها أخذت نجمة تنده السيدة زينب لتشفيها، فشفيت الفتاة وهي الآن أم لأربعة أولاد.

بعدما شفيت نجمة من الشلل حاول زوجها إرجاعها اليه فلم تقبل. قالت له: "من لا يقبل بي كسيحة لا أريده وأنا صحيحة". وعندما يئس من رجوعها اليه وحاول الزواج من أخرى، رفضته كل البدويات اللواتي طلبهن للزواج. فكانت الواحدة منهن تقول له: "ماذا لو مرضت فلم أجد فيك خيرًا وأعدتني مريضة إلى أهلي؟"

قبل أن أفارقها عرضت أن ترقيني فقبلت شاكرة. وضعت يدها على رأسي وطفقت بالدعاء الخيّر لي ولعائلتي. تثاءبت كثيرًا وهي ترقيني. وممّا لفتني من رقياها ما قالته من تحصين من العين الحاسدة: "قالوا لها (للعين) وين رايحة يا لاعنة يا ملعونة قالت: رايحة اهدّ القصور وأعمّر القبور وأشيل الحيّة من خباها وأشيل العروس من جلاها وأشيل الولد عن سريره وأشيل الفدّان من نيره، وأشيل الزرع من أثيره...".

راقبتها وهي تبتعد عني، بقامتها المستقيمة، لاعتيادها على تحميل الماء وخلافه على رأسها، وبخطوة رشيقة جذلة، وكأنها ما زالت لا تكاد تصدّق أنها استعادت القدرة على السير على رجليها.

خاتمة

ما تخبره السير عن شخصيات صاحباتها

تتضمّن هذه السير دلالات عن بناء الذات عند صاحباتها وعن نظرة الواحدة منهنّ إلى نفسها وإلى موقعها من الأسرة والمجتمع والعالم، بما في ذلك، أحيانًا، عالم الروح. وهي تنمّ أيضًا عن القيم التي رسخت في نفوس النساء أو عملن على تحويرها إلى ما يناسبهن أو ثرن عليها أو رفضنها. ومن الوقائع المرويّة، نستشف الكثير عن مدى فعالية نساء هذه الحقبة وعن نوعية استراتيجياتهنّ وأساليبهن في التعاطي مع ما يواجهنه من مشاكل وإثباطات وقيود وعن نظرتهن إلى العمل وإلى التعليم. أنها سير غنيّة بما قد يحفّز القارىء على استخلاص أمور أكثر بكثير ممّا ستستخلصه هذه الخاتمة.

نساء هذه السير عاديات، بمعنى أنهن يمثّلن قطاعات كبيرة من النساء. اختلفت مشاربهنّ وطبقاتهن الاجتماعية ووحّد بينهنّ المكان والفترة الزمنيّة، فجميعهنّ عشن في لبنان أو جئن اليه من البلدان المجاورة له. وكثيرات منهن عشن الهجرة أو النزوح إلى لبنان أو منه. معظمهن كنّ في سن الطفولة عندما انتهت الحرب العالمية الثانية وإبان الاستقلال من سلطة الانتداب الفرنسي، فكانت نشأتهنّ الأولى في عبق فرحة حداثة ما بعد الحرب وفي جوّ التفاؤل بالمستقبل الذي

تلى الاستقلال وما شجّع عليه من توقّع بأن يتابع المجتمع مسيرته نحو الحريّة والكرامة الفرديّان ونحو التقدّم والوعي العلميّان. وهذا التفاؤل ما لبث أن أجهض إلى حد كبير، بسبب احتلال فلسطين وإقامة دولة إسرائيل في قلب العالم العربي وهلاله الخصيب وبسبب تداعيات الاحتلال من تباعد بين العالم العربي والغرب وإعادة نظر كثيرين من أبناء الوطن العربي بنتاج الحداثة الغربية وبما تنضح به السياسات الغربية التي تنادي بالديمقراطية أو التحرّر والعلمنة. وبسبب الاحتلال الإسرائيلي (1948)، ارتحل عدد من صاحبات هذه السير في صغرهنّ مع عائلاتهن من فلسطين إلى لبنان. وعدد كبير منهنّ عايشن في شبابهن الحرب الأهلية اللبنانية (1975-1990) واحتلال إسرائيل للقسم الجنوبي من لبنان (1978-2000). وإحداهن عانت في سنوات نضجها ترحالاً وخسارة أحباء في الحرب التي لا تزال مستعرة في سوريا (اشتعلت سنة 2011) ممّا حملها على المجيء إلى لبنان.

الأدوار العائلية

إن المجتمعات العربية هي، تقليديًا، من المجتمعات التي تشجّع النساء على التماهي بأدوارهن العائلية أكثر من أي دور آخر. وهذا التماهي غالبًا ما يؤدي إلى إهمال المشروعات الذاتيّة، كتنمية المواهب الفرديّة أو تحقيق الطموحات الشخصية المستقلة عن الأطر العائلية. لذلك، يصعب الجزم إن كان إعطاء بعض نساء هذه السير الأولوية لأدوارهن كبنات والديهن أو كزوجات أو كأمهات ينم عن انصياع لما يرسمه المجتمع لهن أو عن فطرة طبيعية أو عن اتكالية وعدم ثقة

بالنفس. فمن المحتمل أن تكون خياراتهن نابعة من تأثير المجتمع عليهن، كما قد تعود لكونهنّ يفضلن هذه الأدوار بسبب ميولهنّ الفطرية، أو لأنها تعطيهن من السعادة والاكتفاء ما لا يمنحه لهنّ أي دور آخر. ومن المحتمل أيضًا أن تكون السلطة الذكورية في العائلة منعتهن من شق طرق عملية لهن خارج الأسرة. وقد يكنّ أحجمن عن خوض مجالات عمل خارج العائلة خوفًا من الفشل أو بسبب الكسل أو خوفًا من المجازفة في امتشاق الحرّية وما يستتبعها من مسؤولية. وهذا الاحتمال الأخير يشبه ما تصفه سيمون دو بوفوار في كتابها "الجنس الثاني"، إذ تذكر الإغراءات التي تحثّ النساء على العيش كأداة أو شيء بدل العيش كإنسان حرّ. فصعوبة تحمّل تبعات المسؤولية قد تقودهنّ إلى الهرب من الحرية، تاركين عبء تحصيل الرزق وخوض المجالات التنافسيّة لآخرين. وترى دو بوفوار أن الفرار من تحمّل المسؤولية يغري النساء بتكاذب غير أخلاقي قوامه تظاهر الواحدة منهن بأنها كائن غير ما هي عليه في الحقيقة وغير ما تعلمه عن ذاتها من كونها في جوهر ماهيتها مالكة لوعي وحريّة فرديين.

لكن ليس كل اقتصار على لعب الدور العائلي مؤشّر على العيش كأقل من إنسان، وليس كلّ تخلّ عن مسؤولية تأمين المعيشة وخوض مجالات العمل هروبًا من المسؤولية. فقد تتحمل الواحدة كثيرًا من المسؤوليات وتتخذ كثيرًا من الخيارات الحرّة في معرض قيامها بدورها داخل العائلة، وهذا ما فعلته كل من ابنة أم رامز وآيسل وسعاد، من أخذن على عواتقهن مسؤوليات كثيرة، الأولى في تربية ابن شقيقها، والثانية إزاء فتاة ثم طلاب من بلدها والثالثة نحو أنسباء وأقرباء لم تكن ملزمة بالعناية بهم. بل إن سعاد أبدت شعورًا

بالمسؤولية حيال أولاد عشيقة زوجها، فلم تخبر زوج العشيقة بأمر خيانتها حتى لا تقوّض دعائم أسرة لها خمسة أطفال. وفي نطاق العائلات الممتدّة، التي لم تنقرض بعد من المجتمعات العربية، كثيرًا ما تختار النساء تحمّل مسؤوليات داخل العائلة تفوق ما يطلب منهن كأفراد أحرار مستقلين. فهؤلاء النساء الثلاث اخترن أدوارًا غير منتجة ماديًا، ليس هربًا من المسؤولية بل رغبة في تحمّل مزيد إنسانيّ منها. وخيارهن هذا كان خيارًا حرًا يختلف كل الاختلاف عن نهج الرافلات في الراحة من المسؤولية والقابلات في سبيلها بالتخلي عمّا لهن من حريّة، ممن تصفهن دو بوفوار في"الجنس الثاني".

ومن نساء السير المدرجة في هذا الكتاب من اخترن العمل المنتج ضمن إطار العائلة، كأم رامز وبنات "كوخ الصبايا"، اللواتي شكّلت العائلة عند كل منهنّ شركة يتقاسم أفرادها الأعباء وتمتاز عن شركات أخرى بتفاني العاملين فيها وأمانتهم وإيثارهم لبعضهم بعضًا. ومنهن جوهانا وزهرة وتيريز، وكل منهن شكّلت مع زوجها فريق عمل وتحمّلت الخسارة بسببه أو في غيابه، فانطلقت بالعمل بمفردها لتعوّض العائلة عمّا خسرته. والأولتان أظهرتا تمسّكًا بالعائلة يؤذي المصلحة المادية لهنّ كأفراد كما للعائلة، لكنه يبقي على تماسك الأسر ويداري معنويات رجالها. كذلك عملت ياسمين فترة في شركة عائلة مولدها وتحّملت لوحدها أعمال فضّ الشركة في أجواء سياسية ومادية غاية في الصعوبة.

ولا شك أن العلاقات العائلية تتطلب من النساء طاقة وانهماكًا ووقتًا وارتباطًا عاطفيًا لا تطلبه من الرجال. أما تبرير هذا النوع من التفرقة بين الجنسين، من الناحية النفسية والكيانية، فيبقى متوقفًا على

التيقّن فيما لو كانت النساء يجدن سعادة عن طريق عملهن الفردي أكثر أو أقل مما يجدنه عن طريق علاقاهن العائلية وعنايتهن بأسرهن، وإن كان هذا النوع من العلاقات والرعاية يعطيهن شعورًا بالاكتفاء أكثر مما يعطيه للرجال لو انصرفوا اليه دون سواه.

ومن المتوقّع، بعد تشجيع المجتمع للنساء على البذل من أجل العائلة، أن يؤمّن لهن تقديرًا معنويًا وماديًا يقيهن وحشة الوحدة وذل العوز في كبرهن. لكن هذا التقدير يبقى في الغالب واجبًا أخلاقيًا غير مدعوم بشكل واف بحقوق شرعية (أنظر ليلى أحمد، 1992، 88-101) أو قانونية مضمونة تتناسب مع ما تقدّمه النساء لأسرهنّ. ومع أن معظم نساء السير المدرجة في هذا الكتاب نعمن في كبرهن بحنان ابنائهن ورعايتهم، إلا أن أمل الأمهات في قضاء شيخوخة هانئة قرب فلذاهن بات مهدّدًا بتغييرات في أوضاع العمل المتطلّبة للدوامات الطويلة والتي تجبر الكثيرين على السفر خارج البلاد، وباتت تعصف به الأوضاع المتغيّرة من ضيق المنازل ورغبة الأسر الحديثة في ألاّ يضمّ منزل الواحدة منها سوى الزوجين وأولادهما.

وأن كان لللحمة العائلية حسنات كثيرة، نفسية ومعنوية كما مادية، فلا شك أنها تؤثر سلبًا على تنمية مواهب الأفراد من النساء وعلى نجاحهن في أعمالهن وفي تحقيق ذواهن. فمثلاً، نجد أن التحام فتاة وسلمى بعائلتيهما البيولوجيتين كان له تأثير في الحد من الطموح العلمي للأولى ومن الفعالية العملية للثانية. وخسرت هاله من فعاليتها، رغم مواهبها، بانصياعها لرغبة والدها بالنسبة إلى الدراسة (كان باستطاعتها العمل ومتابعة الدراسة كما فعلت أخريات من جيلها) وبإطاعتها زوجها وشقيقها بالنسبة إلى اختيار العمل. وكان

انصياع هالة لرغبات العائلة أكثر ضررًا على إمكاناتها وفعاليتها من إطاعة فاطمة التامة لزوجها. فهاله ضحّت بمواهبها وبما تودّ القيام به، ولم يظهر أنه كان لفاطمة رغبات أو خيارات أخرى. ولعلّ النمط السائد من إناطة المرأة بالعائلة حال بين كثيرات وبين مجرّد التفكير في طموحاتهن ومواهبهن الشخصية.

ومع هذا، نجد في هذا الكتاب أن من اكتفين بأدوارهن العائلية دون اتّخاذ عمل يمنحهن استقلالية مادية و/أو معنويّة قليلات جدًا. وبعضهن وجدن لأنفسهن انهماكات أعطتهن مكانة معنوية مضافة حتى لو لم تعطهن حيثية مادية. فحتى فتاة التي أظهرت تعلقًا كبيرًا بعائلة مولدها كما بأولادها كان لها اهتمام، ولو محدود، بالأرض وزراعتها. وليندا، التي كانت الأمومة وخدمة الزوج جلّ اهتمامها، كان لها طول باع في التطريز والحياكة. وهوايتها في الكتابة أعطتها فرحًا وخصوصية، خاصة بعد أن نشر لها ابنها كتابًا روت فيه قصصًا عن أهل ضيعتها. وهالة وسعاد، اللتان قضتا سنين طويلة من حياتيهما في خدمة زوج أو أم أقعدهما المرض، كان لهما حيّز من التعبير عن ذاتيهما، واحدة في الكتابة والنضال السياسي، وأخرى في العبادة وتربية أبناء الآخرين، حيث اختارت كل منهما مجالاً تحقّق فيه ذاتها في عمل من اختيارها.

وبعض صاحبات هذه السير قمن بأعمال هامة خارج النمط لكن بدا أن دورهن العائلي كان طاغيًا على نظرتهن إلى ذواتهن. فزهرة التي بادرت إلى تأسيس شركة تأمين في بلد إفريقي، رغم أنها لم تتعدّ المرحلة الابتدائية من الدراسة، فعلت هذا من أجل تأمين معيشة أولادها ومستقبلهم وليس لتحقيق رغبة خاصة بها. فهي بدت

آسفة على قضاء العمر في العمل المضني وعلى كونها لم تتزوج من رجل غني قادر أن يجنّبها كل هذا العناء. ولهذا زوجت بناتها في سن مبكرة لموسرين من المهاجرين إلى أفريقيا وكان رأيها حازمًا ضد الاستقلالية الماليّة للنساء. ورندة المتعددة المواهب عملت في إعداد أفلام وثائقية، رغم أن معظم عملها كان في مساعدة زوجها في إعداد أفلامه. ومن الدلائل على كون رندة تعدّ دورها كزوجة المحور الأساس في حياتها أنها بقيت في بلد زوجها بعد وفاته ولا تزال منهمكة في مراجعة أعماله وتبويبها ونشرها.

ولو تساءلنا عن السبب في أن زهرة اختارت دور "الأم" كمحور لنظرتها إلى ذاتها في حين اختارت رندة دور "الزوجة" كالأهم في حياتها، لوجدنا أن اختيار دور عائلي بعينه كمركز لبناء الذات يعود إلى أوضاع كل امرأة وخياراتها وليس إلى النمط الاجتماعي وحده. ففي سعي التقاليد إلى إناطة المرأة بالعائلة، يبدو أنها تركت لها مروحة من الخيارات بالنسبة إلى العائلة التي تتماهى بها: أهي عائلة المولد أم العائلة التي تنجبها أم التي تجمعها بالزوج، "شريك الحياة". والمجتمعات المختلفة تشجّع على التركيز على دور أكثر من آخر من بين هذه الأدوار. وقد وجدت في دراسة سابقة أن البدويات يبقين بالدرجة الأولى مناطات بعائلات مولدهن بينما تعتبر نساء المدينة دورهن كزوجات هو الأهم (أنظر نجلاء حمادة، 1999).

وفي سير هذا الكتاب، نجد أن أكثر المتماهيات بدور الابنة كن متحدّرات من عائلات ذات جاه أو قدرة مالية أو ذات ارتباط بما يقمن به أو يحتجنه. فإليانور تنعم بمكانة خاصة لكونها حفيدة مؤسس الجامعة الأميركية وشقيقة آخر رئيس لها. وعفاف كان عملها الخيري

مرادفًا لعمل خالتها ووالدها ومتلائماً مع رغبة عائلتها الثريّة في عمل الخير. وسلمى عاشت بعد الزواج في منزل أهلها واعتمدت على إدارة شقيقتها للأرزاق بعد وفاة والديها وزوجها. وآيسل وقعت عليها مسؤولية إدارة الإرث من أملاك والدها بعد وفاة شقيقها الأكبر وهجرة شقيقها وشقيقتها. وبنات "كوخ الصبايا"، زاد تماهيهن بعائلة مولدهن من فعاليتهن في إنجاح مشروعهن المشترك، إلى جانب ما زودهن به هذا التماهي من إلفة وتعاضد. وقد يصحّ الأمر ذاته في ابنتي أم رامز اللتين ما زالتا ترفضان الزواج وتعيشان في كنف العائلة، رغم تعديهما الخامسة والثلاثين من العمر.

كذلك، من اللافت أن من تكوّنت ذواتهن حول دورهن كزوجات، كن، ما عدا أم حسين، من المسيحيات والدرزيات. فأم حسين، المسلمة الوحيدة التي تمحور دورها العائلي حول زوجها، متزوجة من ابن عمها، ممّا يولّد التباسًا حول الجزم في إن كان الرباط الزوجي أو رباط الدم هو أساس تماهيها به رغم زواجه من سواها. ويظهر من هذه العيّنة المحدودة التي بدت فيها رندة وتيريز وهلن وليندا وأم صلاح كما أم حسين من أكثر المرتبطات كيانيًا بأزواجهن، أن وضعيّة الزوجة في قوانين الأحوال الشخصية قد تكون مؤثّرة في بناء شخصيات النساء وفي تحديد ولاءاتهن العائلية. فقد بدا في هذه السير أن النساء يمنحن الزواج مكانة توازي ما تعطيه لهن القوانين السارية على طوائفهن من ضمانات وحقوق كزوجات. فالمسيحية يصعب تطليقها، وهي والدرزية لا يمكن للزوج الزواج بأخرى مع الإبقاء عليها، أما المسلمة المهددة بطلاق سهل وتعدد زوجات محتمل، فمن الطبيعي أن تحاول أن تجد استقرارها النفسي

والكياني، بالنسبة إلى العائلة، في مكان آخر غير العلاقة الزوجية، فتركّز على عائلة مولدها أو على أمومتها. لكن هذا لا يعني أن جميع نساء الطوائف غير المسلمة تعوّل على الزواج كمؤسسة صالحة وكضمان لمستقبلهن، فكل من نور وبنات "كوخ الصبايا" المسيحيات وليلى الدرزية، بالإضافة إلى منى المسلمة الشيعية، عبّرن عن اعتبارهن الزواج مؤسسة فاشلة.

وبعض السير تنمّ عن وجود التباس حول القيم التي تعطي الأولوية في حياة النساء لدورهن في العائلة. فرغم ما تربّت عليه كثيرات من نساء ذلك الجيل من وجوب انصرافهن الكلي للعائلة، رأين، فيما بعد، أهن يحظين بالتقدير والإعجاب عندما يقمن بأمور أخرى لم يشجعن مسبقًا على الإعداد لها. فمثلاً، تلقت جوهانا الملامة من شقيقتيها لأنها لم تكرّس كل وقتها وطاقتها للعائلة بينما اعتبرها ابن إحدى الشقيقتين نموذجًا تمنى لو كانت أمه احتذته ليتّسع اطّلاعها وتتبلور شخصيتها كما حصل لجوهانا. كذلك، وجدت أم صلاح، التي حرمتها العائلة من متابعة دراستها لأنه "لا جدوى من تعليم الفتيات أكثر من مبادىء القراءة والكتابة"، أن ابنتها انتصار معجبة كثيرًا بمقدرة والدها الحسابية وأن زوجها أوكل لها الاهتمام بأمورالعائلة المالية بسبب مقدرتها الفطرية هذه.

والتباس القيم شكّل للواعيات من النساء دعوة لاستخدام المعايير لمصلحتهن وتحويرها وفق ما يرينه أدعى لحصولهن على مبتغاهن. فالسلطة أو الاقتدار الذي استمدته هلن من المحافظة على قوانين عائلية دينية آفلة يشبه ما حصّلته كل من أم حسين وأم صلاح اللتين استمدّتا مكانتيهما في العائلة من استبطانهما لقيم مجتمعهما عن

دورهن في نطاقها ثم الذهاب أبعد من المطلوب أو إضافة قيم أخرى عليه. لكن، بما أن التقليد الذي تمسّكت به هلن هو راهنًا موضع التباس وحيرة، فقد جنت من تمسّكها به تحقيق رغبتها في الإبقاء على زواجها واكتساب موقع في المجتمع، من ناحية، وانتقاداً وملامة، من ناحية أخرى، بينما ما جسّدته أم صلاح وأم حسين من قيم كان موضع تقدير لا لبس فيه في مجتمع كل منهما.

ولو قارننا بين موقع ليندا في العائلة وموقعي كل من أم صلاح وأم حسين لوجدنا أن الأولى التي تفصح عن قلة اقتناعها بالتقاليد، ولو لم تحد عنها، لم تجن ما يوازي ما جنته الأخريان من تقدير مبالغ فيه في مجتمعيهما لإعلانهما عن الالتزام بتقاليد المجتمع. وقيمة الالتزام لفظًا بالتقاليد تظهر في وصول نساء لبنانيات يتكلّمن باسم أب أو شقيق أو زوج متوف إلى مواقع سياسية متقدمة مع أنهن في الواقع يتخذن القرارات السياسية بأنفسهنّ. فيبدو أن قبولهن التعبير عن خضوعهن لصورة رجل يمجّدنه يحببهن إلى قلوب المجتمع الذكوري فيكافئهن بمنتهى التقدير وبمراكز قيادية مسؤولة، حتى لو كان عادة لا يساند وصول النساء إلى مواقع القرار.

ويبدو أن تقدير النساء المعترفات بالخضوع للتقاليد لا يطاله انتقاص عندما يزدن على هذه التقاليد أمورًا جديدة. فلم يضر أم صلاح تمتّعها بحرية الذهاب إلى بيروت للتبضّع والهيمنة على مالية العائلة لأنها حصّلتهما بعد موافقة زوجها وبعد التزامها بالتقاليد في السكن في منزل عائلة زوجها وفي إعزازها التام له ولعائلته كما للأولاد. أما ذهاب أم حسين في القبول بزواجي زوجها من سواها وفي مساعدته في الاختيار وفي الإعداد لعرسيه إلى أبعد ممّا تطلبه

التقاليد فقوبل برفع مكانتها الاجتماعية، ليس فقط إزاء زوجها بل أيضًا عند سائر أفراد القبيلة. فيبدو أن المطلوب أولاً الإعلان عن القبول بالهيمنة الذكورية، وبعد ذلك يمكن للمعلنة أن تفاوض التقاليد، فقد تحيد عن بعضها وقد تذهب أبعد منها. ومن يكسرن التقليد دون إعلان عن التمرّد تبقى العائلة حاضنة لهم (ليندا ووالدتها وجوهانا). أما من يعلنن عن الاعتداد بأنفسهنّ وعن التمرّد على الأنماط السائدة فقد يدفعن ثمن تمرّدهن في العائلة والعمل (ليلى وفائزة). فيبدو أن التعاطي مع النساء يكون وفق الصورة التي يعلننها أكثر منه وفق ما يقمن به. ويبدو أن كثيرًا من النساء يعين هذا فيقمن بـ "ثورات" لا يعلنن عنها.

الفعالية

إذا كانت الفعالية والتمكين هي في الارتقاء إلى مناصب صنع القرار السياسي، كما تقول الأدبيات النسوية راهنًا، فنساء هذه السير عانين من الأحداث دون أن يكن لهن دورًا في التسبب بها أو الفعل فيها. فقد اقتصر دور بعض المعنيات بالخير العام منهن، كتوفيقة وياسمين وعفاف على مداواة الجراح التي سببتها الحروب، فملأن الثغرات التي أوجدها العوز والحرب وقصور الدولة عن القيام بكل الخدمات المطلوبة. إنهن نساء لم يدخلن السياسة بمعنى صنع الحدث بل امتهنّها بمعنى الخدمة العامة، فاستفادت من جهودهن أعداد كبيرة من الناس. وكان عملهن هذا، كما عمل من اشتغلن في التربية والتعليم، كأميّة وفائزة وإليانور، غير بعيد عن الاهتمامات المقبولة تقليديًا للنساء والتي تقع، في الوقت نفسه، في الفضاء العام وضمن

المسؤوليات الأبعد من عائليّة. وتوفيقة جمعت بزخم كبير بين العملين الخيري والتربوي. ومن خيارات هؤلاء النساء في العمل ومن قدرتهنّ على التأثير والإنجاز يبدو أنهن كن متقبلات للأدوار الاجتماعية المفروضة عليهن، من جهة، ورافضات لنظرة روّج لها في زمنهن تعتبر النساء إتكاليات وقليلات الفاعلية، من جهة أخرى. ولعلهن وجدن في الانهماكات الاجتماعية والتربوية تعويضًا لهن عن إقصائهن عن مواقع ما يسمّى "صنع القرار" التي يبدو من خياراتهن وما حققنه أنهن مؤهلات لها وراغبات فيها.

كذلك، كان لبعض صاحبات هذه السير اهتمامات ثقافية وبيئية، ممّا يعتبر من وظائف السياسة ومشاغلها التي لم تنط تقليديًا بعمل النساء. فعلى الصعيد الثقافي والبيئي، صنعت نور من عشقها للتراث القروي مشاريع أثمرت نتائج بعيدة الصدى في بلدها من الوجهات الثقافية والفنية والسياحية والاقتصادية. وقامت منى بمشروع رائد للعناية بمخلوقات مهددة وإضافة ثروة بيئية وجمالية على منطقتها. ورندة كانت الوحيدة بين المهاجرات التي قامت بمشروع ثقافي غير تجاري، إذ صنعت أفلامًا وثائقية، وساعدت زوجها في صنع أفلام أخرى، فأوصلت وجهة النظر العربية والفلسطينية إلى المانيا وسكوتلندا. وهؤلاء الثلاثة كن مجدّدات ومبدعات خارج النمط إلى جانب كونهنّ فاعلات على صعيد عام وفي أمور بعيدة التأثير.

أما المبادرات في أمور مدرّة للربح فكثيرات بين مقيمات في البلد ومهاجرات. منهن جانيت التي انتجت هوايتها وموهبتها في صناعة المجوهرات جمالاً رفد ما ينتجه بلدها في هذا المجال بمزيد من

الأناقة. وقد ساعد انتاجها عائلتها ماديًا كما وفّر لجانيت مكانة واقتدارًا. ومنهن نساء "كوخ الصبايا" اللواتي حوّلن انهماكًا منزليًا عاديًا إلى مشروع حيوي نافع ومربح. ومنهنّ أيضًا تيريز التي أضفت على السوبر ماركت الذي أسسته مع ابنها جوًا عائليًا مميزًا. وقد تعتبر أم سعيد مبادرة في العمل على أيصال أولادها إلى أعلى مستويات العلم، حتى وإن كان امتهانها الطهو في المنازل عملاً قامت به النساء تقليديًا. فالعاملات في هذا المجال تقتصر أهدافهن عادة على تحصيل القوت والضروري من حاجات العائلة، وهدف أم سعيد كان أبعد من ذلك بكثير.

ومن المهاجرات المنتجات مادياً جوهانا التي أسست مراكز للتجميل في كندا وبيروت. وسلوى التي أبدعت في فن الديكور المنزلي، ناشرة ذوقها في أميركا والسعودية كما في بلدان أوروبية، وجانية من إبداعها ما يسّر الرخاء المادي لها ولابنتيها الصغيرتين، بعد وفاة زوجها في حادث سير. كذلك برزت زهره كمبادرة جريئة في تأسيس شركة تأمين ناجحة وفّرت لها الاستقلال المادي وغدت الركيزة المالية الأساسية لعائلتها، بحيث لا يزال اثنان من أبنائها الذكور يعيشون ممّا تدرّه عليهم من أرباح. وبقيت زهره، حتى بعد تقاعدها، تذهب من لبنان إلى إفريقيا لتتأكد من حسن إدارة أبنائها للشركة. وقد تفوقت كل من زهره وجوهانا وسلوى على أزواجهن في الجرأة في المبادرة وفي النجاح العملي والمادي.

وفاعلية هؤلاء النساء، التي تشي بوفرة قدراتهن وبمدى ثقتهن بأنفسهن، غلفنها أحيانًا بتنازل ظاهري عن مواقع المبادرة أو القيادة، كما بدا في إيقاف جوهانا لنشاطاتها عندما قيل لها إن نجاحاتها تسببت

لزوجها بعقدة نقص، وأردفنها أحيانًا أخرى بالتظاهر بالاستكانة إلى الدور الرديف في كثير من منعطفات حياتهن. وهذا ما نراه في سير سلوى وربندة وماري وأم صلاح وهاله. وإن كان هذا التنازل أو هذه "التقية" يذكّران بما يقال عن "الشطارة" الأنثوية المشابهة لما تكلّم عنه نيتشه في وصفه لأخلاقيات "ألعبيد"، المتمسكنين كاتمي اقتدارهم، فكتمان النساء هنا يختلف عن "تقيّة" "عبيد" نيتشه بسبب الدور الذي تلعبه العاطفة والتعاضد العائليان فيه. فأسباب تكتّم "العبيد" تقتصر على التحايل لغدر منافس أو لتفادي التصادم مع من يفوقهم قوّة وسطوة، بينما كثيرًا ما تخبيء النساء قوّتهن واقتدارهن من أجل تعزيز ثقة أزواجهن بأنفسهم، حتى لو انطوت هذه الثقة على صفات أسطورية يشكّل الحفاظ عليها عبئاً على الجنسين.

ومن استغرقهن كليًا دورهن العائلي أو تمحور كل ما قاموا به خارج المنزل حول رباطاتهم العائلية، هن، بالدرجة الأولى، فاطمة وليندا وفتاة وتيريز وليلى. ولم يكن هؤلاء من الخاضعات كليًا لقدرهن المرسوم أو من معطلات قدرتهن على الاختيار. فالكتابة أعطت ليندا قدرًا من المساحة الذاتية، ودور فتاة العائلي تطوّر من دور المرأة التقليدية لدور ربة الأسرة صاحبة القرار النهائي والمتعاطية باسم الأسرة مع الدوائر الرسمية. أما تيريز وليلى، فرغم استغراقهما في الدور العائلي، كان أسلوبهما أقرب إلى الأسلوب الذكوري في مباشرته وإلى أسلوب "السيّد" عند نيتشه في صراحته وفي التعبير الصريح عن الإرادة.

وقد قلّل من فعاليّة ليلى عدم امتلاكها لحكمة "عبيد" نيتشه، أصحاب التخطيط البعيد النظر الواعي للمؤثرات ولردود الفعل

النفسية عند الآخرين. فهذا النقص بالإضافة إلى اعتدادها بنفسها، من جهة، واستكانتها للدور الأنثوي التقليدي، من جهة أخرى، تظافرت على هزيمتها في أكثر من مجال. هذا، رغم أن موهبتها في حياكة القصص بمزاجية وإتقان كان أشبه بأسلوب "السادة المبدعين" عند نيتشه (أنظر نيتشه 1972، 184)، الذي لو ردفته حنكة "العبيد" المنظّمين لما تنتجه العبقرية لحقق إبداعاً وإنتاجاً يعتدّ بهما.

وأسلوب ليلى المباشر هذا هو ما تميّزت به أيضًا كل من فائزة وهلن وتيريز. إنه أسلوب الواثق من اقتداره، صاحب البراءة والصدق المناقضين للتخطيط الاحتيالي. ففائزة طلبت مباشرة ما تريده من احترام ممن هو أعلى منها موقعًا في العمل. وهلن كانت مستعدة بجرأة لدفع أثمان مواقفها، حتى لو قيل عنها إنها قليلة الحساسية و"سوقية" السلوك. أما تيريز، فلعلّها لم تجسّد تمامًا أسلوب "السيّد"، لأن صراحتها وجرأتها في التعاطي مازجهما إيمان راسخ برب يوصيها بالوداعة والاستكانة. فالغايات الروحية التي سعت اليها تيريز تتطلّب صدق الطوية، المنسجم مع وصف نيتشه لنفسية "السيد"، إلى جانب التواضع والتضحية والرضى التي اعتبرها فيلسوف الوجوديّة الألماني من أخلاقيات "العبيد".

وهؤلاء النساء اللواتي أظهرن سمات "ذكورية" أو سمات "السيد" في بناء الذات، كنّ ممّن تربين على ثقة كبيرة في موقعهن أو في ما يؤمنّ به أو في ما لهن من قدرات أو مزايا. ففائزة تربت على يدي أبوين يعطيان كل السطوة للحق والمنطق الموضوعيين. وبما أن الموضوعية لا تعترف بالفروقات التي تبدو للمنطق الصافي عشوائية أو استنسابية، كما بين الجنسين أو بين رئيس ومرؤوس، فقد تكوّنت

نظرة فائزة إلى ذاهّا على اعتبار أهّا لا تفترق عن أخويها وعلى أن التراتبية في العمل لا تعني شيئًا قياسًا بمتطلبات اللياقة وحفظ الكرامة. أما هلن، الإبنة الوحيدة، المتفوّقة في الدراسة كما في الجمال واللياقة البدنيّة على إخوتها جميعًا وعلى معظم أترابها، فمن المتوقّع ألاّ تعود تقتنع بأحقية الأدوار الاجتماعية ولا بما يفرض على النساء من خجل ومراعاة للأصول المألوفة من خفض النبرة في القول والعمل. وتيريز أيضًا نشأت على الاعتقاد بتفوقها بسبب نباهتها في المدرسة، ثم انتقلت في نظر نفسها إلى تميّز آخر قوامه التدين والتحيّز للعذراء مريم. أما ليلى، فيصحّ فيها ما يقوله التحليل النفسي عن بنات الحكّام وأصحاب الاقتدار اللواتي يتماهين مع آبائهن فلا يفطنّ إلى أهّن لا يمتلكن ما لآبائهن من موقع وسطوة. ولعل ما عزّز نظرة ليلى هذه إلى ذاهّا ما لمسته في شباها من قوة تأثير جمالها على الآخرين. وقد أفادت كل من هلن وتيريز من أسلوب "السيد" أو الأسلوب "الذكوري" هذا بينما كلّف هذا الأسلوب كلاً من ليلى وفائزة إحباطًا لمآربهما وإجحافًا بحقوقهما.

والتقاليد التي لم تكن تنظر بعين الرضى لتعليم البنات ولا لعملهن خارج المنزل كانت من أهم أسباب الحدّ من فعالية هؤلاء النساء. وهي تقاليد حالت حينًا بالقوة بين النساء وبين هذين الانهماكين، وأثبطت عزائمهن أحيانًا، عن طريق التقليل من أهمية تعليم النساء والاستهانة بعملهن المدرّ للربح. وفي هذا الصدد أذكر زميلة أكاديمية أنتجت عدّة كتب هامة في مجال اختصاصها، وكان شقيقها يقول لها كلّما صدر لها كتابًا: "ماذا همّ كتبك هذه. أنا أتطلّع إلى اليوم الذي يكتب فيه كتابك".

الإستقلالية والفرادة

أول ما يخطر بالبال في موضوع استقلالية النساء هو البحث في إن كن تزوّجن وفق إرادتهن أو إرادة إهاليهن. وفي هذه السير نجد أن معظم النساء اخترن أزواجهن أو قبلن بهم بكامل إرادتهن. وليس بينهن من أرغمت على الزواج بمن لا تريد. واثنتان منهن (ليندا وجوهانا) خالفتا رأي الأهل فتزوجتا خطيفة كما فعلت والدتا سلمى وليندا من قبلهما.

والسماح بمتابعة الدراسة لمن ترغب إن كان والداها قادرين ماديًا على تحمّل النفقات، أو كانت ممّن يغطيهم التعليم الرسمي، يعدّ أيضًا مؤشّرًا على مدى استقلالية النساء في أمورهن الحياتيّة. وقياسًا على هذا المؤشّر تبدو نساء هذه السير أقل استقلالية مما بدون بالنسبة إلى الزواج. فليندا حرمت من متابعة دراستها رغم رغبتها الشديدة بذلك. وتيريز كادت تحرم منها بسبب التمييز بين الأولاد وفق الجنس. وللسبب عينه لم ترد أسرتا فاطمة وهيلانه إرسالهما إلى المدرسة الرسمية، حتى ولو في المرحلة الابتدائية. وكان إصرار عمّ سعاد على ارتدائها الحجاب وإصرارها على عدم الذهاب إلى المدرسة محجّبة سببًا في حرمانها من متابعة دراستها. أما فتاة وماري وزهراء فزوّجن أو تزوجن في عمر مبكر جدًا. ولو اهتمّ الأهل بتعليمهن لكانوا أخروا زواجهن بضع سنوات.

أما الحريّة بالنسبة إلى ارتداء الحجاب، فتراوحت بين إجبار سعاد على التحجّب والسماح لأميّة بالسفور وعدم التزمّت حيال الموضوع من أهل ليندا. وهي قررت في ما بعد الالتزام بارتداء المنديل الأبيض، حتى وهي في أميركا. وكثيرات من نساء هذه السير لم

يشكّل الحجاب مشكلة بالنسبة لهن، إما لكونهن مسيحيات أو لأنهن عشن معظم شبابهن في زمن شاع فيه سفور المسلمات، قبل الردّة الراهنة إلى التشديد على ارتدائه. كذلك لم يشكل التحجّب أو السفور قضية بالنسبة إلى الريفيات من فلاحات وبدويات، لأن لباسهن التقليدي طالما غطى الرأس لأسباب لعلها عملية لها علاقة بالمناخ بالإضافة إلى الموضوع الديني. وأغطية الرأس عند هؤلاء كانت تغطي معظم الشعر ولا تتقيّد بإخفائه بشكل تام.

هذه الأمور الثلاثة، من اختيار الزوج إلى إتاحة الفرصة للتعلّم إلى احترام رأي صاحبة الشأن بالنسبة إلى الحجاب، هي مؤشرات كثيرة الدلالة. لكن دلالتها تقع في المجال العملي الذي يحكم الأعمار الطريّة، حيث للأهل كلمة وتأثيرًا وقرارًا. أما بالنسبة إلى المجال النفسي، المنبئ عن نوعية تكّون الذات، فلعلّ مدى شعور النساء حاليًا بالانتماء إلى طوائفهن وعمق أو سطحية استبطانهن لهذا الانتماء كما مدى تقيّدهن بالشعائر الدينية، هي مؤشرات أصدق إنباء وأبعد دلالة. ذلك أن قوانين الأحوال الشخصية في لبنان تفرض على المواطنين الانتماء إلى طوائفهم، والأوضاع المهيمنة حاليًا في كل منطقة الشرق الأوسط تنحى نحو فرز يؤدي إلى التحزّب للهويّات الدينية والمذهبية، وكثيرًا ما يؤدي إلى تماد في الالتزام بتفاصيل ليست من صميم الدين، كارتداء ما يسمّى "الزي الشرعي". وفي هذا المناخ، يغدو ضعف الشعور بالانتماء إلى الطائفة وقلّة التعصّب لها على حساب الطوائف والأديان والفئات الأخرى كما الانتقائية في التقيّد بتفاصيل شعائرها أو تبني الروحانية بدل الشعائرية، أو بالإضافة اليها، مؤشرات تدلّ على استقلالية الإرادة والفرادة في الاستنساب.

ومع أن معظم نساء هذه السير تزوجن من طوائفهن، لأسباب قد تكون عملية عائلية وقد ترجع إلى شعورهن بالانتماء للطائفة، إلا أن كثيرات منهن عبّرن عن عدم التعصّب ضدّ الطوائف والأديان الأخرى. ومن هؤلاء أم صلاح وأم حسين وليندا وآيسل. ولعلّ ما قالته ليندا من أنها لا تفرّق في قرارة نفسها بين الطوائف والأديان، لكنها تفضّل أن يتزوج أولادها ضمن طائفتهم لأسباب عملية كالإرث وتقبّل المجتمع لهم، يصف حال كثيرات منهن. واثنتين من نساء السير (نور وأم سعيد) تزوجن من غير دينهن، وواحدة (توفيقة) تزوجت من غير طائفتها ورابعة (ماري) غيرت دينها من المسيحية إلى الإسلام.

أما نضال أميّة المسلمة من أجل الإبقاء على العطل المدرسية أيام السبت والأحد، بدل الجمعة والأحد، مع أن الجمعة هو يوم التعطيل للمسلمين، فيدلّ عن بعدها عن التعصّب الأعمى لدينها، وعلى إعطائها الأفضلية، في أمور ليست من صميم الدين، وإن كانت من أدوات المغالاة في التحزّب، لما هو عملانيّ ومريح للتلميذات وللعاملين في المدرسة. فهي فضّلت أن يتوالى يومي العطلة الأسبوعية، حتى بعد أن هاجمها خطباء في المساجد.

ومن المؤشرات على الاستقلالية عن النمط في التعاطي مع الدين والتديّن أن جوهانا المؤمنة عبّرت بكل صراحة عن انتقاد المؤسسات الدينية التي تنتمي اليها لأنها لا تعطي المثليين وسواهم من المهمّشين الحق والاحترام الإنسانيين. ومي (من بنات كوخ الصبايا) صرّحت أنها تحب زيارة الكنائس، لكن في غير أوقات القدّاس. والمتدينات آيسل وسلمى وإليانور ونجمة بدون بعيدات عن التصلّب في الالتزام

بطقوس أديانهن وطوائفهن دون سواها، وكنّ أقرب إلى الروحانية الجامعة. بل إن نجمة، المسلمة السنية، وضعت كل ثقتها بشفاعة السيدة زينب بنت علي بن أبي طالب، المعتبرة شفيعة المسلمين الشيعة.

ومقابل هؤلاء، يوجد بين صاحبات هذه السير من يتمسكن بتعاليم أديانهن بشكل تقليدي. منهن سعاد التي تؤمن بكل العقيدة الإسلامية التقليدية بما في ذلك إمكانية الحج عن آخرين. ومنهنّ تيريز المواظبة على الطقوس الكنسية والمؤمنة كأي كاثوليكي ملتزم بفعالية شفاعة العذراء. وقد تعتبر هلن ظاهريًّا واحدة من هؤلاء لأنها استمدّت فعاليتها من تمسّكها بالتعاليم الكنسية التي تعتبر الزواج سرًا مقدّسًا معقودًا في السماء، بحيث لا يحق لأهل الأرض فك رباطه. لكن يظهر من سياق سيرة هلن أن مبعث تمسّكها هذا لم يكن رسوخ الإيمان في نفسها بل الرغبة في خدمة مصلحتها وفي اكتساب مصداقيّة ودور في المجتمع عن طريق مساعدة نساء مهددات، مثلها، بإبطال زواجهن.

وماري، التي بدت على طرف النقيض من تمسّك هلن بتعاليم الدين، كانت تشبهها في سعيها نحو تحقيق مصلحتها وما ترغب به بواسطة الدين. وهي عمدت إلى تغيير دين عائلتها كي تحقق رغبة ابنها في الزواج من جديد. وقصتي هلن وماري تصوران العقيدة الدينية وما يتبعها من قوانين كوسائل مرنة في أيدي نساء يتعنّتن في اتّباع تعاليم الدين (هلن) أو يتنكرن لدين ويخترن سواه (ماري) وفقًا لما يناسب رغباتهن التي لا علاقة لها بالدين والتديّن. فكل من هلن وماري استمدّت قدرتها على تحقيق ما تريد مما يجيزه ما اختارته من

القوانين الدينية. إلاّ أن الثانية قابلت عراقيل كثيرة في قفزها بين الأديان بينما استطاعت الأولى تحقيق رغبتها في مجالي الخاص والعام عن طريق تمسّكها بنص ديني تقليدي كاد الزمن أن يتخطاه. لكن في كلا الحالين نجد استقلالية وتخطيطًا، وإن ارتديا ثوب التزمت مرّة والتفلّت مرّة أخرى.

والشفاء أو اكتساب المكانة عن طريق الإيمان، ممّا نراه في سير كل من نجمة وآيسل وسعاد، قد ينطوي على قدر من الاستقلالية أو التفرّد. فرغم أن الروحانية مستحبة في معظم الأديان، إلاّ أن ممارستها مباشرة، على طريقة نجمة وآيسل، تعبّر عن استقلالية طالما حاربها رجال الدين وأرباب السلطات. وما جنته سعاد من تقدير لورعها وأعمالها الخيّرة قد يدخل فيه تخطيط فردي من أجل اكتساب المكانة في العائلة وللحصول على مجال للتعبير عن الرأي كاللذين رصدهما صبا محمود (أنظر: صبا محمود، 2005، 175-180). ومهما تكن الدوافع، فاتّباع سبيل يؤدي إلى شفاء عجائبي أو إلى الحصول على سمة تشبه القداسة، في نظر الآخرين، يعبّران عن الاستقلالية والفرادة لأنّهما ينمّان عن اختراق التديّن التقليدي نحو ما هو أبعد منه وأكثر حريّة وانطلاقًا. فهكذا إيمان فذّ في ذاتيّته يشبه ما عناه ابن عربي عندما قال: "لا إيمان من غير حريّة".

وإن كانت المرونة في التعاطي مع تعاليم الدين وطقوسه عند بعض صاحبات هذه السير تدل على استقلالية في التقدير والتدبير، فالبعد عن التحزّب الطائفي الذي أظهرنه جميعًا يدل على أحد أمرين: أولهما بعد أبناء ذلك الجيل، من الرجال والنساء، عن التعصّب الذي يستشري حاليًا في الأجيال الشابة، بسبب تكوّن

شخصيات أبناء وبنات الجيل السابق في زمن المطالبة بالاستقلال ومواجهة المحتل حين كانت المواطنة هي الهوية الجامعة. وثانيهما بعد النساء، نسبيًا، عن الانقياد إلى المعايير والتصنيفات السائدة في المجتمع.

والفرضية الثانية، إن صحّت، تدل على نأي نظرة النساء إلى ذواتهن عن القولبة الاجتماعية السائدة وعلى أن مراعاتهن للمعايير كثيرًا ما ترجع إلى أسباب عملية نفعية وليس إلى اقتناعهن بصلاح تلك المعايير أو إلى رسوخها في وجداهن وفي تكوين شخصياتهن. وفرضية تكوّن شخصيات النساء بأنا عليا حاملة لقيم المجتمع ومعاييره أضعف من التي تقابلها عند الرجال، التي تبناها فرويد مستنتجًا منها أن رسوخ القيم الأخلاقية في نفوس النساء أضعف من رسوخها في نفوس الرجال، هي فرضية لا بد أن تؤدي إلى اعتبار النساء، في التكوين البنيوي لذواتهن، أكثر استقلالية عن الأنماط المجتمعية من الرجال.

ولعلّ المركز الأدنى للنساء في العائلة والطائفة، قياسًا بالأخ أو الزوج، في مجتمع قوامه العائلات والطوائف، يسهم في تحرير البنية الشخصية للنساء من الاعتماد على المجموعات، وينأى بهن عن استبطان حقيقي صادق ومتصلّب لقيمها، ويؤدى إلى تعميق اعتمادهن على أنفسهن لتحقيق ذواتهن ورغباتهن كما إلى مرونتهن في اختيار ما يمتشقونه من معايير، على ضوء ما يخدم أوضاعهن ومصالحهنّ. وهذا يعني أن ذوات النساء، أو ذوات من يصح فيهن هذا الوصف، تكون أبعد بنيويًا عن صفات "القطيع" وأقرب إلى الفرادة والحرية.

ومن المؤشرات التي تدعم هذه الفرضية ما اظهرته هذه السير من قلة استبطان كثير من نسائها للنظرة المروّج لها من أنهن اتكاليات ومنقادات وقليلات الفاعلية، ومن قلّة، أو شكليّة، التزام كثير منهنّ بالهوية الطائفية، إلى جانب المرونة عند عدد يعتدّ به منهنّ في ممارسة الشعائر الدينية.

ويبقى السؤال: لماذا استبطنت النساء مقولة المجتمع أن دورهن هو في الأساس في العائلة أكثر من تبنّيهنّ الفكرة شبه السائدة عن اتكاليتهن وقلة فعاليتهن، وأكثر من تبنّيهنّ ما تمليه قوانين الدولة والأجواء السائدة حاليًا في المنطقة من تقسيم الناس إلى طوائف؟ فهل تكمن الأسباب في أن الاضطلاع بالأدوار العائلية قريب من طبيعتهن وممّا يحققن فيه ذواتهن، أو جزء منها، بينما قلّة الفعاليّة هي بعيدة عمّا يعتمل في نفوسهن وعمّا يرغبن به، وفي بعد النساء نسبيًا، بنيويًا، عن استبطان النمط، إلا عندما يناسبهن ذلك؟

أيهما أقرب إلى واقع النساء: النظريات المجرّدة أم الأدب أم الدراسات المنبثقة من مراقبة المجتمع؟

إن أردنا الإجابة عن التساؤل في مقدّمة الكتاب فيما إن كان الفلاسفة أو الأدباء هم الأقرب إلى الواقع في ما يقولونه عن النساء، نجد أن ما يقوله كثير من الفلاسفة الكلاسيكيين من الرجال المقللين من شأن ذكاء المرأة وإرادتها وقدرتها على الإبداع لا ينطبق على معظم نساء هذه السير. كما نجد أن نيتشه الفيلسوف الوجودي الشاعري التقط حقائق عن الكينونة الأنسانية، دعمتها السير، في قوله أن التأثير الأقوى في التكوين النفسي للفرد وفي أسلوبه في السلوك هو

لموقعه من السلطة، فإن كان صاحب سلطة سلك بتلقائية وثقة وإن افتقدها تحايل للوصول اليها أو لتسليك أموره بين شعابها. لكن نيتشه، في تركيزه على مركزيّة إرادة الاقتدار عند جميع الكائنات، تغاضى عن وجود عواطف عائلية، قد تكون غريزية، قد تغلب هذه الإرادة فتؤدي إلى تخلّ عن الموقع الأقدر في سبيل آخر كما رأينا عند جوهانا وأم صلاح وسواهما. وفي هذا الصدد يقول مؤلفوا "نظرية عامة في الحب" (لويس واميني ولانون، 2000) إن أدمغة الأجناس التي تسمى بالثدييات تحتوي على البعد العاطفي حيال الأولاد والأزواج. لكنهم لا يذكرون شيئًا عن تفاوت هذه العواطف بين الذكور والإناث (أنظر: نجلاء حمادة، 2014، 34).

وأظهر تمحيص بعض مؤشرات هذه السير أن بعض علماء النفس والاجتماع والأنثروبولوجيا، المستمدين نظرياتهم من مراقبة الواقع، أمثال فاطمة المرنيسي وصبا محمود وجان بياجيه وكارول غيليكان، كانوا أكثر إصابة لطبيعة الواقع من فلاسفة يتعاطون مع الأفكار المجرّدة والأحكام المسبقة أمثال أرسطو(*) وروسو أو من رجال دين يهتمون بقولبة المجتمع وفق رغبات ومعايير هي دائمًا متحيّزة للذكورة، حتى لو تظاهروا بأنها ملائمة للواقع أو صادرة عن حكمة إلهيّة. فالسير تبيّن أن أم صلاح وأم حسين وأم سعيد، على سبيل المثال، استبطنّ النظرة في أنهن مالكات لـ "فتنة" من ذكاء وقدرة على تدبير الأمور. ونبيلة عبّرت عن قناعة مماثلة في قولها

(*) مثلاً، يستنتج أرسطو ممّا يعتبره بديهياً من أن الرجال أفضل من النساء أن للرجال عدداً من الأسنان يفوق ما للنساء (أرسطو، 1972، الجزء الأول، الفصل الثاني).

لأولاد العائلة التي اعتنت بها أن الفتيات لهن حيلة وقدرة على التأثير لا يملك الفتيان ما يوازيها. ونجد في سيرسعاد ونجمة صدى لما تقوله صبا محمود عن إمكانية تأثير التديّن في تحسين مواقع النساء في العائلة والمجتمع. كذلك ما ذكرناه عن تفلّت النساء من النمط، الذي بدا في قلّة تقيّد نساء هذه السير بالتصنيف الطائفي وتفلّت بعضهن من الممارسات والعقائد الدينية، يساند مقولتي كل من بياجيه وفرويد عنهن في أنهن أقلّ تقيّدًا بأصول "اللعب" أو أقلّ استبطانًا للمعايير الاجتماعية. أما تحيّز ليندا لرغبات أبنائها، بالنسبة إلى خياراتهم في الزواج، على حساب التعاليم الدينية، فيدعم نظرة كارول غليليغان إلى أخلاقيات النساء على أنها تولي الاهتمام الأكبر لسعادة الأفراد على حساب القواعد المجرّدة(*). وفي استشهادها بنص أدبي دعمًا لنظريتها في مواجهة فلسفتي كانت وكولبرغ في الأخلاق، تظهر كاليكان تفضيلاً للأدب على الفلسفة في فهم فروقات الحساسية الأخلاقية بين الجنسين.

ولو قارننا الأدب بالفلسفة لوجدنا أن الأول لا يدّعي أكثر من كونه انطباعًا ذاتيًا، حتى عندما يعالج مجرّدات كالأمومة والجريمة والخيانة وغيرها، بينما يشطح الثاني نحو ادّعاء الموضوعية العقلانيّة التي تتناول الواقع برمّته، حتى عندما يجسّد انطباع الفيلسوف أو تحيّزه.

(*) للدلالة على ما استنتجته عن الفرق بين أخلاقيات الرجال والنساء، تورد كاليكان مقطعًا من رواية "المطحنة على نهر فلوس" تقول فيه ماغي لشقيقها: "لا أريد أن أدافع عن نفسي...أعلم أني كنت مخطئة، تكرارًا. لكن، كنت أحيانًا أخطئ بسبب شعور لو كان لك مثله لكنت أنسانًا أفضل. ولو أخطأت أنت لكنت حزنت على ما سببه ذلك لك من ألم، ولما أردت أن أقاصصك عليه". (كارول كاليكان، 1985، 188).

ومع أن الرأي الفلسفي هو موقفًا جدليًا وإلا صنّف كحقيقة علميّة، فالفيلسوف لا يقول: "هذا رأيي"، لأن أحد قواعد اللعبة الفلسفية تنص على أن يجزم الفيلسوف بما يقوله وكأنه حقيقة مطلقة. ولعلّ سعي الأدباء إلى تصوير الواقع بشكل يتقبّله القرّاء يجعلهم أكثر التصاقًا بواقع الأمور من الفلاسفة، من يستمدون مكانتهم من ترابط جدلياتهم وإحكام المنطق فيها. وفي مقابل هذا الجزم الفلسفي الذي يطال كل البشر أو يطال نصفهم، يصوّر الأديب شخصيات منفردة، تاركًا للقارئ الاستنتاج فيما إذا كانت هذه الشخصيات تضيء فهم المجرّدات التي تجسّدها.

ولأن خبرة معظم الناس تدعوهم لاعتبار الواقع متغاير بين الأزمنة والأمكنة والأفراد، يسهل نسبيًا اقناع القارئ بما يصوّره الأدب على أنه يشبه واقعًا ما بين وقائع كثيرة الاختلاف، خاصة عندما يكون الأديب مجيدًا في تصوير الواقع وتحليله. أما الفيلسوف فمهمته أصعب من ذلك بكثير لأن عليه إقناع قارئه بأن ما يقوله يصف واقعًا متجانسًا تمامًا، بحيث يغدو، مثلاً، كل الرجال أكثر عقلانيّة من كل النساء، وكل النساء أكثر عاطفية من كل الرجال. وفي رأيي أن أحكامًا مبرمة كهذه قلّما تقنع إلا من كانت له مصلحة في الاقتناع أو من كان متأرجح الرأي أو قليل الخبرة.

المراجع

المراجع العربية المذكورة في النص

بيضون، أحمد، **الصراع على تاريخ لبنان أو الهوية والزمن في أعمال مؤرخينا المعاصرين**. (بيروت: منشورات الجامعة اللبنانية، قسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية، 1989).

المحررتان: كاميليا فوزي الصلح وثريا التركي، **في وطني أبحث: المرأة العربية في ميدان البحوث الاجتماعية**، التعريب بإشراف أسعد سليم. (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية والقاهرة: نور/دار المرأة العربية للنشر، 1995). سعاد جوزف، "التأنيث والأسرة والذات والسياسة". ثريا التركي، "الميدان..وطني". ليلى أبو لغد، "ابنة مطيعة تقوم بعملها في الميدان."

بن مراد، محمد الصالح، **الحداد على امرأة الحداد**. (تونس: 1931).

درويش، أسيمة، **شجرة الحب غابة الأحزان**. بيروت: دار الآداب، 2000).

زيدان، يوسف، **عزازيل**. (القاهرة: دار الشروق، 2008).

الغزالي، أبو حامد، **قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة**. (القاهرة: دار الشروق، 2006).

الشيخ، حنان، **حكاية زهرة**. (بيروت: دار النهار للنشر، 1980).

محفوظ، نجيب، **ثلاثية بين القصرين**. (القاهرة: مكتبة مصر).

مطهري، مرتضى، **نظام حقوق المرأة في الإسلام**، تعريب حيدر الحيدر، الطبعة الثانية. (بيروت: الدار الإسلامية، 1991).

الموجي، سحر، **نون**. (القاهرة، دار الشروق، 2008).

السخاوي، شمس الدين محمد عبد الرحمن، **الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع**، الجزء الثاني عشر. (القاهرة: مكتبة القدسي، 1947).

الشلبي، خيري، **أسطاسية**. (القاهرة: دار الشروق، 2010).

مجموعة مؤلفين، التاريخ الشفوي، ثلاث مجلدات، (بيروت: المركز العربـــي للأبحاث ودراسة السياسات، 2015).

________ كوثراني، وجيه،" مقدمة: التاريخ الشفوي: المسوّغ الإبيستيمولوجي". في المجلّد الأول: **التاريخ الشفوي: مقاربات في المفاهيم والمنهج والخبرات.**

________ بوتشيش، إبراهيم القادري،" دراسة تطبيقية في تاريخ المغرب الراهن: 1973-2005". في المجلّـــد الثـــاني: **مقاربـــات في الحقـــل الاجتمـــاعي- الأنثروبولوجي.**

________ علواني، صالح، سير الأولياء والصالحين باعتبارها مصدرًا من مصـــادر التاريخ الثقافي والاجتماعي في الوسط الريفي". المجلّد الثاني المذكور أعلاه.

________ شوبس، ليندا، "تأملات وقضايا ثابتة". المجلّد الثاني المذكور أعلاه.

________ سعدي، محمد، "هيئة الإنصاف والمصـــالحة والتـــاريخ الشـــفوي في المغرب: أنموذج شهادات النساء ضحايا سنوات الرصاص". المجلّـــد الثالـــث: **مقاربات في الحقل السياسي العربـــي.**

المراجع الإنكليزية المذكورة في النص

Ahmad, Leila. **Women and Gender in Islam**. (New Haven, Conn. Yale University Press, 1992).

Aristotle. **Generation of Animals**, Book 1 ch. 21. Translation: D.M. Balme. (Oxford: Clarendon, Aristotle Series, 1972).

Beauvoir, Simone de, **The Second Sex**. (New York: Vintage Books, 1989 - Orginal in French 1952).

Flaubert, Gustave, **Madame Bovary**. (First published in 1877).

Freud, Sigmund. “Inhibitions, Symptoms, and Anxiety”. **Standard edition of The Complete Psychological Works of Sigmund Freud in English**. (1925-26).

Gilligan, Carol. “In a Different Voice”. Reprinted from **The Future of Difference**. Editors: Hester Eisenstein and Alice Jardine. (New Brunswick, N.J. Rutgers University Press, 1985).

Hamadeh, Najla,” Wives or Daughters: Structural Differences Between Urban and Bedouin Lebanese Co-wives”. **In Intimate**

Selving: Gender, Self, and Identity, Editor: Suad Joseph. (Syracuse, NY: Syracuse University Press, 1999.

____________ "Recognition of Difference: Towards a more Effective Feminism". In **Arab Feminism: Gender and Equality in the Middle East**, Editors: Jean Said Makdisi, Noha Bayoumi, and Rafif Sidawi. (New York: I.B Taurus in association with the Centre for Arab Unity Studies, 2014.

Joseph, Suad, "Brother – Sister Relationships: Connectivity, Love, and Power in the Reproduction of Patriarchy in Lebanon", **Intimate Selving in Arab Families: Gender, Self, and Identity.** (New York: Syracuse University Press, 1999).

Lewis, Thomas, Amini, Fari, Lannon, Richard **A General Theory of Love**. (New York: Vintage Books, a division of Random House Inc., 2001).

Mahmoud, Saba. **Politics of Piety: The Islamic Revival and the Feminist Subject**. Princeton and Oxford: Princeton University Press, 2005).

Mernissi, Fatima. **Beyond the Veil**. Exerpt in **The Philosophical Quest: A Cross-Cultural Reader**. Editors: Gail M. Presby, Karsten J. Struhl, & Richard E. Olsen. Second Edition. (Boston: McGraw-Hill Higher Education, 2000).

____________ **Sheherazade Goes West: Different Cultures Different Harems**. (New York: Washington Square Press, 2002).

Nelson, Hilde Lindemann, **Damaged Identities, Narrative Repairs**, (Ithaca, London: Cornell University Press, 2001)

Nietzsche, Friedrich. **Beyond Good and Evil**. Translated by R. J. Hollindale. Pinguin Books. (London: Pinguin Group, 1973).

Piaget, Jean. **The Moral Judgment of the Child**. First published 1932. (Detroit: Free Press, 1997).

Tolstoy, Leo, **Anna Karenina**. (First published in 1877).

Zeldin, Theodore. **An Intimate History of Humanity**. (New York: Harper Prennial, 1994).

تقدّم نجلاء حمادة في «عدس وكافيار» دراسة شيقة لحياة عدد من النساء، من طبقات اجتماعية مختلفة. ورغم الاختلاف في مجاري حياة هؤلاء النساء، يتميّز الكتاب بتصوير قدرة معظمهنّ الملفتة على اتّخاذ القرارات المفصليّة المستقلّة، في نطاق الأسرة وخارجها. فنبرة النساء في هذا العمل ليست خافتة أو متلاشية كما عهدناها في كثير من الأدبيات. ويكشف تحليل حمادة الدقيق عن منحنيات جديدة ومدهشة لفهم التزام بعض النساء بقيم المجتمع ومؤسساته. إن أمثلة السرد وتحليله التي يحتويها هذا الكتاب تمثّل، في رأيي، الكتابة النسويّة في أعلى مستوياتها. — **ثريا التركي**

فى هذا الكتاب الممتع تستخدم نجلاء حمادة مقاربة التاريخ الشفوى لتكتب سير نساء من لبنان فتقدم إضافة متميزة فى التاريخ الاجتماعى اللبنانى والعربى. نستمع ال أصوات النساء معبرة عن آلامهن وصراعاتهن وطموحاتهن دون مواراة أو تجميل، فنكتشف عوالم جديدة ورؤى متعددة عن الأنوثة والرجولة، عن علاقة النساء بالحداثة، عن الأمومة وأدوار النساء التقليدية، عن الوطن، عن معنى الحرية، رؤى وتجارب تحثنا على مساءلة السائد والمتوقع. — **هدى الصدة**

نجلاء حمادة، حائزة على دكتوراه في الفلسفة من جورجتاون في الولايات المتحدة. درّست لما يزيد عن العقدين من الزمن في الجامعة الأميركية في بيروت ثم في الجامعة اللبنانية الأميركية. ولها دراسات وأبحاث عديدة منشورة في موضوعات فلسفية وأنثروبولوجية وعن المواطنة والتربية والقيم وحقوق النساء. سبق أن نشرت لها الدار العربية للعلوم-ناشرون كتاب قصص للناشئة بعنوان «ثلاث قصص». ولها، باللغة الإنكليزية، دراسة مقارنة عن الضرائر تشبه «عدس وكافيار» في ارتكازها على البحث الميداني وصولاً إلى رواية سير لنساء من مشارب مختلفة. وكلا العملين ينتميان إلى التاريخ الشفوي، وينتهيان بتحليل ما يتضح عمّا يروى من وقائع.


ISBN 978-614-01-1565-1




